يصدرها حلمي مراد

مطبوعات كتابي

الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية

الخطيئة الأولى

لأديب ايطاليا المعاصر

البرتو مورافيا



قصتان طويلتان كاملتان في عدد واحد

١٠ قروش


الخطيئة الأولى
قصة طويلة كاملة
لأديب ايطاليا المعاصر
البرتو موراڤيا

AGOSTINO

مطبوعات

كتابي

الترجمة الكاملة لشوامخ الكتب العالمية

يصدرها : حلمى مراد



مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب السابع

الخطيئة الأولى : ترجمة محمد بدر الدين خليل
فتاة من الأقاليم : ترجمة سعد مكاوى

الادارة : عمارة الجندول ، ١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦

مجموعة « كتابى »

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها حتى الآن أربعة وأربعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد أول كل شهر ٠٠ وفيما يلى قائمة الكتب التى صدرت :

خطايا الحب وكتب أخرى ٠ قلب عذراء ٠ الهاربة من الجنة ٠ حواء الجديدة ٠ أحدب نوتردام ٠ جريمة حب ٠ عشيقة نابليون ٠ مذكرات كيوبيد ٠ صنم تحطم ٠ حديقة الله ٠ عندما تحقد المرأة ٠ لعبة الحب والموت ٠ توبة خاطئة ٠ أيها الربيع ترفق ٠ الشيطان على الأرض ٠ ليدى هاملتون ٠ الارملة المرحة ٠ حياة جورج صاند ٠ حياة سارة برنار ٠ رباعيات عمر الخيام ٠ حياة بيتهوفن ٠ حياة موسولينى ٠ كوخ العم توم ٠ الزوج والعشيق ٠ البوهيمية ٠ فتاة لها ماض ٠ ترويض النمرة ٠ فن الحب ٠ الجريمة والعقاب ٠ المنافق ٠ أميرة مصر ٠ الامطار ٠ افروديت ٠ أقنعة الحب السبعة ٠ سالومى ٠ العدد ٣٦ ــ ٣٧ ــ ٣٨ ــ ٣٩ ــ ٤٠ ــ ٤١ ــ ٤٢ ــ ٤٣ ــ ٤٤

◆ وتطلب من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو (فؤاد الاول سابقا) بالقاهرة (عمارة الجندول) ، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالص أجر البريد المسجل ، ما عدا العددين العاشر والعشرين ، وثمن كل منهما ٢٠ قرشا ٠ والاعداد ١٣ ، ١٦ ، وابتداء من العدد ٢٥ ، ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا ٠ أما الاعداد الستة الاولى فقد نفدت ، والادارة مستعدة لشرائها ٠

◆ الاشتراكات : عن سنة (١٢ عددا) : فى مصر والسودان : ١٢٠ قرشا، وفى العراق وسوريا ولبنان والاردن : ما يوازى ١٣٠ قرشا مصريا ، وفى الحجاز ١٦٠ قرشا ٠

◆ ملحوظة : ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات : فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة أو بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد Money Order

مطبوعات كتابى

صدر منها : قصة مدينتين ، ذات الثوب الابيض ، الخالدون ، الخاطئة ، حياة امرأة (جزءان) ٠ وثمن كل من الاول والرابع ٢٠ قرشا ، والثانى ١٢ ، والثالث والخامس والسادس ١٠ قروش (خالص البريد المسجل)

هذه السلسلة

عزيزى القارىء ..

◆ .. **وأخيرا** ، بعد طول تحضير واعداد ، استطعت أن استجيب اليوم لالحاحك وأنزل على رغبتك التى لم تكف عن ملاحقتى بها ـ منذ أصدرت العدد الأول من هذه المطبوعات الربيبة لكتابى ـ مطالبا اياى بموالاة اصدارها بانتظام ،جنبا الى جنب مع كتابى ، رغم ضخامة ما يقتضيه ذلك من جهد ، وفداحة ما يكلفنى اياه من مشقات .. ونفقات

لكنه جهد يهون ، ومشقات تتضاءل ، أمام الفيض الغامر الذى حبوتنى به من ثقتك الغالية .. وأنا أعلم عن يقين كم هى غالية هذه الثقة ، وعزيزة المنال ، وكم تضن بها على الكثير من المشروعات ـ القديم منها والجديد الذى يظهر كل حين ـ ربما لانك تلمح وراءها ، بفطنتك الواعية ، أهدافا أخرى غير خدمة الثقافة لوجه الثقافة .. وعشق الأدب شغفا ، بل هوسا ، بالأدب !

وأنا لن احدثك عن المشقة التى تكبدتها، وأتكبدها كل يوم، كى أحتفظ بهذه الثقة الكريمة ـ فى أعز مكان من نفسى وقلبى ـ واظل على الدوام عند حسن حظك .. لن احدثك عن الليالى الكثيرة الطويلة التى اشرق على فيها الصباح ، وانا ما أزال مكبا على الورق ، أريق عليه مع المداد أعصابى ، كى أصوغ لك ـ وانمق ـ مزيدا من اللفظ الجميل الذى تتعشقه، والمعنى الدقيق الذى تتطلبه ، والعبارة الطلية التى تتذوقها .. أو لكى أذود عنك سطورا قد لا تستسيغها ، أو أعدل عبارات تنقصها السلاسة،أو «أغربل» لك موضوعا ربما لا تهضمه،أو «أصفى» لك مادة كتاب جاف ـ ولكنه نافع ـ حتى أستخلص منه أوفر نصيب من العصارة ، ولا أدع غير النفاية ! ـ وكأن الف رقيب

ومراجع واقفون لى بالمرصاد يحصون على ما آخـــذ وما أدع ، ويقارنون بين الأصل وصورته !

بل انى أكره أن أحدثك عن الليالى الأخرى العديدة التى قضيتها ـ وأقضيها كل شهر ـ ساهرا فى المطبعة قبيل خروج كل «مولود» جديد الى النور ، أستوثق بنفسى من خلوه من كل خطأ أو عيب،وأرقب اناقة الطبع،ونظافة التجليد،وجمال كل من الجوهر والمظهر،و «وسامة» كل من الباطن والغلاف ٠٠ فاذا لمحت فى أى وجه من هذه الوجوه مأخذا ولو تافها يشوبه،عدت الى مخدعى مع مطلع النهار ـ والكتاب فى أيدى الباعة ،يحملونه اليك ـ محطما من الاعياء،والحسرة ، والشوق المضنى الى الكمال ٠٠ وعدم الرضى عن نفسى وعن الكتاب !

٠٠ وهل أحدثك عن مبلغ ألمى اذا صادف أن أخطأ عامل من مئات العمال ، فى تجليد نسخة من آلاف النسخ ، فكرر فيها ملزمة ، أو قلبها ـ رأسا على عقب ـ بتأثير السرعة ،أوالارهاق، أو النعاس ٠٠ ثم لم يتداركها عمال الفرز فأبلغنى بائع انها وصلت على هذه الصورة المشوهة الى يدك ؟! ٠٠ اننى يومئذ لا أستريح حتى تعيدها الى فأبدلها لك ، وأرد لك معها ما تكلفت من نفقة ارسالها الى بالبريد ٠٠

عزيزى القارىء ٠٠

◆ **فلتغفر** لى هذا الاسترسال ٠٠ فلقـــد هفت نفسى الى «التنفيس» لك عن طرف من متاعبى ، وأنا على عتبة «مضاعفة» هذه المتاعب، بمشروعى ـ ومشروعك ـ الجديد ! ٠٠ وماأحسبك تضن على ـ فى مناسبة كهذه ـ بفرصة أخلو فيها اليك ، كى نتبادل هذا الحديث الخالص ٠٠ حديث النفس الى النفس ٠٠ فلقد أثارت المناسبةفى خاطرى فيضا من الذكريات ـ وكأن سدا عاليا كان يحجزها ثم فتحت ابوابه فجأة ، فانطلقت منه هادرة عارمة ، لتذكرنى بقصة هذه الصلة التى ربطت بينى وبينك منذ قرابة أربعة أعوام ، حفلت بألوان من الكفاح المرير ، فى سبيل تثبيت دعائم هذا البنيان الذى أقمناه معا ـ أنت وأنا ـ

حجرا بعد حجر ٠٠ بل هذا «الحلم» المشترك الذى حققناه سويا، بالتكاتف ، والاخلاص ، والايمان بالهدف !

واليوم، ونحن على عتبة مرحلة جديدة من الطريق ، كان لابد أن نقف برهة ، لنستمد من الماضى عبرة ، ومن الحاضر عدة ، للمستقبل الذى نتطلع اليه ٠٠ وما أكثر ما اعددت لك من عدة لهذا المشروع الذى حفزتنى أنت اليه ، ولكن ، اما وقد طال حديثنا أكثر مما قدرت ٠٠ فانني اجتزىء مما بقى منه على أمرين:

أولهما اننى، توفيقا بين حرصى على الا تجمع مادة هذه المطبوعات الطويلة كلها ببنط الحروف الكبيرة، كى لا يطول الكتاب زيادة على طوله ، فيصير الجزء جزئين ، او الجزئين ثلاثة ٠٠ وبين حرصى على الا تجمع مادته كلها كذلك بالحروف الصغيرة ، التى شكا الكثيرون من ارهاقها لبصرهم – ولا سيما فى القراءات المطولة – اهتديت فى النهاية الى حل وسط يوفق بين الغايتين : هو أن أجمع فصلا بالبنط الكبير ، يليه فصل بالبنط الصغير ، بالتناوب ٠٠ كى لا تتعب العين من قراءة نصف الكتاب ٠٠ مثلا ٠٠ بالبنط الصغير دفعة واحدة !

والأمر الثانى ، اننى تلقيت منذ اشهر رسالة من قارىء يقترح فيها أن تطبع «المطبوعات» على هذا الورق المسمى «رومان»، الذى تطبع عليه جميع الكتب الفرنسية والانجليزية المماثلة. وقد وجدت الاقتراح وجيها ، فبادرت الى تنفيذه ٠٠ واستوردت هذا الورق بالفعل من الخارج خصيصا لهذه السلسلة ٠٠ وأملى أن يروقك ، وأن تكتب لى برأيك فى هذا الصدد

وأخيرا ، ففى مكان آخر من هذا الكتاب ، تجد قائمة بالمجموعة الاولى التى أزمع أن أقدمها اليك تباعا فى الاعداد القادمة من «مطبوعات كتابى» ٠٠ (وغنى عن البيان اننى أرحب بكل اقتراح أو رأى لك فيما احتوته القائمة المذكورة ، أو فيما تود اضافته اليها ٠٠)

والى اللقاء فى الكتاب القادم ، الذى يصدر فى منتصف ديسمبر بعون الله

حلمى مراد



« .. وبين وقت وآخر ، كانت « جيما » تدير وجهها اليه ، وتلصق خدها بخده ، وهى تغمغم له ببضع كلمات .. »

(من قصة « فتاة من الاقاليم »)

ألبرتو مورافيا



◆ « ان رسـالة الأديب هى أن يصور الحياة بمساوئها وخيراتها ، وان يحلل هذه الحياة من النواحى النفسـية والفلسفية والاجتماعية ، دون أن يصدر فيها حكما ، أو يبحث عن حل لمشكلاتها، قانعا بان يكون دوره دور المتفرج الذى يعرض ما شاهد بالدقة والامانة ، مع وشى من مشاعره وتجاربه وخبرته ٠٠ »

هذه هى القاعدة التى وضعها الاديب الايطـالى المعاصر « البرتو مورافيا » لايضاح رسالة الاديب ، كما يراها ٠٠ وقد استطاع ان يلتزم هذه القاعدة منذ وضـع أولى رواياته « المستهترون » ، وهى رواية تناول فيها حيـاة الفريق المترف من الطبقة الوسطى من مجتمع روما ، فكان نصيبها ان صادرتها الحكومة الفاشية فى ذلك الحين !

والواقع أن « مورافيا » لاقى من الفاشية عنتا ما بعـده عنت ، اذ اعتبرت رواياته نقدا للمجتمع الذى انتعشت فيه الفاشية فى ايطاليا ، ومن ثم لم تكن قط موضع رضى لدى « وزارة الثقافة الشعبية » ، وكانت قصته مع الطغيان الفاشى قصة الكاتب الحر أو الفنان الحر الذى أبى أن يذل مواهبـه لتسلط السلطة الحاكمة الفاسدة ، بل أصر على أن يضيف الى الأدب الايطالى – فى أعقاب الحرب العالمية الاولى – ثروة جديدة ، حرة ، تجعله يساير آداب الدول الاوربية الأخرى ٠ وقد وفق « مورافيا » الى ذلك ، رغم كل ما لاقى ٠٠ بل أن توفيقه يمكن أن يوصف بانه جاوز كل ما كان يرجو ، اذ اسـتطاع ان يسير بالأدب الايطالى جنبا الى جنب مع الادبين الفرنسى والانجليزى ، اللذين كانت كل الظروف تساعدهما على الانطلاق الحر ٠٠

شهر عسل ٠٠ عصيب !

◆ وعندما قضى الحلفاء على الحكم الفاشى فى روما ، كان « مورافيا » يقيم فى بلدة (فوندى) ٠ وقد كانت لاقامته هناك قصة طريفة ، يرويها الكاتب

الأمريكي « بان جرنيليس » ، الذى كان أول من قابل « مورافيا » عقب تحرير روما .. وتتلخص هذه القصة فى أن الأديب الايطالى احس فى ٨ سبتمبر سنة ١٩٤٣ ان الفاشيين - وقد اشتدت محنتهم - تحولوا يفتكون بالأحرار ، وانهم يوشكون ان يعتقلوه !.. وكان يومئذ حديث عهد بالزواج ، فبادر وعروسه بالفرار من روما ، قاصدين الى (نابولى) . ولكن القطار الذى استقلاه لم يستطع ان يتجاوز (فوندى) ، وهى بلدة صغيرة تهجع عند سفح الجبال. وهناك ، أمضى الزوجان شهر عسل لعله الاول من نوعه : اذ اقاما فى حظيرة للحيوان منخفضة السقف ، قذرة الجدران ، عششت العناكب فى أركانها .. وكانت الامطار والغارات الجوية لا تنفك تقض راحتهما !

على أن هذه المحنة ، محنة العيش المحفوف بالأخطار ، المشوب بالشظف ، والعناء ، والجوع فى (فوندى) .. هذه المحنة لم تؤثر فى نشاط « مورافيا »، فقد كتب فى احضانها عدة قصص قصيرة ، كما أتم رواية « القنـــاع » ، والرواية التى أقدمها لك فيما يلى : « اجوستينو » - او الخطيئة الأولى - التى تضمنت تحليلا من أروع ما كتب فى وصف الأزمات العاطفية فى حياة الفتى المراهق ، الذى يقف مترددا ، حائرا ، جاهلا ، على عتبات الرجولة !

نزعته الأدبية .. وقصصه الأولى

◆ ومع أن روايتين من روايات « مورافيا » ترجمتا الى الانجليزية ونشرتا فى أمريكا قبل الحرب - وهما « المستهترون » ، و « الخاطىء الطموح » او « عجلة الحظ » - الا ان اسم « مورافيا » وانتاجه لم يذع صيتهما خارج ايطاليا الا بعد الحرب العالمية الثانية

ويبدو تأثر « مورافيا » بمذاهب الروائيين الحديثين فى فرنســا وانجلترا واضحا كل الوضوح فى انتاجه ، حتى لقد دفعه هذا التأثر الى التحـــرر من الأساليب التقليدية فى الأدب الايطالى . وكان انتاجه فى البداية قاصرا على الشعر والقصص القصيرة ، ثم شرع يحاول كتابة الروايات ، فألف روايتين كان فيهما مقلدا ومقتبسا أكثر منه مؤلفا ومبتكرا .. بل انه رأى من نواحى النقص فيهما ما جعله يخجل من نشرهما ، فلم يقدر لهما أن تريا النور .. ومن ثم فان اول رواية نشرت له ، وهى « المستهترون » ، تعتبر أول انتاجه الروائى الصحيح ، اذ شعر وهو يكتبها بأن قدميه قد ثبتتا فى الميدان ، وانه وفق الى الافصاح عن بعض ما فى نفسه ، وعن الوان مما شاهد وخبر فى الحياة ..

وقد شرع « مورافيا » فى كتابة القصة المذكورة فى ســنة ١٩٢٥ ، فلم

يفرغ منها الا فى سنة ١٩٢٨ .. واستطاع ان يرسم فيها صورة دقيقة ، مفصلة ، للحياة اليومية التى كانت تعيشها أسرة من أسرات الطبقة الوسطى فى روما فى ذلك الحين .. وقد كتب فى أواخر سنة ١٩٤٥ مقالا يدفع فيه عن نفسه ما اعتاد ان يتوهمه به غرماؤه من تطرف فى الاشتراكية ، وعداء للبورجوازية ، فاستشهد بروايته تلك - « المستهترون » - مدللا على انه انما استمد فكرتها ووقائعها من الحياة الاجتماعية التى نشأ فى رحابها ، والتى أثارت - حين اكتمل وعيه - اشمئزازه وتقززه !

يسخر من موسوليني ، فيصادر كتبه !

◆ وأضفت الرواية على « مورافيا » شهرة ، ازدادت ذيوعا عندما صودرت النسخ التى كانت معروضة منها فى مكتبات ايطاليا !.. وقد أصدر بعد ذلك مجموعة قصص قصيرة ، اعقبها برواية « الخاطىء الطموح » . وكان فى الكتابين ماضيا فى رسم صور حياة الطبقة الوسطى فى ايطاليا ، وما يشيع خلالها من بواعث وضيعة ، خسيسة ، تلهم ابناءها الأنانية البشعة ..

على أن « مورافيا » اتخذ فى روايته التالية - « القناع » - منحى جديدا ، اذ رسم فيها بأسلوب لاذع ديكتاتورا جعل مسرح حكمه فى أمريكا الجنوبية ، وحرص على أن يصور مطامعه الجشعة ، ونواحى النقص والضعف فى شخصيته، ببراعة يعز معها على القارىء أن يتجاهل انه انما كان يصف بعض صور الحياة التى كان يحياها فى ايطاليا فى عهد الحكومة الفاشية ، مما حدا بهذه الحكومة الى أن تبادر الى مصادرتها واعدام نسخها !

أحسن قصة ايطالية فى عام ١٩٤٥ !

◆ وتعتبر « اجوستينو » - الخطيئة الأولى - من أكمل روايات « مورافيا » وأعظم أعماله الأدبية نضوجا . وقد صدرت لأول مرة فى طبعة محدودة النسخ ، ازدانت بصور من رسم الفنان الايطالى « ريناتو جتسو » . على انها لم تلبث - بعد سقوط موسوليني وحكومته - أن لقيت رواجا شجع على اصدار طبعة شعبية منها . وكان من نتائج هذا التوفيق الرائع أن حظيت بجائزة أحسن رواية نشرت فى ايطاليا فى سنة ١٩٤٥ !

ويرى بعض النقاد ان « اجوستينو » أدق رواية فى الأدب الحديث تناولت - بصراحة - ظواهر التطور ويقظة الرجولة فى نفس الفتى المراهق !

ويخطىء الكثيرون الذين يعتقدون ان التعرض لموضوع المراهقة كفيل بأن ينزلق بالكاتب الى حمأة الأدب المكشوف المبتذل - فالواقع ان « مورافيا » لم يكن فى أى من رواياته - وفى « اجوستينو » بوجه خاص - بالكاتب الذى

يهبط الى درجة التبذل لاسترضاء الكاتب ، وانما هو محلل نفسى ثاقب الملاحظة ، يتعرض لعلاج موضوعات شائكة يتهرب منها كثير من الكتاب ـ خشية أن يتهموا بالتبذل ـ ونقصد بها موضوعات « الجنس » !

ومن الصحيح أنه يقف فى ذلك عند حد التصوير ، لأنه يرى أن رسالة الأديب ـ كما قدمت لك ـ هى تصوير الحياة وتحليل نواحيها النفسية والفلسفية والاجتماعية ، مع ترك مهمة علاجها لأرباب هذا العلاج ممن تخصصوا فى تلك النواحى .. هذا كله صحيح ، ولكنه لا يحرم « مورافيا » من أن يكون له حقه ـ بل نصيب كبير ـ من التقدير .. فهو كالعالم الذى يرتاد الميادين العلمية ، ليمهد السبل للمخترعين .. مثله فى ذلك مثل « اينشتين » اذ بحث موضوع تفتت الذرة وتحول المادة الى طاقة ، ووضع المعادلات العلمية لذلك ، ثم ترك المسرح للمهندسين والكيمائيين وغيرهم كى يخترعوا القنبلة الذرية ، والأفران التى تولد الطاقة الذرية للأغراض السلمية .. الخ

ليس هذا فحسب ، بل أن الدور الذى يقوم به « مورافيا » يتجاوز نطاق العلماء والاخصائيين ، الى القراء العاديين أنفسهم : انه يكشف للآباء أسرار مرحلة من أدق المراحل التى يمر بها أبناؤهم ، ويطلعهم على بواعث انحراف الأبناء فى مرحلة المراهقة ليتفادوها .. كما انه يبين للمراهقين أنفسهم الأسباب التى تبعث فى نفوسهم الانفعالات التى تحيرهم . وغنى عن البيان آن كشف « بواعث » الانفعالات من وسائل العلاج النفسى المعترف بها !

استغرقت منه كتابتها عاما !

◆ ويقول « مورافيا » انه بدأ فى كتابة « اجوستينو » فى سنة ١٩٤٢ ، وقد قضى أكثر من عام حتى أتمها .. ثم كتب بعدها الرواية التى اشتهرت باسم « امرأة من روما » ، والتى صور فيها حياة غانية ايطالية فى السنوات السابقة للحرب مباشرة . وهو يستطرد قائلا : « اننى اعتقد أن أى روائى لا يستحق أن يحمل هذا اللقب ما لم يوفق الى خلق شخصيات لا تشبه نفسه ، بل تكون نماذج وامثلة لما فى المجتمع .. فالواقع ان معظم أدب القصة الحديث يدور فيه السرد بضمير المتكلم ، على لسان البطل ، الأمر الذى يخشى معه ان يفهمه القارىء العادى على أنه اعترافات « شخصية » يسجلها المؤلف من واقع حياته !.. بيد أن ثمة اسلوبا تقليديا عريقا فى أدب الرواية ، لم يمت بعد ـ وما أراه سيموت ـ ذلك هو الأسلوب الذى يهدف الى خلق شخصيات مستقلة لها طابعها الخاص الذى يميزها عن المؤلف . وانى لأعتقد أحيانا أن القصص التى تكتب اليوم على شكل اعترافات وتحليلات ، ليست سوى تمهيد غير مقصود ـ بل ولا يفطن اليه المؤلفون أنفسهم ـ لبعث ذلك الأسلوب الروائى العريق الذى أشرت اليه .. تماما كما مهدت اشعار الفروسية ـ فى أوربا ـ

السبيل لخلق شخصية « اورلاندو » ، والروايات الرائعة التى كانت « دون كيشوت » فى مقدمتها .. وقد لا تكون « اجوستينو » مثالا دقيقا لذلك اللون من القصص ، بيد اننى اعتبر ان الرواية الأخرى ، التى تدور حول بغى تصف حياتها ، هى محاولة جدية فى هذا الاتجاه »

ومن حق « مورافيا » ان نختتم هذه الكلمة التى نقدمه بها لقارىء العربية ، بما يكاد يجمع عليه كثير من النقاد المحايدين المنصفين ، من أن مؤلفاته ستظل موردا يمد الأدب الايطالى المعاصر بما كان يفتقده كل الافتقاد : أعنى بالرواية التى تحلل الأخلاق ، والسلوك ، والطباع .. والنفس !

« فتاة من الأقاليم »

◆ أما القصة الثانية لمورافيا ، التى اقدمها لك بين دفتى هذا العدد ، فهى قصة « فتاة من الاقاليم » La Provinciale التى كتبها عام ١٩٣٧ ، والتى مثلتها على الشاشة منذ عامين فى شريط سينمائى ناجح ، الممثلة الايطالية « جينا لولو بريجيدا » - وقد سمى الفيلم ، خطأ : « القروية » .. والفرق بين فتاة القرية ، وفتاة المدينة من مدن الاقاليم ، أوضح من أن يحتاج الى بيان

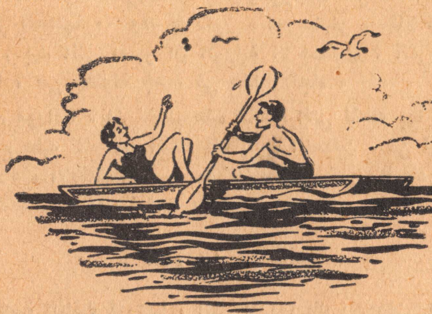
وقصة « فتاة من الاقاليم » من نوع آخر مغاير لقصة « اجوستينو » من كل وجه : فبينما هذه تعتمد على التحليل النفسى أولا وأخيرا ، اذا بتلك تعتمد على الحركة والحوادث المتلاحقة .. فبطلتها فتاة ذات حيوية وطموح ، تضيق آمالها بالحياة الراكدة الرتيبة التى تفرضها عليها حياتها فى احدى مدن الاقاليم .. وتتمرد أحلامها على قيود الفقر والبيئة المتواضعة التى نشأت وعاشت فيها ، فتحلم بالثراء ، والزواج من شاب مترف،والانتقال الى العاصمة، و .. و .. الى آخر قائمة أحلامها !

فالى أين تقودها هذه الآمال والأحلام ؟

هل تطير بها الى سماء الخيال ، فتنعم بما طالما تاقت اليه ؟

أم تهوى بها من حالق ، الى قاع الحقيقة ، فتسقط مهشمة العظام ، محطمة النفس ؟

تعال نقرأ الجواب بين سطور القصة الثانية من هذا الكتاب ، ونحن نتابع فصولها بشغف .. وبادراك متزايد لأهمية هذه المشكلة التى تصطرع فى نفوس الآلاف من فتيات الاقاليم .. فى كل بلد !



الفصل الأول

• **اعتاد** « اجوستينو » وأمه ، فى تلك الأيام المبكرة من الصيف ، أن يخرجا معا كل صباح ، فى قارب صغير ٠٠ وكانت الام قد استأجرت فى المرات القلائل الاولى نوتيا يجذف بهما ، ولكن المجذافين لم يلبثا ان عهد بهما الى «اجوستينو» ، منذ أظهر بجلاء استياءه لوجود الرجل معهما ٠ وكان التجذيف فى البحر الهادىء الشفاف ، فى البكور ، يبعث فى نفسه متعة ، بينما كانت أمه تجلس مواجهة له ، فى اشراق البحر والسماء وبهائهما ، وتأخذ فى الحديث اليه بصوت ناعم ، وكأنه رجل ، لا مجرد غلام فى الثالثة عشرة من عمره !

كانت أم « اجوستينو » امرأة طويلة ، جميلة ، ما تزال فى عنفوان شبابها ، فكان « اجوستينو » يحس بالزهو كلما انطلق معها فى احدى النزهات الصباحية ، اذ يشعر بأن جميع المستحمين على الشاطىء يرقبونهما ، فيعجبون بأمه ، ويغبطونه ! ٠٠ وكان وقع صوته فى أذنيه يبدو ـ لفرط يقينه من ان جميع الأعين مركزة عليهما ـ أقوى مما هو

عادة . وكان يخال لكل حركة من حـــركاته معنى رمزيا ، كأنها حركات مرسومة فى مسرحيـــــة ، وكأن امه تقف على خشبة مسرح ـ لا على الشاطىء ـ وتتعرض للنظرات المتلهفة من مئات النظارة !

وكان يحدث أحيانا ان تظهر أمه فى ثوب جديد ، فلا يملك ان يقاوم الرغبة فى ان يبدى رأيه فى الثوب بصوت مرتفع ، وفى نفسه أمل خفى في ان يسمعه الآخرون !.. كما كانت أمه تبعث به من آن الى آخر الى كوخ الشاطىء ـ « الكابين » ـ ليأتيها بشىء ما ، وتقف بجانب القارب فى انتظاره ، فكان يطيعها فى فرح خفى ، ويسعده لو اســـــتطاع ان يعوق انطلاقهما فى البحر ولو لبضع دقائق !.. ثم لا يلبثان ان يستقلا القارب فى النهاية ، فيســـتولى « اجوستينو » على المجذافين ، ويجـذف متجها الى عرض البحر ، ولكنه يظل طويلا تحت تأثير الانفعـــال المنبعث من غروره البنوى .. غرور الابن المزهو بأمه !.. فاذا ما أصبحا على مبعـــدة من الشاطىء ، سألته ان يكف عن التجذيف ، لترتدى قلنسوة من المطاط تأهبا للسباحة ، وتخلع نعليها الخفيفين ، وتنساب الى الماء .. ويتبعها « اجوستينو » فيظلان يسبحان حـــول القارب الخالى ، ومجذافيه العائمين على سطح الماء ، وهمــا يتكلمان فى مرح ، فيرن صوتاهما صافيين فى فضاء البحر الصامت ، الهادىء ، المنبسط تحت أشعة الشمس . وقـــد تشير أمه أحيانا الى قطعـــة من الفلين تتأرجح فوق الماء على مسافة منهما ، وتتحداه ان يسبقها اليها ، وتتركه يتقـدمها ببضعة أمتار ، ثم يندفعان سابحين باسرع ما يستطيعان نحو الفلين .. أو قد يتباريان فى الغوص قافزين من فوق حافة القارب ، ناثرين الماء الساكن ، الشاحب اللون ، وهمــا يغوصان !.. ويتأمل « اجوستينو » جسد أمه وهو يندفع متعمقا تحت الماء ، وسط فيض من الفقـــاقيع الخضراء ،

ولا يلبث فجأة ان يغطس وراءها ، تواقا الى ان يتبعها اينما ذهبت ٠٠ ولو الى قاع البحر !٠٠ وكان يخيل اليه وهو يلقى بنفسه في الدوامة التي أحدثتها أمه ، ان الماء البارد ، الغزير، خليق بأن يظل محتفظا بأثر مروق جسدها الحبيب خلاله !

وكانا اذا ما فرغا من الاستحمام ، يصعدان الى القارب ثانية ، فتقول أمه وهى تحدق فى صفحة البحر الهادىء الوضاء : « ما أجمله !٠٠ أليس كذلك ؟ » ٠٠ ولم يكن « اجوستينو » يحير جوابا ، اذ كان يحس بأن استمتاعه بجمال البحر والسماء ، يرجع فى الواقع - وقبل كل شيء - الى ذلك الاحساس العميق الذى يوحيه اليه الارتباط بأمه ٠٠ بل لقد كان يسائل نفسه أحيانا ، ما الذى كان يبقى من كل هذا البهاء لو لم توجد تلك الالفة بينه وبين أمه ؟!

ويظلان فى القارب، فى عرض البحر ، أمدا طويلا ، يجففان جسديهما تحت أشعة الشمس ، التى تأخذ فى الاشتداد عند الظهيرة ٠٠ واذ ذاك لا تلبث أمه ان تروح فى اغفاءة ، وهى مستلقية على الجزء المنبسط بين جانبى القارب، وشعرها مسترسل فى الماء ، وعيناها مغمضتان ، بينما يظل «اجوستينو» قائما على حراستها من مجلسه فى القارب ، وقد ثبت بصره عليها ، وكاد يحبس أنفاسه اشفاقا من ان يقض نعاسها ! **٠٠ ثم لا تلبث ان تفتح عينيها وتبدىاعجابها بالمتعة الطريفة التى يستشعرها المرء اذ يستلقى على ظهره ويغمض عينيه ، ويحس بالبحر ينساب متأرجحا تحته ٠٠ أو تسأل « اجوستينو » ان يناولها علبة سجايرها ٠٠ أو تسأله ما هو أبدع من ذلك : تسأله ان يشعل سيجارة ويقدمها اليها !**

٠٠ وكان هو يؤدى كل تلك الامور فى عناية ، وفى تحمس يثير ارتعاشا في جوارحه !٠٠ وبينما تنصرف أمه الى التدخين ، كان « اجوستينو » ينحنى الى الأمام موليا ظهره

اليها ، وقد أمال رأسه جانبا ليستطيع ان يتأمل سحب الدخان الأزرق التى تنم عن الوضع الذى أراحت أمه رأسها عليه ، تاركة شعرها ينتشر حولها على صفحة الماء ٠٠ ثم تطلب الى « اجوستينو » ـ فى لهجة التى لم تقنع بما نالت من الشمس ـ ان يجذف ، على ان لا يلتفت نحوها ، بينما تخلع حمالة الصدر ـ «السوتيان» ـ وتنضو عنها «المايوه» لتعرض جسدها بأكمله لحرارة الشمس ٠ ويمضى «اجوستينو» في التجذيف، مغتبطا بما أوصته به من عدم الالتفات نحوها ، وكأن فى ذلك اشراكا له في بعض الفرائض أو الطقوس ! ٠ ٠ ولم يكن يقتصر فى تنفيذ رغبتها على كبح نفسه عن مجرد الحلم بأن يلتفت ، بل انه كان يحس بأن جسدها العارى المستلقى خلفه ـ جد قريب منه ـ فى غمرة الشمس ، كان يلتف فى هالة من غموض يثير فى نفسه أعظم آيات التوقير والتقديس !

★ ★ ★

◆ **وذات** صباح ، كانت أمه تجلس تحت المظلة الكبيرة كعادتها ، وهو مستلق على الرمل بجوارها ، فى انتظار موعد نزهتهما اليومية فى القارب ، واذا بشبح طويل يحجب عن « اجوستينو » الشمس فجأة ، فرفع بصره ليرى شابا ، لوحته الشمس بسمرة قاتمة ، يصافح أمه ٠ ولم يبد كثير اهتمام به ، ظنا منه انه أحد معارف أمه العابرين ٠٠ بل انه تراجع الى الوراء قليلا ، ريثما يفرغان من الحديث ٠ على ان الشاب لم يتقبل الدعوة الى الجلوس ، وانما أشار الى القارب الأبيض الذى جاء فيه ، ودعا الأم الى ان تصحبه فى نزهة في البحر ٠ وكان « اجوستينو » واثقا من ان أمه سترفض هذه الدعوة ، كما رفضت دعوات كثيرة مماثلة من قبل ، **ولكن كم كانت دهشته بالغة حين رآها تقبلها للتو ، وتبادر فى الحال الى جمع حاجياتها ـ نعليها الخفيفين ، وقلنسوة السباحة ، وكيس نقودها ـ ثم تنهض عن مقعدها !٠٠ أجل،**

تقبلت الأم دعوة الشاب بنفس الطواعية والود البرىء اللذين كانت تبديهما لابنها ! وبنفس البساطة التفتت الى « اجوستينو » ـ الذى ظل جالسا فى الانتظار، منكس الرأس، يعبث بالرمل ـ ونصحته بأن يحظى بحمام شمس ، لانها منطلقة فى نزهة قصيرة فى القارب ، ولن تلبث ان تعود بعد قليل !

وكان الشاب فى تلك الأثناء قد انطلق نحو القارب ، وكأنه واثق من أمره ، فتبعته المرأة منقادة ، فى مشيتها العادية الهادئة ، التى تضفى عليها جلالا .. ولم يتمالك ابنها ـ وهو يراقبهما ـ ان يحدث نفسه بأن الشاب يحس ولا بد بعين الزهو والانفعال اللذين يستشعرهما هو كلما خرج فى القارب مع أمه ! .. فراح يتأملها وهى تخطو الى القارب ، والشاب يميل فى جلسته به الى الوراء ، ويستند بقدميه الى قاعه المكسو بالرمال ، ثم يعمل مجذافيه فيخرج بالقارب بعد بضع ضربات قوية ، من المياه الضحلة القريبة من الشاطىء ..

ومضى الشاب يجذف ، والأم جالسة فى مواجهته ، وقد تشبثت يداها بالمقعد ، ولاح انها كانت مندمجة معه فى الحديث . وأخذ القارب يزداد ضآلة ، حتى أصبح فى نطاق الوهج المتألق الذى ينعكس عن مصافحة أشعة الشمس لسطح الماء .. ثم أوغل فيه

واستلقى « اجوستينو » ـ وقد ترك وحيدا ـ على المقعد القماشى الذى كانت تشغله أمه ، وثنى احدى ذراعيه خلف رأسه ، وراح يحملق فى السماء ، كما لو كان مستغرقا فى التفكير ، غير مكترث لشىء مما كان يحيط به .. فلقد شعر ان كل رواد الشاطىء لابد قد رأوه وهو يخرج مع أمه الى عرض البحر كل يوم ، ومن ثم فلن يفوتهم اليوم ان يلاحظوا أن أمه قد تركته اليوم ورافقت الشاب صاحب القارب ! وحمله هذا على ان يعقد العزم على ان لا يبدى أية بادرة تنم عن

الاستياء والخيبة اللذين أفعما نفسه مرارة ‎٠٠‎ غير انه أحس ـ رغم ما بذله من جهد ليصطنع الطمأنينة ـ أن كل امرىء كان يلمس ما فى مظهره من اصطناع وزيف ! ‎٠٠‎ **ولم يكن يؤلمه ان أمه آثرت صحبة ذلك الشاب ، بقدر ما آلمه ذلك السرور وتلك المبادرة اللذين تقبلت بهما أمه الدعوة ، كما لو كانت ترجوها وترتقبها !‎٠٠‎ لكأنها كانت قد قررت من قبل ان لا تفلت أية فرصة ، فما ان عرضت لها واحدة ، حتى تقبلتها دون ما تردد !‎٠٠‎ أو لعلها كانت تشعر فى الواقع بالسأم فى كل تلك المرات التى كانت تخرج فيها وحيدة معه فى القارب ، فلم ترافقه فيها الا لأنها لم تكن تجد خيرا منه !**

وانبعث فى ذهنه خاطر ضاعف من شعوره بالذلة ‎٠٠‎ تذكر أمرا حدث فى حفلة راقصة صحبته أمه اليها : فقد كانت معهما قريبة وافقت على ان تراقصه مرة أو اثنتين ـ رغم انه لم يكن اذ ذاك سوى صبى يرتدى « بنطلونا » قصيرا ـ اذ يئست من ان يسألها أحد غيره ان تراقصه ‎٠٠‎ على انها كانت ترقص فى تخاذل ، وقد بدا عليها الاكتئاب والضيق ‎٠٠‎ ومع ان « اجوستينو » كان منصرفا الى ملاحظة خطواته ، الا انه كان يشعر طيلة الوقت بما كان يداخلها من استصغار لشأنه، وعدم احتفال به !‎٠٠‎ ومع ذلك ، فقد سألها ان تراقصه مرة ثالثة ، وشد ما أدهشه ان رآها تبتسم فجأة وتقفز عن مقعدها ، ثم تسوى أطراف ثوبها بيديها ‎٠٠‎ ولكنها بدلا من ان تندفع الى ذراعيه ، أولته ظهرها وابتعدت عنه ساعية الى شاب كان قد أشار اليها من وراء « اجوستينو » !‎٠٠‎ ولم يستغرق الحادث سوى خمس ثوان ، ولم ينتبه اليه أحد سوى « اجوستينو » نفسه ، ومع ذلك فقد أحس منه بمذلة طاغية ‎٠٠‎ وقد وقر فى نفسه ان الجميع شهدوا كيف عومل فى ازدراء !

٠٠ ووجد نفسه الآن ـ بعد ان انطلقت امه مع الشاب ـ يقارن بين الحادثين ، فيراهما متشابهين ٠٠ لقد كانت أمه ـ كتلك القريبة ـ تنتظر فرصة تنبذه بعدها ، فقبلت ـ كما فعلت قريبته ، وفى مثل المبادرة المتلهفة ـ أول دعوة سنحت لها !٠٠ وكان حظه في المرتين ان يهوى من حالق المكانة التى رفع نفسه اليها فى خياله ، ليتردى فى الحضيض مهشما ، مثخنا بالجراح !

★ ★ ★

◆ **ومكثت** أمه فى نزهتها فى ذلك اليوم زهاء ساعتين ٠ ورآها من مجلسه تحت المظلة الكبيرة وهى تخطو الى الشاطىء ، فتصافح الشاب مودعة ، ثم تسير فى تؤدة نحو «الكابين» ، وقد أحنت رأسها قليلا لتحمى عينيها من حرارة شمس الظهيرة ٠ وكان الشاطىء اذ ذاك قد أقفر من رواده ، الأمر الذى صادف ارتياحا من نفس « اجوستينو » ، وهو الذى كان يوقن دائما ان كل الأعين ترمقه وأمه !

وسألته أمه عرضا : « ماذا تراك فعلت ؟ »

فشرع يقول : « نعمت بتسلية جد ممتعة » ٠٠ وأخذ ينسج لها قصة مصطنعة ، وصف فيها كيف انصرف هو الآخر الى السباحة مع أولاد من « الكابين » المجاور ٠ غير ان أمه لم تصغ ، بل انصرفت الى ارتداء ثيابها فى عجلة !

واعتزم « اجوستينو » ان يبادر ، اذا ما رأى القارب الأبيض يظهر فى اليوم التالى ، الى ابتداع حجة للانصراف ، حتى لا يعانى هوان البقاء منبوذا مرة أخرى !٠٠ على انه لم يكد يتأهب للرحيل بعيدا عن أمه فى اليوم التالى ، حتى سمع صوتها يدعوه ٠٠ وقالت وهى تنهمك فى جمع متاعها : « تعال معى ٠٠ سنذهب لنستحم فى البحر » ٠٠ فتبعها « اجوستينو » وقد ظن انها ستصرف الشاب لتذهب معه وحده

٠٠ وكان الشاب ينتظرهما فى القارب ، فحيته أمه ثم قالت فى بساطة : « لقد أحضرت ابنى أيضا » ٠٠ وهكذا رأى « اجوستينو » نفسه ـ وهو كاره ـ يجلس الى جوار أمه فى مواجهة الشاب ٠٠ الذى راح يجذف !

وكان « اجوستينو » قد اعتاد ان يرى أمه دائما فى ضوء معين : هادئة ، محتشمة ، فى وقار ٠ لذلك بهت فى هذه المرة اذ رأى التغير الذى اعتراها ، والذى لم يقتصر على طريقتها فى الكلام فحسب ، بل بدا انه شمل نفسها ، حتى صار يتعذر عليه ان يرى فيها المرأة التى ألفها من قبل ! ٠٠ ولم يكونوا قد أوغلوا الى عرض البحر ، حين أبدت بعض ملاحظات شخصية لاذعة ، لم يفقه « اجوستينو » معناها ، ولكنها كانت بداية لحديث خاص ، غريب ، اقصى ما أدركه الفتى منه انه كان يدور حول صديقة للشاب أعرضت عن كل محاولاته ، وآثرت عليه غريما له ! ٠٠ غير ان هذه القصة لم تلبث ان أفضت الى الموضوع الحقيقى للحديث الذى راح يجرى فى تلميح ومراوغة حينا ، وفى تحديد ودقة حينا آخر ، مثيرا للغيظ آنا ، ومنطويا على تلطف وتدليل آنا آخر !٠٠ وبدت أمه أكثر الاثنين تحرشا وتحاملا ، بينما التزم الشاب الهدوء فى الرد ، واللهجة الساخرة ، كما لو كان واثقا من نفسه !٠٠ وكانت الأم تلوح فى بعض الأحيان مستاءة ، بل غاضبة محنقة ، فكان « اجوستينو » يطرب لذلك ٠٠ ولكنها كانت لا تلبث بعد ذلك أن تغيظه ، اذ تبدر منها عبارة مجاملة للشاب ، تبدد نشوته !٠٠ وفى أحيان أخرى كانت تمضى تصب على الشاب سيلا من تأنيب غامض ، فى صوت شاك متألم ، **ولكن « اجوستينو » كان يرى وجه الشاب يشرق بوميض من غرور أخرق ، بدلا من ان يبدو عليه الألم !٠٠ فكان يستنتج من ذلك ان التأنيب لم يكن سوى ستار يخفى مرامى عاطفية عجز عن سبر غورها !**

أما فيما يتعلق به ، فقد بدا ان أمه والشاب معا لم يكونا يشعران بوجوده ، وكأنه لم يكن فى رفقتهما !٠٠ بل ان أمه تمادت فى تجاهل وجوده فراحت تذكر الشاب بأن خروجها وحيدة معه فى اليوم السابق كان خطأ منها لا تنوى ان ترتكبه مرة أخرى ، وانما سوف تحضر ابنها معها دائما فى المستقبل !٠٠ **وأحس « اجوستينو » من قولها باهانة واضحة ، كأنه كان جسما بلا ارادة ٠٠ مجرد شىء تتخلص منه ، كلما رأت ذلك، بوحى من نزواتها !**

٠٠ مرة واحدة فطنت أمه الى وجوده ، حين أفلت الشاب المجدافين من يده لحظة ، ومال الى الأمام وعلى سيماه امارات خبث عارم ، وتمتم بصوت خفيض قولا لم يتبينه «اجوستينو» ٠٠ فأجفلت أمه ، وصاحت مشيرة نحو « اجوستينو » — الذى كان يجلس الى جوارها — متظاهرة بأنها جد مأخوذة : « فلنشفق على هذا الساذج ٠٠ على الأقل » !٠٠ **واهتز « اجوستينو » حنقا اذ سمع وصفه ب « الساذج » ، كما لو كان قد قذف بقطعة مهلهلة قذرة من قماش لم يستطع ان يتفاداها !**

واذ ابتعدوا بالقارب مسافة عن الشاطىء ، اقترح الشاب على المرأة ان يهبطا الى الماء ٠ وبهت « اجوستينو » للحركات غير المألوفة التى أخذت أمه تضفيها على تصرفاتها ٠٠ فقد طالما أعجب بالبساطة والسهولة اللتين كانت تنزلق بهما الى الماء ٠٠ أما فى هذه المرة ، فان الشاب غطس تحت الماء ، ثم برز ثانية على السطح ، وهى ما تزال تقف على حافة القارب مترددة ، تغمس من قدمها اصبعا بعد آخر فى الماء ، وقد وضح انها كانت تصطنع الخجل أو الاستحياء !٠٠ بل انها لم تلبث ان أثارت مزيدا من الضجة والجلبة بصدد النزول الى الماء ، اذ أخذت تضحك ، وتحتج ، وتتشبث بمقعد القارب بيديها معا ، حتى تدلت فى النهاية من جانب القارب

بطريقة كادت تخلو من الاحتشام ، ثم تركت نفسها تهوى الى ذراعى صاحبها فى حيلة غير متقنة !

وغاصا معا ، ثم عادا الى السطح سويا ٠٠ **ورأى «اجوستينو» - وهو منكمش على مقعده فى القارب - وجه أمه مشرقا بالابتسام ، على مقربة من وجه الشاب الأسمر الجامد ، وخيل اليه ان خديهما تماسا ٠ وكان يرى جسديهما فى الماء الرقراق الشفاف ، وأردافهما وسيقانهما تتلامس ، وقد بدا عليهما انهما يتوقان الى ان يتعانقا !٠٠ وأخذ « اجوستينو » يتأملهما فى البداية ، ثم أشاح عنهما وتطلع الى الشاطىء البعيد وقد أحس باستحياء ، لكونه عقبة فى طريقهما ! ٠٠**

واذ لمحت أمه وجهه العابس ، وهى تتأهب للغوص مرة ثانية ، نادته صائحة : « لم تبدو فى هذا العبوس ؟ ٠٠ ألا ترى جمال الطبيعة هنا ؟٠٠ يا لله !٠٠ ما أكثر تعقل هذا الابن الذى أنجبته ! » ٠٠ فملأت هذه الملاحظة نفس « اجوستينو » بالخجل والصغار ، ولم يحر جوابا ، بل ولى وجهه صوب ناحية أخرى ٠٠

★ ★ ★

◆ **وطال** بالسابحين البقاء فى الماء ، فقد راحت أمه ورفيقها يلهوان كحيوانين مائيين ، وكأنهما نسيا « اجوستينو » تماما !٠٠ وأخيرا ، عادا الى القارب ، فصعد اليه الشاب فى قفزة واحدة ، ثم مال على حافته ليساعد زميلته التى كانت تناديه كى يعاونها على مغادرة الماء ٠٠ ورأى « اجوستينو » - وهو يرقب المنظر - كيف ان الشاب أمسك جسدها الأسمر بأصابعه ، وهو يرفعها ، فى الموضع الذى تنفرج عنده الذراع عن الابط ٠ ثم جلست بجانب « اجوستينو » لاهثة ، ضاحكة ، وأبعدت بأظافرها المدببة ثوب الاستحمام عن جلدها ، حتى لا يضغط على ثدييها ٠ **وتذكر « اجوستينو » ان**

أمه كانت فى العادة تجد منَ القوة ما يمكنها من ان تصعد الى القارب بدون مساعدة أحد ، عندما كانا يخرجان وحدهما ٠٠ فعزا طلبها العون ، وحركات جسدها الطارئة التي خالها تجتذب الانتباه الى رقة الانوثة وضعفها ، الى الروح الجديدة التي بعثت كل هذا التغير الممجوج فيها ! ٠٠ ولم يتمالك الغلام ان تذكر ان أمه ـ التى كانت بطبيعتها طويلة القامة ، مهيبة الشكل ـ كانت فى الواقع تكره حجم جسمها ، اذ تراه عيبا تود لو تتخلص منه ٠٠ كما كانت تعتبر وقار مسلكها عادة متعبة ، حاولت ان تستبدل بها شيئا من نزق الفتيات الطائشات !

وما أن استقر السابحان فى القارب ، حتى بدأت رحلة العودة٠ وأسلم المجذافان فى هذه المرة الى « اجوستينو » ، بينما جلس الآخران على العارضة التى تصل بين جانبى الزورق ٠٠ فأخذ الغلام يجذف متئدا تحت الشمس الحامية ، وهو يعجب طيلة الوقت من الضحكات والحركات التى كان يشعر بها خلف ظهره، ويتساءل عن معناها ؟!٠٠ وكانت أمه تمد احدى ذراعيها بين آن وآخر ـ وكأنها كانت تفطن بغتة الى وجوده ـ فتربت على مؤخر عنقه ، أو تدغدغ ابطه ، وتسأله عما اذا كان قد شعر بالتعب ، فكان يجيبها بالنفى ٠٠ وفى احدى المرات سمع الشاب يقول ضاحكا : « ان التجذيف مفيد له » ، فدفع مجذافه فى الماء بغيظ !

وكانت أمه وقتئذ تجلس مسندة رأسها الى مقعده ، باسطة ساقيها الطويلتين أمامها ـ أو هكذا كان يحسبها ـ لكنه ما لبث أن أحس انها لم تعد باقية على هذا الوضع ٠ وفى احدى المرات التى شعر فيها انها غيرت وضعها، خيل اليه أن ثمة حركة شديدة خلفه ، وندت من أمه صرخة مكتومة ـ كما لو كانت تختنق ! ـ ومال القارب على أحد جانبيه ٠٠ واحتك خد « اجوستينو » لحظة بجسم أمه ، فبدآ له كأن هذا الجسد ينبض

بحياة لا قبل لها بالسيطرة عليها ٠٠ فانها كانت قد نهضت واقفة ، مباعدة ما بين ساقيها ، متشبثة بكتفى ابنها ، وهى تقول للشاب : « لن أجلس حتى تعد بأن تحسن سلوكك ! » ٠٠ فأجابها هذا فى جد شابته سخرية : «أعدك» ٠٠ **واذ ذاك هبطت جالسة فى تردد ، فاحتك جسدها بخد ابنها ، فعلقت ببشرته رطوبة جسمها خلال ثوب السباحة المبتل ٠٠ غير أن حرارة ذلك الجسد بدت أعظم من رطوبته !٠٠ ومع أن « اجوستينو » أحس بشعور مؤلم من عدم الارتياح ، بل من الاشمئزاز ، الا انه أصر على أن لا يجفف خده من آثار تلك الرطوبة !**

واذ اقتربوا من الشاطىء،قفز الشاب بخفة الى مقعد التجذيف، وأمسك بالمجذافين ، دافعا « أجوستينو » عن مجلسه الى المكان الذى تركه هو بجوار أمه ٠٠ فبادرت هذه تطوق الغلام بذراعها، وسألته عن شعوره ، وعما اذا كان سعيدا ؟!٠٠ وكانت من ناحيتها تبدو فى غاية الغبطة ، حتى انها ما لبثت ان شرعت تغنى ٠٠ وكان هذا تصرفا آخر غير مألوف منها ! ٠٠ وكان لها صوت عذب ، بثت فيه الآن بعض نبرات حزينة اثارت رعدة فى كيان « اجوستينو » !٠٠ وظلت وهى تغنى تضمه اليها ، وتبلله بالماء الذى كان ثوب السباحة ينضح به ، والذى بدا — رغم ذلك — وكأنه يعكس دفئا ينبعث من جسد حيوان ثائر !

وعلى هذا الوضع بلغوا الشاطىء : الشاب يجذف ، والمرأة تغنى وتسبغ مظاهر الحنان على ابنها ٠٠ والابن قد استسلم لها، وفى نفسه شعور من النفور والسقم،اذ ادرك انها تصطنع منظرا زائفا ٠٠ لا لشىء الا لأنها تحب أن تبدو به أمام الناس !

★ ★ ★

◆ وفى اليوم التالى أقبل الشاب مرة أخرى ، فأصرت أم « اجوستينو » على أن يصحبهما ابنها فى هذه المرة أيضا ٠٠ وتكررت مناظر اليوم السابق !٠٠ ثم انقضت أيام لم يظهر فيها

الشاب ، وما لبث أن أقبل مرة أخرى فخرجوا معا للرياضة ٠٠ وأخيرا صار الشاب يفد كل يوم ليصطحب المرأة ، وقد لاح أن الود قد توثق بينهما !٠٠ وكان « اجوستينو » يضطـر الى مرافقتهما فى كل مرة ، وسماع حديثهما ، ومشاهدتهما وهما يسبحان ٠٠حتى كره هذه النزهات ، وانتهى به الأمر الى أن شرع يبتكر ألف علة وحجة ليتخلف عنها !٠٠ فكان يختفى ، ولا يظهر الا بعد أن تناديه أمه مرارا ، وتبحث عنه فى كل مكان الى أن توفق فى النهاية الى كشف مكانه ٠٠ وعندئذ كان يصحبها كارها ، لا استجابة لرجائها والحافها ، وانما لأن استياءها وكدرها من عدم ذهابه كانا يثيران اشفاقه !٠٠ وكان يلزم الصمت التام فى القارب ، أملا منه فى أن يدركا ضيقه ، فيتركاه وشأنه ٠٠ لكنه تبين فى النهاية أنه أضعف وأكثر تأثرا بالاشفاق واستجابة له من أمه والشاب ، اللذين كان يكفيهما أن يكون معهما فى القارب ، وحسب ٠٠ أما أحاسيسه ، فسرعان ما تبين انهما لم يكونا يحسبان لها حسابا !

وهكذا استمرت النزهات فى القارب ، رغم كل محاولاته للفرار منها !



الفصل الثانى

◆ كان « اجوستينو » يجلس ذات يوم على الرمال ، خلف مقعد الشاطىء القماشى الذى شغلته أمه ، يتطلع الى عرض البحر مرتقبا ظهور الزورق الابيض ، ومتوقعا أن تلوح أمه محيية الشاب ، منادية اياه كعادتها ٠٠ بيد أن الساعة التى اعتاد القارب أن يفد فيها فاتت ولما يظهر ٠ وبدا من استياء أمه وعبوس محياها انها فقدت كل أمل فى مجيئه !٠٠ ولطالما ساءل « اجوستينو » نفسه عما قد يكون عليه شعوره فى مثل هذه الحال ، فكان ينتهى دائما الى أن اغتباطه عندئذ سيبلغ من الشدة مبلغا يعادل ما يبلغه استياء أمه ، على الاقل ٠٠ ولكنه دهش فى ذلك اليوم ، اذ أحس بدلا من الاغتباط باستياء مبهم ، وتبين لفوره ان الصغار والنفور اللذين كانا يداخلانه كل يوم، بسبب تلك النزهات ،أصبحا فى الفترة الاخيرة من لوازم الحياة بالنسبة له ! ٠٠ ومن ثم ساءل أمه ، عما اذا كانا لا يعتزمان الخروج فى نزهتهما البحرية المعتادة فى القارب ٠٠ وكانت تحدوه الى هذا التساؤل رغبة خفية ، غامضة ، فى أن يثير فى نفس أمـه الألم !٠٠ وأجابته بأنها لا تدرى ، وان كانت ترجح أنهما لن يخرجا فى ذاك اليوم ٠ وظلت جالسة فى مقعدها ، وفى حجرها كتاب مفتوح لم تكن تقرأ فيه ، اذ كان بصرها يهيم باستمرار فى عرض البحر وكأنه ينشد هدفا معينا بين أسراب القوارب وأفواج المستحمين الذين زخر بهم البحر ٠٠

وبعد أن ظل « اجوستينو » وقتا طويلا خلف مقعد أمه ، يرسم على الرمـل باصبعه أشكالا ، استدار فجأة حتى غدا أمامها ، وقال فى لهجة أحس بأنهـا

كانت مثيرة ، ان لم تكن ساخرة : « أماه ٠٠ اتعنين اننا لن نخرج فى القارب اليوم ؟ »

ولعل أمه احست بالسخرية فى صوته ، وبالرغبة التى ساورته فى ايلامها ٠٠ أو لعل كلماته الرعناء كانت كافية لأن تفجر الغيظ الذى طال بها كبحه ، فرفعت يدها فى حركة غير ارادية ، وهوت بها على خده فى صفعة سريعة ، لم تكن فى حقيقتها موجعة ، لأن الندم داخلها قبل أن تصل راحتها الى وجنته ! ٠٠ ولم ينبس « اجوستينو » ببنت شفة ، بل قفز من مجلسه على الرمال ، وابتعد وقد نكس رأسه ، متجها الى «الكابين» ٠٠ وسمع أمه تناديه باسمه عدة مرات : « اجوستينو ! ٠٠ اجوستينو ! » ٠٠ ثم كفت عن النداء ٠ وخيل اليه - اذ التفت خلفه - أنه رأى بين أسراب الزوارق ، القارب الابيض الذى يملكه الشاب ٠٠ بيد أنه لم يعد يعبأ بذلك ٠ كان كشخص عثر على كنز فأسرع يخبئه الى أن تسنح له الفرصة كى يفحصه فى خلوة ٠٠ هكذا كان الشعور الذى خامره وهو يفر ليتوارى بالجرح الذى أصاب كرامته ، والذى بدا له شيئا جديدا لم يكد يصدق حدوثه !

كانت وجنته ملتهبة ، وعيناه مغرورقتين بدموع لم يقو على قمعها ٠٠ فلما خشى أن تنفجر شهقاته قبل أن يلوذ بكوخ الشاطئ ، ضاعف من سرعته فى العدو ٠ وفاضت فى نفسه المرارة المتراكمة من الايام السابقة التى كان يصحب فيها أمه والشاب على الرغم منه ، فتولاه شعور بأنه اذا أسلم نفسه للبكاء ، فضفض من أساه ، ووجد عونا على أن يفهم ما لتلك الاحداث الغريبة من معان ! ٠٠ وبدا له أن أبسط مسلك يستطيع أن يلجأ اليه ، هو أن يحبس نفسه فى « الكابين » ، اذ كان من المحتمل أن تكون أمه قد انطلقت فى القارب ، ومن ثم لن يكون هناك من يعكر عليه خلوته ٠ وارتقى سلم « الكابين » على عجل ، وفتح الباب وتركه موازبا ، ثم ولج وجلس على مقعد منخفض فى أحد الأركان ٠٠

★ ★ ★

◆ وانكمش فى جلسته ، وقد رفع ركبتيه الى صدره ، وأسند رأسه الى الجدار ، واحتوى وجهه بيديه ، وأخذ يبكى بحرقة ٠ كانت الصفعة التى تلقاها لا تنفك تتمثل له ، فأخذ يسائل نفسه : « لماذا كانت يد أمه رفيقة ، مترددة ، مع ما فى عملها من قسوة ؟!٠٠ » وامتزج بشعور الهوان الذى أثارته الصفعة فى نفسه ، ألف شعور آخر أقسى مضاضة ٠٠ ألف شعور جرحت أحاسيسه طيلة تلك الايام الاخيرة ٠٠ على أن واحدا من هذه المشاعر ظل يراود ذهنه ملحا ، هو ذلك الشعور الذى ساوره اذ احتك بصدغه جسد أمه فى ثوب السباحة المبتل ، وهو يرتجف نابضا بحيوية طاغية ٠٠ وكما تتطاير سحب الغبار من الثوب اذا

نفض ، أثارت فيه تلك الصفعة - بين ما أثارت من آلام فى ذهنه المحير - ذلك الشعور بجسد أمه وهو يلاصق خده ! ٠٠ بل ان هذا الاحساس صار يحتل فى بعض الاحيان محل الصفعة ٠٠ وفى أحيان أخرى كان الشعوران يمتزجان ، حتى ليحس بحرارة جسدها ولهيب الصفعة معا ! ٠٠ وبينما بدا له أن من الطبيعى أن يظل خده متوهجا ، وكأن به نارا شرعت تخبو ، فانه عجز عن أن يفهم سر الحاح ذلك الاحساس الآخر القديم ، عليه ! ٠٠ لماذا كان هذا الاحساس الذى أثاره احتكاك جسد أمه بخده ، هو الوحيد بين كثير من الاحاسيس الاخرى ، الذى يعاوده فى اصرار ؟ ٠٠ ولئن كان قد عجز عن تفسير الأمر ، الا أنه خال أن ليس عليه - مهما يطول به الاجل - سوى أن يعود بذاكرته الى تلك اللحظة من حياته ، كى يحس على خده من جديد بحرارة بدن أمه ، والرطوبة العالقة بصوف ثوب السباحة الخشن !!

ومضى يبكى فى هدوء - وكانه يخشى ان يزعج استرسال ذكرياته الاليمة - ويمسح بأطراف اصابعه عن بشرته الندية ، الدموع التى راحت تتساقط من عينيه فى بطء ، ولكن دون انقطاع ٠ وكان « الكابين » معتما ، خانق الجو ٠٠ وفجأة ، خامره شعور بان ثمة من يفتح الباب ، فساوره أمل فى أن تكون أمه قد ندمت على ما فعلت ، وتمنى ان تضع يدها فى حنان على كتفه وأن تدير وجهه نحوها ٠٠ بل أن شفتيه تحركتا توشكان أن تنفرجا عن كلمة « أماه » ، لولا أن سمع القادم يخطو الى داخل « الكابين » ، ويجذب الباب خلفه ٠٠ ثم لم تمتد يد تلمس كتفه ، أو تربت على رأسه !

وما لبث أن رفع رأسه وحدق أمامه ، فاذا به يرى لدى الباب الموارب صبيا فى مثل سنه تقريبا ، يقف بهيئة من يرتقب فى حذر ٠ وكان يرتدى «بنطلونا» قصيرا ، ثنى طرفيه الى أعلى ، وقميصا مفتوحا كأقمصة الملاحين ، تخلل ظهره ثقب كبير ٠ ومن خلال ثغرة فى سقف « الكابين » ، انساب شعاع من ضوء الشمس ، فسقط على خصلات من شعر نحاسى اللون ، تكاثف حول عنق الغلام٠ اما قدماه فكانتا حافيتين ٠ وبينما أمسك الباب بيديه مواربا ، راح يحدق فى حذر وانتباه فى شىء ما على الشاطىء الرملى ، وقد لاح كأنه لم يفطن الى وجود « أجوستينو » ٠٠

وجفف « اجوستينو » عينيه بظهر يده ، وهتف : « ها ٠٠ ماذا تبغى ؟ » ، فالتفت الصبى ، وأشار اليه بيده أن لا يتكلم !٠٠ وكان له وجه قبيح ، انتثر فيه « النمش » ٠٠ ولكن ابرز ما كان يستلفت الانتباه فيه ، عيناه الزرقاوان ، الحادتان ، السريعتا الحركة ٠٠ وخيل الى « اجوستينو » انه رأى الصبى من قبل ، فلعله ابن أحد صيادى السمك ، أو ابن أحد المستحمين ٠٠ أو لعله رآه

يدفع القوارب ، أو يؤدى عملا فى المنطقة التى تضم « كابينات » الشاطىء ٠٠
وقال الغلام بعد لحظة وهو يلتفت الى « اجوستينو » :
ـ اننا نلعب « عسكر وحرامية » !٠٠ ولا ينبغى ان يرونى
فسأله « اجوستينو » وهو يجفف عينيه فى عجلة :
ـ ومن أى الفريقين أنت ؟

فأجاب الآخر دون ان يلتفت اليـــه : « من الحرامية ٠٠ بالطبـــع » وظل « اجوستينو » يتأمل الغلام ، وهو لا يملك ان يقرر ما اذا كان قد شعر بميل اليه ٠٠ بيد أن شيئا من الخشونة فى صوت الغلام استماله وأثار فضوله ٠٠ كما خطر له ، بوحى من غريزته ، أن اختباء الغلام فى الكابين ، وفى تلك اللحظة بالذات ، كان فرصة ٠٠ فرصة لم يكن بوسعه ان يفسر كنهها ، ولكنه رأى أن لا يفلتها بأية حال من الاحوال ٠ لذلك عاد يسأله : « هل تقبلــون أن ألعب معكم ؟ »

فاستدار اليه الغلام ، وحدجه بنظرة سليطة ، ثم قال فى عجلة : « وكيف نشركك ؟٠٠ اننا صحاب نلعب معا »

فقال « اجوستينو » فى اصرار غير متورع : « حسنا ٠٠ دعونى ألعب أنا الآخر »

فهز الغلام كتفيه وقال : « اقتراحك جاء متأخرا ٠٠ فقد أوشكنا أن نفرغ من اللعبة »

ـ اذن ، أشركونى فى اللعبة التالية !

وتطلع اليه الغلام فى ارتياب ، وهو مأخوذ باصراره ، ثم قال : « لن تكون ثمة لعبة تالية ، فسننطلق بعد ذلك الى غابات الصنوبر »

ـ سأذهب معكم ، اذا سمحتم لى ٠٠

وبدا العجب على الغلام ، وشرع يضحك بطريقة تنطوى عــلى شىء من القحة والاهانة ٠٠ وقال : « انك غلام ظريف ٠٠ اجل ٠٠ ولكنا لا نريدك »

ولم يكن لاجوستينو قبل بمثل هذا الموقف ٠ بيد أن الالهام الغريزى الذى جعله يسأل الغلام منذ لحظات أن يشركه فى اللعب ، أوحى اليه الآن بحجة قد تقنع الآخر ، فقال فى تردد : « اسمع ٠٠ اذا ٠٠ اذا اشركتنى فى عصبتك فـ ٠٠ فسأعطيك شيئا »

فالتفت الآخر لفوره والجشــع يطل من عينيــه ، وتساءل : « ما الذى ستعطينيه ؟ »

ـ أى شىء تطلبه ٠٠

وأشار « اجوستينو » الى أنموذج لمركب شراعى ، مجهز بكل قلاعه ، كان

على أرض الكابين بين كومة من اللعب الأخرى ، وقال : « ساعطيك هذا » .
فأجاب الغلام وهو يهز كتفيه : « وما جدواه لى ؟ »
قال « اجوستينو » مقترحا : « تستطيع أن تبيعه » !
فقال الغلام فى لهجة العارف : « لن يقبلوا شراءه .. سيقولون انه مسروق »
فأجال « اجوستينو » بصره فيما حوله ، فى حيرة . كانت ثياب أمه معلقة على المشاجب ، وحذاءاها على الارض .. وكان ثمة منديل ووشاح للرقبة او اثنان على المنضدة .. لم يكن فى الكابين كله ما يبدو مناسبا لكى يقدمه .. واذ رأى الغلام حيرته ، قال : « نبئنى .. هل عندك سجاير ؟ »
وتذكر « اجوستينو » أن أمه اودعت الحقيبة الكبيرة المعلقة على المشجب ، فى ذلك الصباح بالذات ، علبتين من نوع جيد جدا من السجاير ، فبادر مجيبا وفى صوته رنة الفوز : « أجل ، لدى .. هل تريد بعضا منها ؟ »
فقال الآخر فى سخرية وعتاب : « لا أظن !.. ما أغباك !.. هاتها .. أسرع ! »
وانزل « اجوستينو » الحقيبة من فوق المشجب ، ومد يده فى جوفها باحثا ، ثم أخرج العلبتين .. وبسط يده بهما الى الغلام ، فى هيئة الذى لا يدرى كم يريد الآخر .. فقال هذا فى بساطة ، وهو يتناول العلبتين : «سآخذ الاثنتين!» .. واذ ألقى نظرة على غلافيهما ، طقطق بلسانه فى سرور ، وقال : « اواه !.. انك ولابد غنى .. هه ؟ »
ولم يدر « اجوستينو » بماذا يجيب .. بينما استطرد الغلام يقول : « اننى ادعى « برتو » .. فما أسمك ؟ »
وأنبأه « اجوستينو » باسمه ، بيد ان الآخر كان قد كف عن الانتباه اليه ، اذ مضت أصابعه المتلهفة تفض احدى العلبتين ، ممزقة الورق الذى كان يلفها .. ثم تناول سيجارة وضعها بين شفتيه ، وتناول من جيبه عودا من الثقاب حكه بجدار الكابين واشعل به السيجارة . وبعد ان اجتذب ملء فمه من الدخان، ونفثه من أنفه ، عاد الى موقفه الاول ، يرقب فى حذر ، مرسلا بصره خلال الشق الذى كان ينفرج عنه مصراعا الباب ..
وبعد لحظة ، أشار الى « اجوستينو » أن يتبعه ، قائلا : « هيا بنا .. تعال! » .. وغادرا الكابين ، واحد اثر الآخر ، حتى اذا بلغا رمال الشاطىء ، انطلق « برتو » لفوره الى الطريق الممتد خلف كابينات المستحمين ..

★ ★ ★

◆ واذ راحا يسيران على الرمل الملتهب ، بين الحسك والاشواك ، قال الغلام:

« سنذهب الآن الى الكهف •• لقد سبقونى اليه •• وانهم ليبحثون عنى هناك!»
فسأله اجوستينو : « واين الكهف ؟ »

أجاب الغلام : « عند بلاج (فزبوتشى) » •• وكان يمسك سيجارته بين اصبعيه متباهيا ـ وكأنه يعرضها للأنظار ـ ويجتذب منها أنفاسا كثيفة من الدخان فى تبجح •• ثم سأل رفيقه : « ألا تدخن ؟ » ، فأجاب « اجوستينو » : « اننى لا ألقى للتدخين بالا » ـ وكأنما أخجله أن يعترف بانه لم يكن يدخن ، بل لم يحلم يوما بالتدخين !

وضحك « برتو » قائلا : « لم لا تقول بصراحة ان امك لا تسمح لك بالتدخين؟ •• قل الحق ؟ » ـ وكانت لهجته منطوية على احتقار يفوق ما ينبغى بين صديقين! ـ ثم قدم الى « اجوستينو » سيجارة ، وهو يقول : « هيا •• دخن انت ايضا »

وكانا قد بلغا حافة البحر ، وأخذا يسيران حافيين على الحصى الخشن بين أحواض الزهور الجافة •• ورفع « اجوستينو » السيجارة الى شفتيه ، وجذب منها بضعة انفاس ، دون أن يسمح لغير قليل من الدخان بان يدخل فمه ، ثم بادر الى نفثه فى الحال دون ان يبتلعه •• فضحك « برتو » فى استهزاء ، وصاح : « أوتسمى هذا تدخينا ؟ ما هكذا يكون •• أنظر ! » •• وتناول السيجارة ، فاجتذب منها الدخان فى عمق ، وعيناه الرواغتان تجولان فى محجريهما ، ثم فغر فاه على سعته ، وقربه من عينى « اجوستينو » •• فلم ير هذا فى فمه شيئا سوى لسانه وقد التوى عند حلقه • وقال « برتو » وهو يقفل فمه ثانية : « تأمل الآن ! » •• ثم نفث فى وجه « اجوستينو » سحابة من الدخان ، فسعل « اجوستينو » واخذ يضحك فى الوقت ذاته فى انفعال •• بينما استطرد برتو : « والآن •• جاء دورك »

ومر بهما « ترام » يرسل صفيرا ، وستائر نوافذه ترفرف مع النسيم •• واجتذب « اجوستينو » ملء فمه من الدخان ، فابتلعه بعناء كبير ، ولكنه لم يحسن ارساله ، فتولته نوبة قاسية من السعال •• واذ ذاك أخذ « برتو » السيجارة منه ، ثم ضربه بشدة على ظهره براحة يده ، قائلا : « برافو !•• ليس من شك فى انك ستغدو مدخنا » !

وسارا بعد هذه التجربة صامتين ، فاجتازا سلسلة من « البلاجات » طليت كابيناتها بألوان بهيجة ، وتناثرت فى كل نواحيها المظلات المخططة الواسعة ، وأقواس النصر التى لا معنى لها •• وكان الفضاء الممتد بين الكابينات على الشاطىء يزخر بالرواد الذين جاءوا يستمتعون بعطلاتهم ، كما ازدحم البحر المتألق المياه ـ تحت أشعة الشمس ـ بالسابحين •• وتساءل « اجوستينو » الذى كان مضطرا الى ان يغذ السير ليلحق بصديقه الجديد : « أين بلاج (فزبوتشى) ؟ »

– انه آخر « البلاجات » جميعا ٠٠

وبدأ « اجوستينو » يفكر فى انه يحسن به أن يكر عائدا ، فان أمه ولابد تبحث عنه الآن ، اذا لم تكن قد ذهبت مع صديقها ٠ بيد ان ذكرى تلك الصفعة هدأت من وساوسه ٠٠ وخيل اليه انه ، بذهابه مع « برتو » ، كان ينفذ انتقاما غامضا له ما يبرره !

وفجأة ، توقف « برتو » ليسأله : « ما رأيك فى اخراج الدخان من أنفك؟٠٠ هل تستطيع أن تفعل ذلك ؟ » ٠٠ وهز « اجوستينو » رأسه بالنفى ، فأمسك رفيقه بعقب سيجارته بين شفتيه ، واجتذب نفسا من الدخان ، ثم أطلقه خلال خياشيمه ، واستطرد : « والآن ، سأطلق الدخان خلال عينى ٠٠ على أنك يجب أن تضع يدك على صدرى وأن تحدق فى عينى » ٠٠ فاقترب « اجوستينو » فى سذاجة تامة ، ووضع يده على صدر « برتو » ، واخذ يحملق فى عينيه مرتقبا رؤية الدخان وهو ينساب منهما ٠ لكن «برتو» ضغط – فى حركة غادرة – السيجارة المشتعلة على ظهر يد « اجوستينو » فى قوة ، ثم طوح بالعقب بعيدا ، وقفز طروبا وهو يصيح : « واها لك ايها الغبى الأبله ٠٠ انك لا تعرف شيئا على الاطلاق ! » ٠٠ واعمى الألم « اجوستينو »، وكان أول ما تبادر اليه أن يلقى بنفسه على « برتو » ويضربه ٠ وكأنما ادرك « برتو » ما كان موشكا أن يحدث ، فصمد فى موقفه ، واطبق قبضتيه ، ثم وجه الى بطن « اجوستينو » لكمتين قويتين ، فكاد هذا يعجز عن التنفس ٠٠ بينما أردف « برتو » فى انفعال : « لست ممن يقنعون بالكلام ٠٠ فاذا فعلت ما يستحق الضرب فلن أتورع عن ضربك »

واندفع « اجوستينو » نحوه مرة أخرى فى سورة من الغضب ، ولكنه أحس بانه جد ضعيف ، وأيقن من الهزيمة ٠٠ وأمسك « برتو » فى هذه المرة برأسه فدسه تحت ذراعه حتى كاد يخنقه ٠٠ ولم يقو « اجوستينو » على المقاومة ، فأخذ يتوسل اليه فى صوت مكتوم أن يطلقه ٠٠ وأطلقه « برتو » أخيرا ، ثم قفز الى الخلف ، وثبت قدميه فى الارض متحفزا للصراع ٠٠ غير أن «اجوستينو» الذى كان قد سمع قرقعة عروق رقبته ، أذهله ما اوتى الغلام من قوة وحشية خارقة ٠٠ ولم يكد يصدق أن يلقى فجأة – هو ، « اجوستينو » الذى طالما ابدى الرفق نحو كل امرىء – مثل هذه المعاملة الوحشية ، والقسوة المتعمدة ! ٠٠ كان اهم شعور انتابه هو الدهشة لمثل هذه القسوة ، فقد اذهلته ٠٠ ولكنها فى الوقت ذاته فتنته بما فيها من طرافة لم يعهدها ، ولأنها فى حد ذاتها كانت عارمة ٠٠ وقال لاهثا ، متلعثما : « اننى لم أوذك فى شىء ٠٠ بل أعطيتك تلك السجاير ٠٠ فماذا بك ٠٠ » وعجز عن ان يتم العبارة ، اذ اغرورقت عيناه بالدموع ٠٠ فقال « برتو » فى جفاء : « آه ٠٠ أأنت ممن يبكون ؟٠٠ أتريد

ان ارد اليك سجايرك ؟٠٠ لست اريدها ٠٠ خذها وعد الى امك ! »
فقال « اجوستينو » وهو يهز راسه فى اكتئاب : « لا داع ٠٠ انما ذكرت امر السجاير عفوا ٠٠ ارجو ان تستبقيها ! »
فقال « برتو » : « اذن ، هيا بنا ٠٠ لقد اوشكنا على غايتنا »

★ ★ ★

◆ وكان الحرق الذى اصاب يد « اجوستينو » يسبب له ألما مبرحا ، فرفعه الى فمه ، وهو يتلفت حوله ٠٠ كان ذلك الجزء من الشاطىء لا يشتمل على غير بضعة كابينات جد قليلة ، لا تكاد تزيد على الخمسة او الستة ، تناثرت على مسافات متباعدة ٠٠ وكانت كابينات حقيرة ، صنعت من الخشب الرخيص ٠٠ وكان الشاطىء والبحر ساعتئذ خاليين من الناس ، اللهم الا بضع نساء اوين الى ظل قارب جذب الى البر ليكون بمأمن من المد ٠٠ وكان بعضهن واقفات ، والبعض مستلقيات على الرمال ، وقد ارتدين جميعا ثيابا للسباحة قديمة الطراز ، ذات سيقان طويلة وشيت حوافها باشرطة بيضاء مجدولة ٠٠ وقد شغلن بتجفيف اجسادهن ، وتعريض اطرافهن البيضاء للشمس ٠ وكانت ثمة لوحة زرقاء تحمل عبارة « حمام امريكو فيزبوتشى » ٠٠ وكابين صغير اخضر ، منخفض السقف ، هبط عن مستوى الشاطىء غائصا فى الرمال ٠ وكان من الجلى ان الكابين ملك لحارس « البلاج » فى ذلك الجزء المقفر من الشاطىء الذى كان يمتد بعد « حمام فيزبوتشى » الى اقصى مرامى البصر ، دون ان تتخلله اية كابينات او دور ٠٠ فضاء مقفر ، لا تكسوه سوى رمال تذروها الرياح ، بين زرقة البحر المتألقة ، وخضرة اشجار الصنوبر المغبرة ٠٠

وكان احد جوانب الكابين يستتر بأكمله وراء كثبان الرمال التى كانت فى تلك البقعة اكثر ارتفاعا منها فى البقاع الاخرى ٠٠ فاذا بلغت اعلى هذه الكثبان ، رأيت خيمة مضروبة ، من قماش ذى لون محمر كلون الصدأ الحائل ، وكأنه اقتطع من شراع قديم ٠ وكانت هذه الخيمة مشدودة من احد أطرافها الى وتدين غيبا فى الرمل ، ومن طرف آخر مشدودة الى الكابين ٠٠
وقال « برتو » : « ها هو ذا كهفنا ! »

وكان ثمة رجل يجلس تحت الخيمة الى منضدة عرجاء ، منهمكا فى اشعال سيجارة ، وقد استلقى حوله على الرمال ولدان او ثلاثة ٠٠ واندفع « برتو » فى قفزة عالية فهبط عند قدمى الرجل ، بينما تقدم « اجوستينو » فى حرج واستحياء ، فقال « برتو » مشيرا نحوه : « ها هو ذا بيزا » ٠٠ ودهش اذ سمع نفسه يلقب ـ هكذا سريعا ـ باسم كهذا ، اذ لم تكن قد انقضت بعد خمس دقائق مذ انبأ « برتو » بانه ولد فى (بيزا) !

واستلقى « اجوستينو » على الارض الى جوار الآخرين ٠٠ فاذا الرمال فى تلك البقعة ليست فى نظافة تلك التى على « البلاج » ، اذ اختلطت بها شظايا من قشور جوز الهند ومن الخشب ، وقطع من الفخار ، وكافة انواع النفايات٠٠ وكانت كلها قد تجمعت فى لطخ متيبسة هنا وهناك ، بتأثير ما كان يلقى عليها من الكابين من ماء قذر ٠٠ ولاحظ « اجوستينو » ان الصبية ـ وكانوا أربعة ـ يرتدون ثيابا بالية ٠٠ كان من الجلى انهم مثل « برتو » ، ابنـــاء ملاحين أو أبناء نفر من عمال الشاطىء ٠٠

وهتف « برتو » ولما يتمالك بعد انفاسه : « لقد كان فى (سبيرانزا) ، ويقول انه يريد ان يلعب « عسكر وحرامية » هو الآخر ، ولكن اللعبة انتهت ٠٠ اليس كذلك ؟٠٠ لقد قلت لك ان اللعبة انتهت »

وفى تلك اللحظة انبعثت صيحة تكرر : « هذا غش !٠٠ هذا غش ! » ٠٠ والتفت « اجوستينو » ، فاذا عصبة اخرى من الصبية تجرى مقبلة من ناحية الشاطىء ، فحدس أن أفرادها هم الذين كانوا يقومون بدور الشرطة ٠٠ واقبل فى المقدمة فتى قصير القامة ، ممتلىء الجسم ، عريض المنكبين ، فى نحو السابعة عشرة من عمره ، وقد ارتدى ثوبا من اثواب السباحة ٠٠ وتلاه ـ لدهشـــة « اجوستينو » ـ غلام زنجى !٠٠ أما الثالث فكان صبيا أشـــقر ، أدرك « اجوستينو » من شكله وجمال جسمه انه افضل نشأة من الآخرين ٠٠ بيد انه حين اقترب ، ظهر ثوب السباحة الذى كان يرتديه مليئا بالثقوب ، كمــا كانت تشوب وجهه المليح ذا العينين الزرقاوين الجميلتين ، مسحة من خشونة، مما نم عن انه ينتمى الى طبقة الآخرين ٠٠ ثم تبع هؤلاء الثلاثة أربعة آخرون، تراوحت اعمارهم بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة ٠٠ وكان الفتى الكبير ، الضخم ، اكبر سنا من الآخرين بكثير ، حتى لقد بدا من الغريب ـ فى البداية ـ ان يخالط مثل هؤلاء الصبية ٠ بيد ان وجهه المنتفخ الذى كان يشبه فى لونه رغيفا لم يكتمل نضجه ، وقسماته الضخمة الخالية من اى تعبير ، والموحية بغباء فطرى ، كانت كافية لان تفسر ملازمته لهؤلاء الصغار ٠٠ وكانت رقبته لا تكاد تبين لفرط قصرها ، وجذعه الناعم ، الخالى من الشعر ، يناهز كتفيه فى العرض ٠٠

وعلى حين غرة صرخ هذا الفتى فى « برتو » : « لقد اختبأت فى كابين !٠٠ انكر اذا كانت لديك جرأة ٠٠ ان الكابينات لا تدخل فى نطاق مخابئنا وفقــا لقواعد اللعب »

فأجاب « برتو » فى مثل فورته : « هذا كذب ٠٠ اليس كذلك يا بيزا ؟ » ٠٠ واضاف وهو يلتفت الى « اجوستينو » ، متسائلا فى انكار : « هل كنت

مختبئا فى كابين ؟٠٠ لقد كنا نقف معا بجوار كابين فى (سبيرانزا) ورأيناك تمر بنا ٠٠ أليس كذلك يا بيزا ؟ »

ولم يقو « اجوستينو » على الكذب ، فقال : « انك لتعرف انك كنت مختبئا فى كابينى » ٠٠ فصرخ الثالث وهو يهز قبضة يـده تحت أنف « برتو » : « أرأيت ؟٠٠ لسوف احطم رأسك ايها الكاذب ! »

وصرخ « برتو » فى وجه « اجوستينو » : « ألم أقل لك أيها الواشى ان تمكث حيث كنت ؟ ٠٠ عد الى « ماما » ، فذاك هو المكان الخليق بك ! » ٠٠ وتملكه غيظ جامح ٠٠ هياج وحشى أدهش « اجوستينو » وأذهله !٠٠ بيد ان الحركة التى كان يهدده بها ، أدت الى وقوع احدى علبتى السجاير من جيبه ، فانحنى ليلتقطها ، ولكن الفتى الثالث كان أسرع منه ـ رغم بدانته ـ فانحنى منقضا على العلبة ، ولوح بها فى الهواء وهويصيح فى فرحةالفوز :« سجاير!٠٠ سجاير ! »

وصرخ « برتو » وهو ينقض عليه : « ردها ٠٠ انها ملكى ٠٠ لقد أعطانيها « بيزا » وعليك أن تردها ! »

فتراجع الآخر خطوة ، وتريث حتى صار « برتو » فى متناوله ، ثم وضع علبة السجاير بين أسنانه ، وشرع يوجه لكمات محكمـة الى بطن « برتو » بقبضتيه ٠٠ وانتهى بان ركل قدميه ، فألقاه أرضا ، فى عنف !٠٠ وظـل « برتو » يصيح وهو يتقلب على الرمال : « ردها الى ! » ٠٠ ولكن الفتى اطلق ضحكة معتوهة ، وصاح : « ان معه غيرها ٠٠ عليـــه يا اولاد ! » ٠٠ فاذا بالغلمان جميعا ينقضون على « برتو » فى اجماع ادهش « اجوستينو » ٠٠ وانقضت لحظة لم يكن يبدو منهم خلالها سوى كتلة من اجساد تتقلب عند قدمى الرجل المتقدم فى السن ، وقد اشتبك بعضها ببعض ، ولفتها سحابة من الرمال الثائرة ٠٠ والرجل مستمر فى التدخين عند المائدة ، فى هدوء !

وأخيرا ، تخلص الصبى الاشقر ـ الذى تبين انه كان اخفهم حركة ـ من كومة اللحم المتشابكة ، ونهض ملوحا بعلبة السجاير الثانية فى انتصار ٠٠ واذ ذاك نهض الآخرون تباعا ٠ وكان « برتو » آخرهم جميعا ، وقد اكفهر وجهه الصغير ، القبيح ، الذى شوهه النمش ، ثم صرخ وهو يهز قبضـته باكيا : « يا لكم من خنازير ! ٠٠ لصوص ! »

وخالج « اجوستينو » شعور غريب ، وطريف ، اذ رأى ان الذى كان يعذبه اضحى بدوره معذبا ، ولاقى من المعاملة الجاحدة ما لاقى هو من قبل ! ٠٠ وعاد « برتو » يصرخ : « خنازير !٠٠ خنازير ! » ٠٠ فتقدم الفتى الكبير منـه ، وهبط بقبضته على أذنه فى لكمة عنيفة ، جعلت زملاءه يرقصـون طربا ٠٠ وقال : « هل تبغى مزيدا ؟ » ٠٠ فاندفع « برتو » كالمجنون الى ركن الكابين ،

وانحنى فامسك بيديه حجرا ضخما وطوح به نحو غريمه ، الذى ارسل صفيرا أعرب به عن تحفزه وهو يقفز متفاديا الحجر ٠٠ وعاد « برتو » يعوى : « ايها الخنزير ! » ٠٠ وكان يبكى غيظا ، ولكنه تراجع متعقلا ، ولاذ بركن من المكان ، وقد انبعثت شهقاته عالية ، عنيفة ، كما لو كانت تفضفض بعض مرارة فظيعة ملأت نفسه !٠٠ بيد ان زملاءه كانوا قد كفوا عن الاهتمام به ، وعادوا الى الاستلقاء على الرمال ٠ وعندئذ فتح الفتى الكبير أحدصندوقى السجاير ، وفتح الصبى الاشقر الصندوق الآخر ٠ وفجأة قال الرجل ، الذى كان قد استمر جالسا الى المنضدة لايتحرك اثناء العراك : «ناولانى هذين الصندوقين!»

وتطلع « اجوستينو » اليه ٠٠ كان طويلا ، بدينا ، فى نحو الخمسين من عمره ٠٠ له وجه هادىء الملامح ، يخدع الرائى اذ يوحى بالطيبة !٠٠ وكان أصلع ، ذا جبهة بارزة غريبة ، كأنها السرج ، وعينين براقتين ، وانف احمر معقوف ذى منخارين واسعين ، مفعمين بعروق قرمزية تستبشع النظر اليها ٠٠ كما كان له شاربان متدليان ، يستران فما معوجا ، وسيجارا بين شفتيه ٠٠ وكان يرتدى قميصا حائل اللون ، وسروالا ـ « بنطلونا » ـ من القطن الازرق ، تصل احدى ساقيه الى ملتقى الساق بالقدم ، فى حين ثنيت الاخرى الى ما تحت الركبة ، والتف حول بطنه حزام أسود من القماش ٠٠ وكانت ثمة ظاهرة غريبة زادت من التقزز الذى شعر به « اجوستينو » نحوه فى البداية ٠٠ تلك هى أن « سارو » ـ وكان هذا اسمه ـ أوتى ست أصابع فى كل من يديه بدلا من خمس ٠٠ وكان هذايظهره ضخما ، ويظهر اصابعه كزوائد مبتورة !٠٠ ولم يستطع « اجوستينو » ان يحول عينيه عن تينك اليدين ، اذ عجز عن أن يبت فيما اذا كانت الاصبع الزائدة تكرارا لأولى الأصابع أو أوسطها أو آخرها ، فقد كانت جميعا تبدو متساوية فى الطول ، فيما عدا الاصبع الصغيرة التى تدلت من راحته كغصن صغير فى أسفل جذع شجرة وارفة ! ٠٠ وتناول « سارو » السيجار من فمه ، وكرر فى بساطة : « ما أمر هذه السجاير ؟ »

ونهض الصبى الاشقر فوضع العلبة على المنضدة ، فقال « سارو » : « أحسنت صنعا يا ساندرو » ٠٠ واذ ذاك صاح الفتى الكبير متحديا : «وهب اننى لم أعطك علبتى ؟ »

فصاحت بضعة أصوات فى آن واحد : « انزل عنها يا تورتيما ، فهذا خير لك » ٠٠ وأجال « تورتيما » بصره حوله ، ثم نظر الى « سارو » الذى حدجه بنظرة خلال عينيه الضيقتين نصف المغمضتين ، وأصابع يده اليمنى الست على علبة السجاير ٠٠ واذ ذاك تقدم الفتى فوضع العلبة على المنضدة قائلا : « ليكن ٠٠ ولكن هذا ظلم ! »



فقال « سارو » فى صوت ناعم ، رقيق : « والآن ، سأقسم السجاير » .. وبدون ان يحرك السيجار من فمه ، أجال بصره فى الأولاد ، وفتح احدى العلبتين ، وتناول سيجارة بأصابعه المبتورة التى بدت كما لو كانت عاجزة عن الامساك بها ، ثم رماها الى الزنجى قائلا : « اليك يا هومز ! » .. ثم تناول أخرى وألقى بها الى واحد من الآخرين .. وثالثة طوح بها الى « ساندرو » الذى ضم أصابعه ليتلقاها .. ورابعة سددها مباشرة الى وجه « تورتيما » الجامد .. ومضى يوزع السجاير على الباقين .. وسأل « برتو » الذى كان يكتم شهقاته ، بعد ان انضم فى صمت الى الآخرين : « أتريد واحدة ؟ » .. فهز الصبى رأسه فى ذلة ، واذ ذاك ألقيت اليه سيجارة . واذ هم « سارو » بأن يغلق العلبة التى كانت ما تزال ممتلئة حتى نصفها ، توقف وقال لأجوستينو : « وأنت يا بيزا ؟ » .. وود « اجوستينو » ان يرفض ، لولا ان لكزه « برتو » فى ضلوعه وهمس : « اطلب واحدة أيها الغبى ، كى ندخنها معا فيما بعد ! » .. ومن ثم قال « اجوستينو » انه راغب فى سيجارة ، فنال بدوره واحدة .. ثم أقفل « سارو » العلبة ، فصاح الأولاد جميعا : « والباقى ؟ .. والباقى ؟ »

وأجاب « سارو » فى هدوء : « ستأخذون الباقى فى يوم آخر .. خذ يا « بيزا » السجاير ، واذهب فضعها فى الكابين » .. وتقبل الغلمان قراره بصمت تام ، بينما أخذ « اجوستينو » العلبتين وهو بادى الانفعال ، وتخطى الاجساد المستلقية على الارض ، وسار الى الكابين . وكان الكابين مؤلفا من حجرة واحدة ، راق له صغرها - اذ بدت كبيوت القصص الخرافية - وكان لها سقف منخفض مصنوع من ألواح كسيت بطلاء من الجير الأبيض ، أما

الجدران فكانت من ألواح غير مصقولة . وكانت ثمة نافذتان صغيرتان ، يتسرب خلالهما نور لطيف .. نافذتان كاملتا الحواف ، ذاتا ألواح زجاجية مربعة صغيرة ، وأكرتين ، وستارين .. بل كان ثمة وعاء او اثنان للزهور .. وكان السرير يشغل أحد الاركان ، وقد نسق بعناية ، وعليه وسادة ذات كساء نظيف ، ولحاف أحمر .. وفي ركن آخر ، كانت ثمة منضدة مستديرة وثلاثة مقاعد صغيرة منخفضة .. وعلى الرخام الذى علا خزانة كبيرة للثياب ، كانت ثمة زجاجتان من تلك الزجاجات التى تضم فى جوفها نماذج لمراكب شراعية او بخارية .. وكانت ثمة أشرعة معلقة الى مشاجب على جميع الجدران ، وزوج من المجاذيف ، وبعض لوازم البحر . وشعر « اجوستينو » بأنه يتمنى لو يمتلك كوخا بديعا ، نظيفا ، مريحا ، كهذا . وسار الى المنضدة التى كان يعلوها وعاء كبير ، مصدوع ، من الصينى ، امتلأ بأعقاب سجاير لم تدخن الى نهايتها .. فوضع العلبتين ، وخرج ثانية الى ضوء الشمس ..

* * *

• **وكان** جميع الأولاد منبطحين على وجوههم على الرمال حول «ساندرو» الذى كان يدخن فى نشوة ظاهرة .. وكانوا وهم فى ذلك الوضع يتناقشون فى أمر لاح انهم لم يتفقوا بشأنه ، اذ كان « ساندرو » فى تلك اللحظة يقول : « أؤكد لكم انه .. هو »

فقال آخر بصوت مفعم بالاعجاب : « ان أمه جميلة حقا .. انها أبدع امرأة على الشاطىء ! لقد تسللت و « هومز » يوما تحت كابينها لنراها وهى تخلع ثيابها ، ولكن قميصها وقع على الثغرة التى كنا ننظر خلالها ، فلم نستطع ان نرى شيئا .. يا لساقيها !.. ويا لثدييها ! »

فقال صوت ثالث : « ما أظن أحدا رأى معها زوجا ! »

ـ لا تحمل هما ، فهى تعرف كيف تعزى نفسها .. أتدرى مع من ؟.. مع ذلك الشاب الذى يقيم فى (فيلا سوريسو) .. الشاب الأسمر .. انه يصطحبها الى عرض البحر فى قاربه ، كل يوم !

وقال آخر فى خبث : « انه ليس الوحيد ٠٠ فهى لا تتورع عن مصاحبة أى انسان »

وهتف آخر فى اصرار : « ولكننى أعلم ان الغلام ليس ٠٠»

وفجأة ، قال « ساندرو » : « قل لنا يا بيزا ٠٠ أليست أمك تلك السيدة التى فى (سبيرانزا) ؟ ٠٠ انها فارعة ، سمراء ، طويلة الساقين ، ترتدى ثوب سباحة مخطط من قطعتين ٠٠ ولها شامة على الجانب الأيسر لفمها »

فتساءل « اجوستينو » فى قلق : « بلى ٠٠ لماذا ؟ »

فصاح «برتو» فى انتصار : « هى ٠٠ هى » ٠٠ ثم استطرد فى نوبة من الغيرة والازدراء : « وأنت هناك ستار لهما ٠٠ ألست كذلك ؟ ٠٠ انكم تتنزهون معا ٠٠ هى ، وأنت ، وعشيقها ٠٠ انك الستار الذى يتواريان خلفه ٠٠ ألست كذلك ؟ » ٠٠

وقهقه الجميع لهذه الكلمات ٠٠ حتى « سارو » بدت على فمه ابتسامة ، خلال شاربيه ٠٠ فقال «اجوستينو» وقد تضرج وجهه ، وفهم بعض ما قصد الصبى : « لست أدرى ما الذى ترمى اليه ؟ »

وود أن يحتج ، لولا أن نكاتهم الوقحة أثارت فى نفسه شعورا غريبا ، غير متوقع ، من الرضى القائم على القسوة ! ٠٠ وكأنما ثأر له أولئك الغلمان بتلك الكلمات ـ دون أن يدروا ـ مما ألحقته به أمه من هوان وصغار ، فى كل تلك الايام الماضية !

٠٠ على أنه فى الوقت ذاته بهت جزعا ، لادراكهم كل هذا القدر من شئونه الخاصة !

وعاد صاحب الصوت المتخابث يقول : « يا للحمل البرىء الصغير ! » ٠٠ وتبعه «تورتيما» فى جد ساخر : « بودى لو أعرف ما يفعلان ، فهما يوغلان دائما فى البحر ٠٠ ألا قل لنا يا «بيزا» ماذا يفعلان ٠٠ هل هو يقبلها ؟ ٠٠ تكلم ! »

وألصق ظهر يده بشفتيه ، وطبع قبلة ذات صوت مرتفع ٠٠ فقال «اجوستينو» ووجهه يلتهب خجلا : « صحيح اننا نذهب

بعيدا عن الشاطىء للاستحمام ٠٠ »

فانبعثت عندئذ أصوات تقول معا فى سخرية لاذعة : « آه ٠٠ صحيح ٠٠ للاستحمام ! »

ـ ان أمى تسبح فى البحر ٠٠ وكذلك «رينزو» ٠٠

فقال «تورتيما» مصدقا على قوله ، وكأنما عثر على خيط كان تائها فى ذاكرته : « آه ٠٠ أجل ٠٠ «رينزو» ٠٠ هذا اسمه ٠٠ « رينزو » ، الشاب الأسمر الطويل » ٠٠ ثم عاد « برتو » يتساءل فجأة : « وماذا يفعل رينزو و «ماما» معا ؟ ٠٠ أهكذا يفعلان ؟ » ٠٠ وأشار بيده آشارة ذات معنى ، واستطرد : « وتقنع أنت بالنظر ؟ » ٠٠ فهتف «اجوستينو» وهو يجيل البصر حوله فى ذعر : « أنا ؟ »

وعندئذ انفجروا جميعا ضاحكين ، وتقلبوا على الرمل فى ابتهاج ومرح ٠ ولكن «سارو» ظل يتأمل الغلام فى اهتمام دون أن يبدى حراكا ٠ وتلفت «اجوستينو» حوله فى حيرة ، كمن ينشد العون ! ٠٠ وكأنما تأثر «سارو» لنظرته ، فأخرج سيجاره من فمه ، وقال : « ألا ترون أنه لا يعرف شيئا على الاطلاق ؟ »

وعندئذ انقطع الضجيج فى الحال ، وتساءل «تورتيما» وقد عز عليه أن يفهم ما كان يقصده سارو : « كيف تقول انه لا يعرف ؟ »

فكرر سارو فى بساطة : « لا يعرف ٠٠ » ٠٠ ثم التفت الى «اجوستينو» وقال وقد ألان من صوته : « قل لى يا بيزا : ماذا يفعل الرجل والمرأة اذا اجتمعا ؟ ٠٠ ألا تدرى ؟ »

وأمسكوا جميعا أنفاسهم وأرهفوا أسماعهم ٠٠ بينما حملق «اجوستينو» فى «سارو» الذى ظل يدخن ويراقبه خلال أجفانه نصف المطبقة ، ثم التفت مجيلا بصره فى الغلمان ، فاذا هم جميعا يكظمون الضحك ٠٠ فردد فى لهجة آلية ، وقد خيل اليه أن غمامة ترين على بصره : « رجل ٠٠ وامرأة ؟ »

فأجابه «برتو» فى قحة ليزيده ايضاحا : « أجل ٠٠ أمك ورينزو ؟ » !

وهم « اجوستينو » بأن يقول : « لا تتكلم عن أمي ! » ٠٠ ولكن السؤال أيقظ فى نفسه سربا من المشاعر والذكريات ، فارتبك وعز عليه أن يحير قولا ، واذ ذاك قال «سارو» يحسم الأمر ، وهو يحول سيجاره من أحد ركنى فمه الى الركن الآخر: « انه لا يعرف ٠٠ من منكم أيها الاولاد ينبئه ؟ »

وتلفت «اجوستينو» حوله حائرا ٠٠ كما لو كان فى مدرسة ٠٠ ولكن ، ما أغرب المدرس ! وما أعجب زملاء الدراسة ! ٠٠ وتصايح الأولاد جميعا فى وقت واحد : « أنا ٠٠ أنا ٠٠ أنا ! » ٠٠ وطاف بصر «سارو» ، مترددا ، بتلك الوجوه المتحرقة لهفة وتنافسا على الكلام ، ثم قال : « ما أراكم أنتم بدوركم تدرون٠٠ ان ما تعرفونه ليس غير أقاويل ٠٠ فدعـــوا من يعرف ، حق المعرفة ، يخبره »

ورآهم «اجوستينو» يتبادلون النظرات في صمت ، ثم صاح أحدهم يرشح من يصلح فى رأيه لهذه المهمة : «تورتيما !» ٠٠ فأشرق وجه هذا الفتى بوميض من زهو مغرور ٠٠ وأوشك أن ينهض واقفا ، لولا أن قال «برتو» والحقد يفيض من صوته : «ان ما سيقوله قصة من تأليفه ! ٠٠ انها مجموعة من الاكاذيب !»

فصاح «تورتيما» وهو ينقض على برتو : «ماذا تعنى بما سميته مجموعة من الاكاذيب؟ ٠٠ انك أنت الذى تلفق الاكاذيب ، ياابن الحرام ! » ٠٠ بيد أن برتو كان فى هذه المرة أسرع منه حركة ، فراغ منه ، وأخذ من خلف أحد أركان الكابين يلوى قسمات وجهه ، ويخرج لسانه لتورتيما ، وقد طفح وجهه الأحمر المشوه بالنمش ، بحقد طاغ ٠٠ فاكتفى «تورتيما» بأن راح يتوعده بقبضة يده ، وهو يصيح : « ليتك تجرؤ علي المجىء ! » ٠٠ بيد أن هذا التدخل من برتو أضاع عليه الفرصة لأن يقص مايعرفه، فأجمع الأولاد أمرهم على اختيار « ساندرو » لتلك المهمة ٠٠

وعقد هذا ساعديه على صدره الاسمر العريض الذى لمعت فيه شعيرات ذهبية ، وتقدم فى ملاحته ورشاقته الى حلقة الأولاد المستلقين على الرمال ٠ ولاحظ «اجوستينو» أن ساقيه السمراوين القويتين لاحتا ـ بسبب الشعر الأصفر النابت فيهما ـ مغبرتين بتراب ذهبى ، كما بدا بعض الشعر من أطراف ساقى ثوب السباحة ٠٠ وما عتم الفتى أن قال فى صوت صاف جهورى : « الامر غاية فى البساطة ! »

٠٠ ثم أخذ يتكلم في تؤدة ، مستعينا باشارات كانت واضحة المعانى ، فى غير وقاحة ، شارحا لأجوستينو ما كان هذا الاخير يعرفه من قبل ، وان كان قد نسيه ، كأنما كان فى سبات عميق ! ٠٠ وكان اسهاب «ساندرو» مصحوبا بايضاحات أخرى أقل جدية ووقارا ٠٠ فأخذ بعض الاولاد يشيرون بأيديهم بحركات خليعة ، وصب بعضهم فى أذنى «أجوستينو» كلمات وقحة بذيئة ، لم يسمعها من قبل ! وقال اثنان منهم : « سنريه مايفعلان » ٠٠ ثم أخذ كل منهما يتقلب ويتمرغ فى أحضان الآخر على الرمال الساخنة ٠

★ ★ ★

◆ واذ اطمأن «ساندرو» الى أنه نجح فى شرحه ، ابتعد ليفرغ من تدخين سيجارته على انفراد ٠٠ وما أن خفت الضجيج ، حتى تساءل سارو : « هل فهمت الآن ؟ » ٠٠ فهز « أجوستينو » رأسه بالايجاب ٠٠ **والواقع أنه لم يفهم الفكرة بقدر ما امتصها ، كما يمتص المرء دواء ، أو سما ، لا يستشعر تأثيره وان كان من المؤكد أن أعراضه لن تلبث أن تظهر فيما بعد ٠٠ ولم تكن تلك الفكرة قد تسربت الى عقله الفارغ ، المحير ، المعذب ، وانما تسربت الى جزء آخر من كيانه ٠٠ الى قلبه المفعم بالمرارة ٠٠ أو الى أعماق صدره الذى تلقاها مشدوها ٠٠ كانت كجسم لامع ، وهاج ، لا يستطيع المرء أن ينظر الى ما يشعه من بريق متألق ،**

ومن ثم فهو يقنع ـ فى تعرف شكله الحقيقى ـ بالحدس والتخمين! ٠٠ بل لقد أحس أن هذا الشيء كان كامنا فى نفسه دائما ، وان لم يستشعره فى دمه الا الآن !

وسمع صوتا خلفه يقول : « رينزو ، وأم بيزا ٠٠ تعال نجرب ٠٠ أنا رينزو وأنت أم بيزا » ! ٠٠ والتفت فجأة ، فرأى «برتو» يتقدم فى تردد فينحنى لغلام آخر قائلا : « هل يتاح لى أن أحظى بصحبتك فى قاربى يا سيدتى ؟ ٠٠ لسوف أخرج للاستحمام فى البحر ٠٠ وسيصحبنا بيزا » ٠٠ واذ ذاك ، استولى على «أجوستينو» غضب أهوج ، فانقض على برتو صارخا: « اننى أحرم عليك أن تتحدث عن أمى » ! ٠٠ وقبل أن يدرى ما كان يحدث ، ألفى نفسه ملقى على ظهره فوق الرمال ، وركبة «برتو» تثقل صدره ، بينما انهالت قبضتاه على وجهه باللكمات! ٠٠ وود لو يبكى ، لكنه فطن الى أن الدموع لن تؤدى الا الى اثارة مزيد من السخرية ٠٠ ومن ثم كبحها فى جهد كبير ، ثم ستر وجهه بذراعه ، وجمد فى رقدته كالميت ٠ وتركه «برتو» بعد برهة ، فأحس بأنه عومل شر معاملة ٠٠ وما لبث أن تسلل فجلس عند قدمى «سارو» ٠٠ وكان الأولاد منهمكين فى الحديث عن أمر آخر ٠٠ وفجأة ، قال أحدهم لأجوستينو : « هل أنت من قوم أغنياء ؟ »

وداخل «اجوستينو» خوف لم يدر معه ماذا يقول ٠٠ على أنه ما لبث أن أجاب : « أظن ذلك »

ـ كم لديكم ؟ ٠٠ مليون ؟ ٠٠ مليونان ؟ ٠٠ ثلاثة ملايين !؟

وأحس «اجوستينو» بحيرة ، فقال : « لست أدرى »

ـ هل لكم دار كبيرة ؟

فأجاب اجوستينو : « نعم » ٠٠ وكأنما اطمأن الى ما سرى فى الحديث من ود واهتمام ، وداخله الزهو بما تملكه أسرته ، فاستطرد قائلا : « ان دارنا تضم عشرين غرفة ! »

وانبعثت من أحد الأولاد صيحة نمت عن دهشة وانكار ٠٠

ولكن «اجوستينو» مضى قائلا : « لدينا حجرتا استقبال ٠٠ وهناك غرفة مكتب أبى ٠٠ »

فانبعث صوت مكذب ساخر : « اها ! » ٠٠ بيد ان « اجوستينو » أضاف على عجل ، بأمل ان يحملهم على ابداء مزيد من العطف نحوه : « ان أبى ميت ! »

وساد الصمت لحظة ، ثم قال « تورتيما » : « اذن فأمك أرملة ؟ » ٠٠ فانبعثت عدة أصوات ساخرة : « أجل ٠٠ بالطبع ! » ٠٠ فقال « تورتيما » محتجا : « ما أخطأت القول ٠٠ فقد تكون تزوجت ثانية »

فقال « اجوستينو » : « لا ٠٠ لم تتزوج ثانية »

ـ وهل لكم سيارة ؟

ـ أجل ٠٠

ـ وسائق ؟

ـ نعم ٠٠

فصاح أحدهم : « قل لأمك اننى على استعداد لأن أكون سائقا لسيارتها » !

وتساءل « تورتيما » ـ الذى بدا ان حديث « اجوستينو » كان أكثر تأثيرا عليه منه على الآخرين : « وماذا تفعلون بغرفتى الاستقبال ؟ ٠٠ هل تقيمون حفلات راقصة ؟ » ٠٠ فأجاب اجوستينو : « ان أمى تقيم فيها حفلات استقبال » ٠٠ فعاد « تورتيما » يقول وكأنه يحدث نفسه : « انها ولابد تحفل بكثير من الجميلات ٠٠ كم من الناس يحضرون تلك الحفلات ؟ »

ـ لست أدرى تماما ٠٠

ـ كم ٠٠ بالتقريب ؟

قال « اجوستينو » وقد اطمأنت نفسه ، بل أحس بنجاحه: « عشرون ٠٠ أو ثلاثون » .

ـ عشرون ، أو ثلاثون ٠٠ وماذا يفعلون ؟

فأجابه « برتو » بلهجة لاذعة : « وماذا تتوقعهم ان يفعلوا ؟ ٠٠ ما أراهم الا يرقصون ويلهون ٠٠ انهم أغنياء ٠٠ ليسوا مثلنا ٠٠ لعلهم يمارسون أساليب الهوى ! »

فقال : « اجوستينو » فى حرارة ، لكى يثبت لهم انه يعرف ما يقصدون : « لا ٠٠ انهم لا يمارسون الهوى ! »

ولاح على « تورتيما » انه مستغرق فى فكرة لم يستطع ان يصوغها فى قالب واضح ٠٠ على انه ما لبث ان قال : « هب اننى فاجأتك بالظهور فى احدى هذه الحفلات ، فماذا تراك فاعلا ؟ »

٠٠ وكان قد نهض خلال الكلام وتقدم فى قحة ـ ممثلا اقتحامه الحفلة ـ وقد برز صدره الى الأمام ، واستقرت يداه فى خاصرته ! ٠٠ فانفجر الأولاد مقهقهين ، بينما قال « اجوستينو » وقد أطمعه فى الفتى ضحك الأولاد : « اننى اذ ذاك أطلب اليك الانصراف »

ـ وهب اننى رفضت الانصراف ؟

ـ أوعز الى رجالنا بأن يطردوك !

ـ هل لديكم خدم من الرجال ؟

ـ لا ، ولكن امى تستأجر خدما ليقدموا الشراب والطعام اذا ما أقامت حفلة !

ويبدو ان والد أحد الغلمان كان يعمل ساقيا ، اذ التفت اليه أحدهم قائلا : « آه ٠٠ مثل أبيك ! » ٠٠ واستطرد « تورتيما » وهو يتقدم نحو « اجوستينو » متحفزا ، ملوحا بقبضتيه فى الهواء كما لو كان يصور له ما يعتزم : « وهب اننى قاومت ، وكسرت أنف ذلك الساقى الذى توصيه بى ، ثم سرت الى وسط القاعة ، وصحت : « انكم شلة من الاوغاد والعاهرات ٠٠ كلكم سواء » ٠٠ فماذا تراك فاعلا ؟ »

وفى هذه المرة ، انقلب الأولاد جميعا يصيحون فى وجه « تورتيما » ـ لا عن رغبة فى حماية « اجوستينو » ، وانما

شوقا الى سماع مزيد من التفصيلات عن ثروته الخيالية : « لسوف يركلونك الى خارج الدار، وانهم ليحسنون صنعا !»

وارتفعت الصيحات من كل جانب ٠٠ وهتف « برتو » فى سخرية : « ما لك وهذا ؟ ٠٠ ان أباك نوتى ، وستغدو أنت الآخر نوتيا ٠٠ ولو انك ذهبت الى دار بيزا ، لما جرؤت على ان تصيح أو تقول شيئا ٠٠ اننى أعرفك تمام المعرفة »

٠٠ ثم قفز يمثل ما تصوره من ذلة « تورتيما » لدى باب اجوستينو : « لامؤاخذة ٠٠ هل السيد بيزا فى الدار ؟ ٠٠ معذرة ٠٠ لقد جئت ٠٠ آه ، لا يستطيع ان يستقبلنى ؟٠٠ لا بأس ٠٠ أرجو المعذرة ٠٠ لشد ما أنا آسف ٠٠ سأجيء فى وقت آخر » ٠٠ أجل ، انى لأكاد أراك فى هذا الموقف ٠٠ لسوف تنحنى حتى يكاد رأسك يمس الأرض ! »

وانفجر الأولاد كلهم ضاحكين ٠٠ ولم يستطع «تورتيما» ان يحتمل سخريتهم ، فقد كان غبيا بقدر ما كان شرسا ! على انه تحول الى « اجوستينو » متسائلا ، كى يستعيد اعتباره فى أنظار الآخرين ! : « هل تستطيع ان تتغلب على فى لعبة الذراع الحديدية ؟ »

فردد « اجوستينو » قوله فى عجب : «الذراع الحديدية ؟ » ٠٠ وانبعثت عدة أصوات ساخرة : « انه لا يعزف الذراع الحديدية ! » ٠٠ وأقبل « ساندرو » فأمسك بذراع « اجوستينو » ، وثناها ، وشرح له كيف يبقى ساعده منتصبا فى الهواء ، معتمدا على مرفقه المثبت على الرمل ٠٠ وفى تلك الأثناء انبطح « تورتيما » على الرمل ، وأقام ذراعه فى وضع مماثل ٠٠ فى حين استطرد ساندرو يحدث اجوستينو : « ٠٠ عليك ان تحاول ثنى ذراع « تورتيما » ٠٠ بينما يحاول هو أن يثنى ذراعك من ناحيته »

وأمسك « اجوستينو » بيد « تورتيما » ، فاذا بهذا يثنى ذراعه بدفعة واحدة ، وينهض فائزا ٠٠ وعندئذ قال برتو :

« دعنى أجرب بدورى » ٠٠ وبالسهولة نفسها ، ثنى ذراع اجوستينو ونهض ٠٠ فتصايح الآخرون كل بدوره : « وأنا كذلك ! ٠٠ وأنا أيضا ! » ٠٠ وهزموا اجوستينو على التوالى، واحدا بعد الآخر ٠٠ الى ان حان دور الصبى الزنجى فى النهاية ، فقال أحدهم : « اذا غلبك « هومز » ، فلابد ان ذراعك قد صيغت من عجين ! » ٠٠ فعقد اجوستينو العزم على ان لا يمكن الزنجى من التغلب عليه ٠٠

وكانت ذراعا الزنجى نحيلتين ، فى لون البن المحمص ، فخيل لأجوستينو ان ذراعيه أقوى منهما ٠٠ وقال «هومز» فى تحمس وتحفز ، وهو يستلقى على الأرض أمامه : « هيا يا بيزا » ٠٠ وكان صوته واهنا ، كما لو كان صوت امرأة ٠٠ وعندما قرب وجهه حتى غدا قاب قوسين من وجه « اجوستينو » ، رأى هذا ان أنفه لم يكن أفطس ، كما توقع، وانما كان معقوفا تقريبا ، وقد طوى على نفسه ، كأنه قبضة من لحم لامع ، وقد علت احدى فتحتيه شامة ذات لون شاحب يكاد يكون أصفر ٠٠ وكانت للغلام مقلتان مستديرتان ، فى محجرين أبيضين واسعين ، تعلوهما جبهة عريضة ، ذات شعر كث كأنه الصوف القاتم ٠٠ وقال وهو يضع يده الرقيقة ذات الأصابع النحيلة الوردية الأظافر ، فى يد اجوستينو : « أقدم يا بيزا ٠٠ لن أوذيك » !

ورأى « اجوستينو » انه اذا رفع نفسه قليلا ، برفع كتفه ، تحول ثقل جسمه بسهولة الى يده !٠٠ ومكنته هذه الحيلة البسيطة من ان يظل مسيطرا فى البداية على «هومز» ٠٠ وظلا برهة طويلة يتنافسان دون ان يتغلب أحدهما على الآخر ، وقد أحاط بهما الأولاد معجبين ٠٠ وبدا على وجه « اجوستينو » الاجهاد ٠٠ كان يركز كل قواه فى الصراع ، بينما كان الزنجى يبتسم ابتسامات رهيبة ، وهو يصر على أسنانه البيضاء ، ويدير عينيه فى محجريهما ٠٠ وفجأة ،

صاح صوت ملء بالدهشة : « ان بيزا يوشك ان ينتصر ! » ٠٠ بيد ان اجوستينو أحس فى تلك اللحظة بألم حاد مارق سرى من كتفه اليمنى جاريا فى ذراعه ، فلم يعد يحتمل ، واستسلم قائلا : « لا ٠٠ انه أقوى منى »

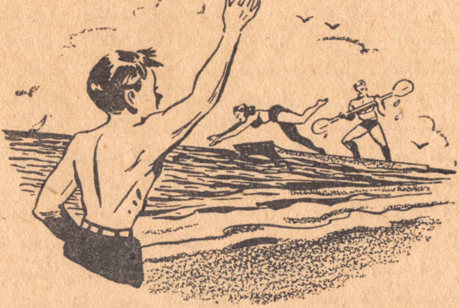
وقال الزنجى وهو ينهض ، فى صوت رقيق ، وان يكن غير بهيج : « لسوف تغلبنى فى المرة التالية » !٠٠ بينما قال : « تورتيما » فى سخرية لاذعة : « تصور ٠٠ حتى « هومز » يغلبك ٠٠ انك لا تصلح لشىء ! » ٠٠ بيد ان الأولاد الآخرين كانوا قد سئموا ابداء الزراية بأجوستينو ، فقال أحدهم : « ما رأيكم فى ان نستحم ! » ٠٠ فصاحوا جميعا وقد انطلقوا يثبون ويقفزون على الرمال الساخنة ، نحو البحر : « أجل ، أجل ٠٠ لنستحم ! » ٠٠ وتبعهم « اجوستينو » عن كثب ، فرآهم يقفزون الى الماء الضحل ويتقلبون فيه كالسمك ، وهم يصرخون ويصيحون طربا ٠ واذ بلغ هو حافة الماء ، برز « تورتيما » منه ، صاعدا بمؤخرته قبل رأسه ـ كأنه حيوان بحرى كبير ـ وصاح : « اغطس يا بيزا ٠٠ ماذا تفعل هناك ؟ »

فقال اجوستينو : « ولكنى أرتدى ثيابى » ٠٠ ورد « تورتيما » فى خشونة : « اذن فاخلع ثيابك »

وحاول « اجوستينو » ان يتملص ، لكن الفرصة فاتته ، اذ كان « تورتيما » قد أمسك به وأخذ يشده الى البحر ، وهو يقاوم ، ويجذب غريمه معه ٠٠ ولم يفلته الفتى الا حين أوشك ان يخنقه وهو يضغط على رأسه تحت الماء !٠٠ واذ ذاك سبح مبتعدا عنه قائلا : « وداعا يا بيزا ! »

وعلى مسافة فى عرض البحر ، أبصر اجوستينو «ساندرو» واقفا فى وضع رشيق على قارب ، فى وسط الأولاد الذين كانوا يحاولون التسلق الى جانبى القارب ٠ وعاد اجوستينو الى البر مبتلا ، يلهث ، ووقف لبضع لحظات يرقب الزورق

وهو يبتعد موغلا فى البحر، وحيدا تحت أشعة الشمس التى كان وهجها يبهر البصر ٠٠ ثم انطلق يسير على الرمال الناعمة ، على مقربة من حافة الماء ، عائدا الى (بلاج سبيرانزا) ، وهو يحث الخطى !



الفصــل الثالث

◆ لم يكن الوقت متأخرا كما خيل اليه ، اذ لم تكن أمه قد عادت بعد حين وصل الى (البلاج) ٠٠ وكان الشاطىء خاليا الا من مستحمين قلائل ظلوا يتسكعون فى المياه المتألقة ٠٠ أما الغالبية فكانت تسعى تحت شمس الظهيرة فى استرخاء ، وفى صف واحد ، الى الطريق المرصوفة المفضية من الشاطىء ٠٠ ومن ثم جلس « اجوستينو » تحت المظلة الكبيرة ، وانتظر ٠ وخطر له ان أمه قد غابت هذه المرة مدة أطول من المرات السابقة ، ناسيا ان الشاب وصل بقاربه متأخرا عن المعتاد ، وان أمه لم تكن راغبة فى الانطلاق « وحيدة » مع الشاب ، وانما هو الذى اضطرها الى ذلك حين اختبأ عن ناظريها ! ٠٠ وجال بنفسه ان الاثنين أفادا من غيابه واستغلاه ليفعلا ما أوحى به « سارو » والاولاد ! ٠٠ ولم يعد يستشعر أية غيرة من ذلك ، وانما سرت فيه رجفة جديدة ، غريبة ، من فضول ، ومن تحبيذ خفى ، كما لو كان هو نفسه شريكا لهما !٠٠ كان من الطبيعى ان تتصرف أمه مع الشاب مثل هذه التصرفات ، فتخرج معه كل يوم فى القارب ، حتى اذا صارا بمنجى عن الأنظار المتلصصة ، ألقت بنفسها فى أحضانه ! ٠٠ كان هـذا طبيعيا ، وقد أصبح « اجوستينو » الآن على استعداد تام لتقبل الأمر الواقع !

مرت هذه الخواطر بباله وهو جالس ينعم البصر فى البحر ، فى ارتقاب عودة العاشقين ٠٠ وأخيرا ، ظهر القارب ، كشظية لامعة على صفحة اليم ٠

وفيما كان يقترب مسرعا ، استطاع الفتى ان يتبين أمه جالسة أمام الشاب الذى راح يجذف ٠٠ وكانت كل حركة من حركات المجذافين ، وهما يرتفعان ثم يهبطان ، تحدث فى الماء خطا ناصعا ٠٠ واذ ذاك نهض اجوستينو فسار الى حافة الماء ، ليستطيع ان يرى أمه وهى تهبط الى البر ، فيكشف بعض مايشى بالالفة التى ساعد هو طويلا على انمائها دون أن يدرك ، والتى أحس على ضوء ما أبانه له « سارو » والأولاد ، انها ولا بد تفضح نفسها علانية فى تصرفاتهما ٠٠ وشرعت أمه تلوح له بيديها والقارب يدنو من البر ، ثم قفزت طروبا الى الماء ، وسرعان ما كانت الى جواره ، وهى تقول : « أجائع أنت ؟٠٠ سنذهب ونتناول شيئا من الطعام توا ٠٠ » ، ثم التفتت الى الشاب وهتفت وهى تلوح له محيية : « مع السلامة ! ٠٠ مع السلامة ! ٠٠ الى غد ! »

وخيل لأجوستينو أنها تلوح أضفى سعادة مما ألف أن يراها ٠ ولم يتمالك وهو يتبعها على رمال الشاطىء ان يحس فى صوتها اذ ودعت الشاب ، رنة من النشوة الجذلانة ٠٠ كأنما حدث فى ذلك اليوم فعلا ، ما كان وجود ابنها يحول دونه من قبل ! ٠٠ على ان ملاحظاته وهواجسه لم تتجاوز هذا الحد ، ففيما عدا غبطتها السافرة ، التى كانت تناقض بعض الشىء وقارها المألوف ، لم يستطع « اجوستينو » فى الواقع ان يصور لنفسه ما عسى ان يكون قد جرى وهما بعيدان معا ، ولا ان يتصور ما صارت اليه حقيقة علاقاتهما ٠٠ ومع انه مضى يتفرس فى وجهها ، ونحرها ، ويديها ، وجسدها ، بادراك جديد قاس ، الا انه لم ير ظاهرا عليها أى اثر للقبلات أو اللمسات التى قد تكون تلقتها ٠٠ وأخذ كلما اطال التمعن ، يزداد شعورا بالخيبة ! ٠٠ وحين اقتربا من الكابين ، قال لأمه : « كنتما وحيدين اليوم ٠٠ بدونى ٠٠ » وتمنى لو تقول : « أجل ، واستطعنا أخيرا ان ننعم بتبادل الهوى ! » ٠ بيد انه لم يبد على أمه انها فقهت من قوله أكثر من انه اشارة الى الصفعة التى بدرت منها ، والى فراره بعدها ، فقد قالت وهى تقف وتحيط كتفيه بذراعها : « لا تثر الحديث مرة أخرى فى هذا الموضوع ! » ٠٠ وتأملته بعينيها الضاحكتين ، الطافحتين بالانفعال ، ثم أردفت : « اننى ادرك انك تحبنى ٠٠ الا قبلنى ولنكف عن اثارة هذا الموضوع ثانية ٠٠ ما رأيك ؟ »

وأحس « اجوستينو » بغتة بشفتيه تلاصقان عنقها ٠٠ العنق الذى طالما استعذب ما كان ينبعث منه من عبير العفة وحرارتها ، والذى خيل اليه الآن انه يحس بشىء جديد يدب فيه تحت شفتيه ، دبيبا واهنا ٠٠ كأنه رجفة خلفها رد فعل قبلات الشاب ! ٠٠ وما لبثت أمه ان هرعت تصعد سلم الكابين، بينما استلقى « اجوستينو » على الرمال ، وقد التهب وجهه بعار لم يدر له كنها !

وفيما هما فى طريقهما الى البيت ، عاد يسترجع هذه المشاعر الجديدة الغامضة الى ذهنه المضنى ٠٠ فبعد أن كانت علاقات أمه بالشاب تبدو له كأنها تنضح بشيء من الاثم الغامض ، حين كان جاهلا بالخير والشر ، ألفى نفسه الآن - وقد فتح « سارو » وتلاميذه عينيه - مفعم النفس بشك مبهم ، وفضول مشبوب !٠٠ ان الذى أثار أحاسيسه فى البداية لم يكن سوى الغيرة الصريحة التى نشأت عن حبه الصبيانى لأمه ٠٠ اما الآن ، وفى وضح ضوء النهار القاسى ، فقد حل محل هذا الحب - وان ظل عارما - فضول مرير ، لا سبيل الى التحايل عليه ٠٠ فضول بدت تلك الأحاسيس الأولية الواهنة بالنسبة اليه غير مستساغة ولا مرضية ٠٠ ففيما مضى ، كانت كل كلمة وكل اشارة مستهجنة تبعث فى نفسه الألم ، دون ان تفتق ادراكه ، فكان يكتفى بأن يتمنى لو انه لم يسمعها أو يرها ٠٠ اما الآن ، وهو يرتد بذاكرته الى الوراء ، فقد لاحت له هذه البوادر الممجوجة التى كانت تثير فى نفسه الشعور بالعار ، مجرد توافه ٠٠ بل انه غدا يتمنى لو انه فاجأ أمه فى بعض الأوضاع الفاجرة التى بصره بها « سارو » والأولاد أخيرا

★ ★ ★

◆ على انه ما كان لينتهى بمثل هذه السرعة الى فكرة التجسس على أمه ، سعيا وراء تبديد هالة الوقار والجلال التى ظلت تلفها حتى الآن ، لو ان المصادفة لم تسقه فى ذلك اليوم بالذات ، الى ان يتخذ فى هذا الاتجاه خطوة ٠٠ فعندما بلغا البيت ، تناولت الأم والابن غداءهما فى صمت لم يكادا يخرجان عنه ٠٠ بيد ان « اجوستينو » أحس فجأة بعد الغداء برغبة لا تقاوم فى الخروج واللحاق بعصبة الأولاد ثانية ، اذ كانوا قد أنبأوه بأنهم سيلتقون فى (بلاج فيزبوتشى) بعد الظهر ، ليضعوا الخطط لمغامرات اليوم ٠٠ وكان ، بعد ان غالب خوفه الأول واشمئزازه من تلك الشرذمة من الاشقياء الصغار ، قد بدأ يحس بقوة غريبة تجتذبه اليهم !

٠٠ وفيما هو مستلق على سريره ، والمصاريع الخشبية للنوافذ مغلقة ، والحجرة حارة ، مظلمة ٠٠ وقد راح يعبث كعادته بالزر الخشبى للضوء الكهربائى ٠٠ كانت تتصاعد اليه من الخارج بضعة أصوات : قعقعة عجلات عربة ٠٠ وصلصلة الأطباق والأكواب تصدر من النوافذ المفتوحة للنزل - « البنسيون » - المقابل ٠٠ وكانت الأصوات المنبعثة فى داخل البيت تبدو - فى سكون أصيل الصيف - واضحة وكأنها فى عزلة عن سواها ٠٠ ومن ثم استطاع ان يسمع أمه وهى تلج الغرفة

المجاورة ، وكعبا حذاءيها يطرقان بلاط الارض ٠٠ وكانت تمشى جيئة وذهابا ، تفتح أدراجا وتقفل أدراجا ، وتزحزح مقاعد الحجرة ، وتلمس هذا وتدع ذاك ٠٠

وخطر له خاطر مفاجىء ، وهو يطرح عنه الخمول الذى بدأ يزحف على حواسه : « لقد أوشكت ان تنام ، ولن أستطيع اذن ان أخبرها بأننى راغب فى الذهاب الى الشاطىء ! » ٠٠ فقفز فزعا من هذا الخاطر ، وخرج الى الردهة ٠ كانت غرفته تطل على الشرفة المواجهة للسلم ، وغرفة أمه الى جوارها ٠٠ فسعى الى بابها ، واذا به يجده مواربا ٠٠ وبدلا من ان يطرقه كما اعتاد ان يفعل ، دفعه فى رفق ـ ولعله كان مدفوعا برغبة ، لم يكن يعيها ، فى ان يتجسس على شئون أمه الخاصة !

كانت غرفة أمه تكبر غرفته بكثير ٠٠ وقد قام السرير الى جوار الباب ، وفى مواجهة الباب تماما صوان ذو أدراج ، تعلوه مرآة كبيرة ٠٠ وكان أول ما رآه منظر امه واقفة أمام الصوان ذى الأدراج ٠ لم تكن عارية كما كان يتصور ـ بل وكما كان يرجو وهو يلج الغرفة فى هدوء ـ وانما كانت نصف عارية ، وقد همت بأن تنزع عنها قلادتها وقرطيها أمام المرآة ٠٠ وكانت ترتدى قميصا حريريا شفافا ، لم يصل الا الى منتصف عجزها ٠٠ ولما كانت تقف فى استرخاء مائلة على أحد جانبيها ، فقد ارتفع احد ردفيها فى بروز عن الآخر ٠٠ وتحت فخذيها الممتلئتين فى غير سمنة ، انسابت ساقاها الملفوفتان ، البديعتان ، متدرجتين فى الرفع حتى تنتهيا الى كعبين دقيقين ٠ وكانت ذراعاها مرفوعتين لتفكا قفل قلادتها ٠٠ وخلال القميص الحريرى الشفاف ، بدت آثار هذه الحركة فى كل ظهرها ، وقد أبرزت مفاتن جسدها بدرجة عجيبة ٠٠ ولاح ابطاها ـ وذراعاها مرفوعتان بهذا الوضع ـ كأشداق ثعبانين ، وقد برز منهما الشعر الناعم الطويل ، كألسنة سوداء رفيعة ، سرها ان افلتت من ضغط الذراعين الممتلئتين ! ٠٠ وبدا لعينى « اجوستينو » المفتونتين كأن جسمها الملتف الرائع يفقد صلابته ويستحيل الى جسم اسفنجى متضخم فى ضوء الغرفة الخافت ٠٠ كأنما العرى قد فعل به ما تفعله الخميرة بالعجين ، فاكسبه قدرة غريبة على التمدد ! واذا به فى احدى اللحظات يبدو وكأنه ينتفخ الى الخارج فى ثنيات لا حصر لها ٠٠ ثم يعود فى لحظة أخرى فيدق ويستطيل حتى يغدو عملاقا يملأ الفراغ بين الأرض والسقف !

وكان أول ما خامر « اجوستينو » هو ان يهرع خارجا مرة أخرى ، بيد أن تلك الفكرة الجديدة التى داخلته : « انها امرأة ! » ٠٠ تلك الفكرة سمرته فجأة فى مكانه ، وقد اتسعت حدقتاه ، وتشبث بمقبض الباب ٠٠ وأحس بروح البنوة تثور فى نفسه متمردة على هذا الجمود ، فتحاول

ان تجره الى الخارج ٠٠ لكن الوعى الجديد الذى اشتد فى عقله ، وان ظل حييا خجولا ، غصب عينيه المتورعتين على ان تحدقا فى غير استحياء الى ما لم يكن ليجرؤ حتى الأمس على النظر اليه ! ٠٠ وفى خلال هذا الصراع بين التمرد والميل ، وبين الذهول والارتياح ، أخذت خطوط الصورة التى كان يتأملها تزداد وضوحا وجلاء ٠٠ حركات ساقيها ، وانحناءة ظهرها المتراخية ، وشكل ابطيها ٠٠ وبدا أنها تتمشى تماما مع فكرته الجديدة التى كانت ترتقب هذه المدعمات كى تستولى تماما على خياله !

وفى تحوله السريع من الاحترام والتوقير الى نقيضيهما تماما ، ود لو يرى مثالب عريها غير المتعمد ، تتطور أمام عينيه الى خلاعة متعمدة ! ٠٠ وتحولت الدهشة فى عينيه الى فضول ٠ كان الاهتمام الذى شد عينيه الى جسدها ، والذى خاله منبعثا عن رغبة فى المعرفة ، يدين بغايته الزائفة فى الواقع الى الشعور الذى كان يسيطر عليه ٠٠ وبينما كان دمه يتدافع الى رأسه ، ظل يردد لنفسه : « انها امرأة !٠٠ ليست سوى امرأة ! » ٠٠ وأحس ـ بكيفية ما ـ ان هذه الكلمات سياط تنهال على ظهرها وساقيها بالاهانة والسخط !

واذ خلعت أمه القلادة ووضعتها على السطح الرخامى للصوان ذى الادراج، شرعت بحركات رشيقة من يديها تخلع قرطيها ٠٠ ولكى يتسنى لها ذلك ، أمالت رأسها الى أحد الجانبين ، مشيحة قليلا عن المرآة ٠٠ وخشى « اجوستينو » ان تلمحه فى المرآة الكبيرة القائمة فى فراغ نافذة بارزة عن مستوى الجدار على مسافة منها ـ فانه كان يرى صورته على صفحة هذه المرآة ، وهو فى موقفه المسترق خلف الباب الموارب ـ ومن ثم رفع يده فى عناء ، وطرق الباب هاتفا : « هل ادخل ؟ »

واجابت امه فى هدوء : « لحظة واحدة يا حبيبى » ٠٠ ورآها تتوارى عن بصره فى ركن الحجرة ، وسمعها تبحث وتنقب لحظة ، ثم ظهرت فى «روب» حريرى أزرق طويل ٠٠ فقال «اجوستينو» دون أن يرفع بصره عن الارض : « ماما ٠٠ سأذهب الى الشاطىء » ٠٠ فأجابته وهى شاردة البال : « الآن ؟ ٠٠ ولكن القيظ شديد ٠٠ ألا يحسن بك أولا أن تنام قليلا ؟ » ٠٠ وبسطت احدى يديها فربتت خده ، بينما سوت باليد الاخرى خصلة نافرة من شعرها الاسود الناعم٠٠

وعاد «اجوستينو» لتوه طفلا من جديد ! ٠٠ فلم يقل شيئا ، بل ظل واقفا ، كما اعتاد دائما كلما رفضت له أمه رجاء ، وقد نكس رأسه ، وألصق ذقنه بصدره ، فى عناد أخرس ٠٠ وكانت أمه تدرك تماما معنى هذا الوضع ، فبادرت تستجيب بالطريقة المعهودة : « حسنا ، اذا كنت جد راغب فى الذهاب الى هذه الدرجة ، فاقصد الى المطبخ أولا واطلب اليهم أن يعدوا لك شيئا تأخذه معك ٠٠ ولكن لا تأكله الآن ، بل ضعه فى الكابين ٠٠ وحذار من أن تنزل الى الماء قبل

الساعة الخامسة ، سيما وانني سأذهب الى هناك حوالى هذا الوقت ، فنستحم معا » ٠٠ عن التعليمات التى كانت تصدرها اليه دائما !

لم يحر «اجوستينو» جوابا ، بل هرع حافى القدمين ، واخذ يهبط السلم الحجرى ٠ وسمع باب غرفة أمه يغلق خلفه فى رفق ٠٠ وفى البهو لبس نعليه ، وخرج الى الطريق ٠٠ وما لبث قيظ الظهيرة أن احتواه فى أتونه الصامت ٠٠ وعند نهاية الطريق ، بدا البحر الساكن يأتلق عند الافق البعيد ، المرتعش ٠٠ وفى الناحية الاخرى ، كانت جذوع شجر الصنوبر الحمراء تنحنى تحت ثقل ثمارها الخضراء المليئة ٠٠

وساءل الغلام نفسه : أيذهب الى (بلاج فيزبوتشى) عن طريق الشاطىء ، أو يذهب عن طريق الغابة ؟ على أنه آثر الطريق الأولى ، فعلى الرغم من أنه سيكون فيها أكثر تعرضا للشمس ، الا أنه لن يمر بالبلاج دون أن يراه ويتعرف عليه ٠٠ وهكذا ظل يتبع الطريق طوال امتدادها بمحاذاة البحر ، ثم اخذ يغذ السير بأسرع ما استطاع ، محتميا بالجدران ٠٠ كان يجذبه الى (بلاج فيزبوتشى) - دون أن يفطن ، وبغض النظر عما فى صحبة الاولاد من طرافة - تلك التعليقات الجارحة التى كانوا يتناولون بها أمه وعشيقها المزعوم ! ٠٠ وأخذ يدرك أن طبعه السابق قد اخذ يتغير الى شعور آخر مخالف ٠٠ شعور أكثر قسوة ، واكثر وضوحا وتبلورا ٠٠ وجال بخاطره ان سخرياتهم المقذعة جديرة بأن تكون بغية ينشدها ويستوعبها ، اذ أنها هى التى عجلت بهذا التغيير ٠٠ فلقد اشتدت به الرغبة فى أن يكف عن حب أمه ٠٠ بل لقد أصبح يكره نفسه لأنه أحبها ! ٠٠ ولولا سخريات أولئك الأولاد ما جرؤ على أن يصارح نفسه بهذا ٠٠ ولعل شعوره بأنها خدعته ، اذ كان يظنها غير ما هى فى الواقع ، أو لعل عجزه عن أن يمضى فى حبها بنفس السذاجة والبراءة اللتين أحبها بهما من قبل ، جعله يؤثر ان يكف عن حبها بالمرة ، وأن ينظر اليها نظرته الى أية امرأة أخرى ! ٠٠ كان ، بدافع غريزى من أعماق نفسه ، يحاول أن يحرر نفسه تماما من وطأة حبه القديم ، البرىء ، الذى أحس انه تعرض للغدر دون استحياء ٠٠ والذى أصبح يبدو له مجرد حماقة وجهل !

وهكذا ، كانت الجاذبية القاسية التى سمرت بصره منذ دقائق الى ظهر أمه ، هى عينها التى أخذت تدفعه الآن الى أن ينشد صحبة أولئك الاطفال ، على ما فيها من اذلال ووقاحة ٠٠ أوليس من المحتمل أن تساعد تعليقاتهم المزرية - كما ساعد العرى الناقص الذى شاهد أمه فيه منذ دقائق - على القضاء على علاقة البنوة القديمة التى أصبحت بغيضة لديه ؟

★ ★ ★

◆ واذ غدا (بلاج فيزبوتشى) على مرمى البصر ، خفف من اسراعه فى السير

٠٠ ومع أن قلبه كان يدق صدره فى عنف ، شق عليه معه أن يلتقط أنفاسه ، الا انه اصطنع الهدوء وعدم الاكتراث !

٠٠ وكان «سارو» فى جلسته السابقة ، بجوار منضدته العرجاء التى استقرت عليها زجاجة نبيذ ممتلئة الى نصفها ، وقدح ، ووعاء احتوى على بقية من حساء السمك ٠٠ أما بقية الجماعة فلم يبد أثر لأى فرد منها ٠٠ حتى اذا ازداد اجوستينو اقترابا ، تكشف طرف الخيمة عن جسد الصبى الزنجى ، « هومز » مستلقيا على الرمال البيضاء ٠٠ ولم يكن « سارو » يبدى أى اكتراث بالزنجى ، بل كان يدخن وهو سارح البال ، وعلى راسه قبعة عتيقة من القش حائلة اللون ، مالت حافتها على احدى عينيه ٠٠ وتساءل « اجوستينو » فى استياء اذ وصل : « أليسوا هنا ؟ » ٠٠ فتطلع اليه « سارو » وتأمله لحظة ، ثم قال : « لقد ذهبوا الى (ريو) » ٠٠ وكانت (ريو) بقعة مهجورة من الشاطىء على بعد بضعة كيلومترات ، يصب عندها فى البحر جدول صغير يجرى بين ضفتين رمليتين نما عليهما الغاب ٠٠

وقال « اجوستينو » فى أسف : « آه ! ٠٠ ذهبوا الى (ريو) ٠٠ لماذا ؟ »

وتولى الزنجى الاجابة ، فقال وهو يرفع يده الى فمه معبرا عما يقصد : « ذهبوا الى وليمة ! » ٠٠ على أن « سارو » هز راسه وقال : « انكم لن تهنأوا أيها الاولاد ، حتى يطلق بعضهم الرصاص عليكم ! » ٠٠ كان من الجلى أن « وليمتهم » لم تكن سوى حملة لسرقة الفاكهة من البساتين ! ـ أو هكذا بدت لأجوستينو ـ بينما قال الزنجى فى تزلف ، وكأنه ينشد رضى « سارو » : « اننى لم أذهب معهم »

فقال « سارو » فى هدوء : « لم تذهب لأنك لم ترغب فيما ذهبوا من أجله ! »

فتمرغ الزنجى على الرمال محتجا ، وقال : « لم اذهب لأننى أردت أن أبقى معك » ٠٠ وكان يتكلم فى صوت عذب كأنه تغريد ٠٠ ولكن « سارو » قال فى ازدراء : « ومن أذن لك فى أن تستبيح رفقتى الى هـذا الحد أيها الزنجى الصغير ؟ ٠٠ اننا لسنا أخوين ، على ما أعلم »

فقال الآخر فى غير ارتباك ، بل فى لهجة الفائز ، وكأنما أتاحت له هـذه اللمزة ارتياحا عميقا : « لا ٠٠ لسنا اخوين »

قال « سارو » : « اذن ، فالزم حدودك » ٠٠ ثم التفت الى « اجوستينو » قائلا : « لقد ذهبوا ليسرقوا بعض الاذرة ٠٠ هذه هى وليمتهم التى سعوا اليها ! »

فتساءل « اجوستينو » فى لهفة : « وهل سيعودون ؟ »

ولم ينبس « سارو » ببنت شفة ، بل ظل يتأمل « اجوستينو » وكأنه يتدبر امرا فى باله ٠٠ ثم أجاب فى تؤدة : « لن يعودوا سريعا ٠٠ بل سيطول

غيابهم ٠ على أننا نستطيع أن نذهب اليهم ان شئت »
ـ وكيف ؟
قال « سارو » : « في القارب »
وهتف الزنجي وهو يقفز متحمسا : « آه ٠٠ اجل ، لنذهب فى القارب » ٠٠ واقترب من « سارو » ، ولكن هذا لم يعره التفاتا ، بل استطرد يقول لأجوستينو: « ان لدى قاربا شراعيا ٠٠ ولن نلبث بعد نصف الساعة أن نكون فى (ريو) ٠٠ اذا كانت الريح مواتية » ٠٠ فقال « اجوستينو » مغتبطا : « أجل ٠٠ لنذهب ٠٠ ولكن ، كيف نعثر عليهم اذا كانوا فى الحقول ؟ »
قال « سارو » وهو ينهض ويشد الحزام القماشي الاسود حول بطنه : « لاتحمل لهذا هما ٠٠ سوف نجدهم بسهولة » ٠٠ ثم تحول الى الزنجي الذى كان يرقبه في قلق ملهوف ، وقال : « هيا أيها الزنجي ٠٠ ساعدني على اقامة الصارى ونشر الشراع » ٠٠ فهتف الزنجي فى فرح : « ها أنذا يا سارو ٠٠ ها أنذا قادم ! » ٠٠ وتبع سارو الى القارب ٠

* * *

◆ **ووقف** « اجوستينو » ـ اذ غدا وحيدا ـ وتلفت حوله ٠٠ كانت ثمة ريح خفيفة تهب من الشمال الغربى ، وقد اكتسى سطح البحر بمويجات واهنة ، واستحال لونه الى زرقة بنفسجية تقريبا ٠ اما الشاطىء فقد التف بغلالة من وهج الشمس والرمال ، شملته حتى أقصى مرامى البصر ٠ ولم يكن « اجوستينو » يعرف موقع (ريو) ، فسرح بصره يتبع تعرجات الشاطىء المقفر في حنين ٠٠ ترى أين (ريو) ؟ ٠٠ وحدس انها ولابد تقع فى جزء ما من ذلك الافق الذى كانت تختلط عنده الأرض بالسماء والبحر فى ضباب قاتم مبهم ، تحت الشمس الحامية ٠٠ وأحس بتحمس وشوق الى الرحلة ، وقد وقر فى نفسه انه ما كان ليتخلف عنها ولو وهب الدنيا بأسرها ٠٠

وأخرجه من تأملاته صوتا « ساور » والزنجى وهما يبرزان من الكابين ، وقد حمل الأول على احدى ذراعيه كومة كبيرة من الحبال وقماش الأشرعة ، بينما احتضن بالاخرى

زجاجة ٠ وتبعه الثانى يحمل صاريا طويلا طلى الى منتصفه باللون الأخضر ، وكأنه يحمل حربة ٠٠ وقال « سارو » وهو يتجه الى الشاطىء ، دون ان يتجشم عناء الالتفات نحو « اجوستينو » : « هيا ، فسوف نقلع » ٠٠ **وبدا لأجوستينو فى مسلكه تسرع غريب ، يناقض تماما ما لحظه عليه من قبل ٠٠ كما لاحظ ان خياشيمه الحمراء المنتفخة قد ازدادت احمرارا ولمعانا عما كانت فى العادة ، وكأنما امتلأت جميع ما فيها من عروق متشابكة ، متشعبة ، بفيض طارىء من الدماء ٠٠ وأخذ الزنجى يردد وراء « سارو » وهو يقفز على الرمال ، وكأنه يرقص ، والصارى تحت ذراعه : « هيا ٠٠ هيا ٠٠ »** على ان « سارو » أوشك ان يبلغ الكابينات القليلة التى فى بداية (البلاج) ، فتباطأ الزنجى فى انتظار « اجوستينو » ، حتى اذا اقترب هذا أشار له بأن يقف ، فامتثل «اجوستينو» ، وقال الزنجى فى ألفة وود : « اسمع ٠٠ أريد ان احدث « سارو » فى سر بيننا ٠٠ أرجو ان تتكرم ٠٠ أرجو ٠٠ ان لا تأتى ٠٠ اذهب ٠٠ أرجوك ! » ٠٠ فتساءل « اجوستينو » فى دهشة بالغة : « ولماذا ؟ » ٠٠ فقال الآخر فى ضيق ، وهو يدق الأرض بقدمه : « قلت لك اننى أريد ان أتحدث اليه فى خلوة ٠٠ أنا وهو فقط ! » ٠٠ لكن « اجوستينو » عاد يقول ، دون ان يتزحزح عن موقفه : « يجب ان أذهب الى ريو »

ـ تستطيع ان تذهب فى وقت آخر

ـ لا ٠٠ لا أستطيع

فنظر اليه الزنجى وقد نمت عيناه ، وخياشيمه المرتعشة ، عن انفعال عاطفى مشبوب ، أثار اشمئزاز اجوستينو : « اسمع يا بيزا ٠٠ اذا بقيت هنا ، أعطيتك شيئا لم تره من قبل ! » ٠ ووضع الصارى على الأرض ، ودس يده فى جيبه ، ثم أخرج مقذافا ـ (نبلة) ـ صنع من فرعين

صغيرين مشتبكين من فروع الصنوبر ، وشريطين مطاطين ، وقال وهو يمسك به : « أليس بديعا ؟ »

غير ان « اجوستينو » كان راغبا فى الذهاب الى (زيو) ، كما ان الحاح الزنجى أثار شكوكه ، فقال : « لا ٠٠ لا اريده » ٠٠ فعاد الآخر يقول وهو يمسك بيد «اجوستينو» ويحاول ان يدس المقذاف فيها عنوة : « خذه وانصرف ! »

فردد « اجوستينو » رفضه : « لا ٠٠ لا اريده »

واذ ذاك استطرد الزنجى وهو يدس يده فى جيبه ثانية : « سأعطيك المقذاف وأوراق اللعب هذه أيضا » ٠٠ وأخرج من جيبه مجموعة من أوراق اللعب الصغيرة ، ذات ظهور وردية اللون ، وحواف مذهبة ٠٠ وعاد يقول : « خذها جميعا وانصرف ٠٠ تستطيع ان تصيب بالمقذاف طيورا ٠٠ وأوراق اللعب هذه جديدة »

لكن « اجوستينو » أجابه فى اصرار : « قلت لك اننى لا اريدها ! »

فرمقه الزنجى بنظرة استعطاف وتوسل ، وقد تلألأت على جبينه قطرات من العرق ، وتقلص وجهه معبرا عن تعاسة بالغة ، وقال فى شبه عويل : « ولماذا لا تريدها ؟ »



قال اجوستينو : « هكذا لست اريد » ·· وانطلق فجأة يهرع نحو الرجل الذى كان يقف اذ ذاك الى جوار القارب · وفيما كان يقترب من « سارو » ، سمع الزنجى يصيح وراءه : « ستندم على ذلك ! »

وكان القارب يستند الى كتلتين من خشب البلوط غير مصقولتين ، على مسافة من رمال الشاطىء ، وكان « سارو » قد ألقى الشراع فى القارب ، وبدا عليه انه فقد صبره على الانتظار ·· فسأل « اجوستينو » وهو يشير نحو الزنجى : « ما الذى يبغى ؟ » ·· فأجابه اجوستينو : « انه قادم »

وفعلا أقبل الزنجى يجرى فى قفزات طويلة فوق الرمال، ممسكا بالصارى تحت ذراعه ·· وتناول « سارو » الصارى بأصابع يمناه الست ، وأقامه بأصابع يسراه الست ، ثم نصبه فى ثغرة تتخلل المقعد الأوسط ·· وانتقل بعد ذلك الى القارب ، فربط الشراع الى الصارى ، ثم نشر القماش ·· وتحول أخيرا الى الزنجى قائلا : « والآن لندفعه من أسفل »

ووقف بجانب القارب ، قابضا على حافة مقدمه ، بينما تأهب الزنجى لدفعه من المؤخرة ·· وأخذ « اجوستينو » يرقبهما وهو لا يدرى ما يفعل ·· وكان القارب متوسط الحجم ، نصفه أبيض ، ونصفه أخضر ·· وعند المقدمة ، كتب بحروف سوداء اسمه : « أميليا » ·

وهتف « سارو » : « هيلا ·· ليصا ! » ·· فانزلقت المركب الى الامام مسافة ، ثم قفز الزنجى ودفع القارب حول محوره ، حتى صارت نهايته فى مكان مقدمته ، وهو محتضن العارضتين الخشبيتين بذراعيه ·· وتكررت العملية ·· ثم دفعة أخرى ، واذا بمقدم القارب يغطس فى الماء ، وينزلق طافيا فوق سطح البحر · وقفز اليه « سارو » فوضع المجذافين فى الحلقتين المخصصتين لهما ، وما لبث أن قبض على كل منهما باحدى يديه، وأشار الى « اجوستينو » ليقفز ـ مغفلا الزنجى ، كأنما كان

بينهما اتفاق سابق ! ـ فخاض « اجوستينو » في الماء حتى ركبتيه ، وأخذ يحاول الصعود ٠٠ وما كان ليفلح لولا أن الاصابع الست ليد « سارو » اليمنى أمسكت باحدى ذراعيه بقوة ، وشدته كما لو كان قطا ! ٠٠ ورفع رأسه ، فاذا «سارو» يرفعه باحدى ذراعيه دون أن ينظر اليه ، لأنه كان منهمكا فى تسوية وضع المجذاف الأيسر ٠٠ وسعى « اجوستينو » حتى جلس فى مؤخرة القارب ، متقززا اذ أمسكت تلك الاصابع به ، فقال سارو : « حسنا ٠٠ ابق هناك ٠ والآن سندفع القارب بعيدا عن الشاطىء » ٠٠ فصرخ الزنجى من البر : « انتظرنى ٠٠ سآتى أنا الآخر » ٠٠ وقفز الى الماء وقد أرهقه ما قام به من جهد ، وتشبث بحافة القارب ، ولكن « سارو » قال له : « لا ٠٠ لن تأتى »

فصاح الصبى فى لوعة واستياء : « وماذا ترانى فاعلا ؟ ٠٠ ماذا ترانى فاعلا ؟ » ٠٠ فأجاب « سارو » وهو يقف فى القارب دافعا اياه نحو الماء : « استقل الترام فتصل قبلنا ٠٠ كن واثقا من ذلك ! » ٠٠ لكن الزنجى استطرد معولا وهو يجرى فى الماء بجانب القارب : « ولماذا يا سارو ؟ ٠٠ لماذا يا سارو ؟ ٠٠ أريد أن أذهب أنا أيضا »

ولم ينبس « سارو » ببنت شفة ، بل ترك المجذافين ، وانحنى على حافة الماء فغطى وجه الزنجى براحته الضخمة ، ثم قال فى هدوء : « قلت لك أنك لن تأتى » ٠٠ وبدفعة واحدة رد الزنجى فى الماء ، فعاد هذا يقول فى أنين : « لماذا يا سارو ؟ ٠٠ لماذا يا سارو ؟ »

واختلط صوته الحزين باصطفاق المجذافين وهما يضربان سطح الماء ، الامر الذى كان له وقع سىء على « اجوستينو » ، أثار فى نفسه شعورا من الاشفاق المضطرب ، فتطلع الى «سارو» الذى ابتسم قائلا : « انه مزعج ٠٠ فما شأننا به ؟ »

وكان القارب قد ابتعد مسافة ما عن الشاطىء ، وتلفت

« اجوستينو » فرأى الزنجى يخرج من الماء ٠٠ وخيل اليه أنه يهز له قبضته متوعدا ! ٠٠ بينما تناول « سارو » المجدافين فى هدوء فأودعهما القارب ، ثم سعى الى المقدمة ففك الشراع وشده الى الصارى ٠٠ وخفق الشراع مضطربا لحظة ، كأنما كانت الريح تهب على جانبيه فى آن واحد ٠ ثم اهتز فجأة بعنف وانتفخ بالريح ، ومال الى اليسار ٠٠ وانصاع القارب لاتجاهه فلزم هو الآخر الجانب الأيسر ، وشرع يطوى الموج ، يسيره نسيم خفيف ٠٠ فقال سارو :

ـ والآن ، نستطيع أن نستلقى ونستريح قليلا ٠٠

واستقر فى قاع القارب ، ودعا « اجوستينو » الى أن يستلقى الى جواره ، قائلا : « اذا جلسنا فى القاع ، زادت سرعة انطلاق القارب » ٠٠ فأطاع « اجوستينو » واستلقى بجواره ٠ ومضى القارب مسرعا رغم ثقل بنيانه ، يعلو ويهبط مع الامواج ، ومؤخرته ترتفع أحيانا ، كدجاجة صغيرة تحاول أن تلتقط شيئا من الارض للمرة الأولى ٠٠ وكان « سارو » مستلقيا ورأسه مستند الى المقعد ، واحدى ذراعيه خلف عنق « اجوستينو » تمسك بالدفة ٠٠ وبعد أن ظل برهة لا ينبس ببنت شفة ، قال : « أتذهب الى المدرسة ؟ »

وتطلع « اجوستينو » ، فاذا « سارو » نصف راقد ، وقد لاح كأنه يعرض خياشيمه الواسعة الملتهبة لهواء البحر ، كى يبردها ٠٠ وكان فمه نصف فاغر تحت شاربيه ، وعيناه نصف مغمضتين ، وقد كشف قميصه المفتوح الصدر عن شعر قذر ، مشعث ، اختلط البياض فى لونه بالسواد ٠٠ فأجابه « اجوستينو » وقد أخذ يرتجف فرقا : « أجل »

ـ وفى أية سنة دراسية أنت ؟

ـ فى السنة الثالثة ٠٠

فقال له سارو : « هات يدك ! » ٠٠ وقبل أن يرفض « اجوستينو » ، أمسك بها ٠٠ كانت قبضته تبدو لأجوستينو

اثما . وكانت الأصابع الست القصيرة الغليظة قد أحاطت بيده كلها والتقت تحت راحتها . وقال « سارو » وهو يتزحزح في اضطجاعته ليتخذ وضعا أكثر اراحة ، ويغرق فى استغراقة منتشية : « وماذا يعلمونك فى المدرسة ؟ »

فأجاب اجوستينو متلعثما : « اللاتينية .. والايطالية .. والجغرافيا .. والتاريخ .. »

فسأله « سارو » بصوت خفيض : « هل يلقنونكم الشعر .. الشعر البديع ؟ » .. فأجاب اجوستينو : « نعم .. هم يلقنونا الشعر أيضا »

ـ قل لى بعضا مما تحفظ ..

وانحرف القارب ، فحول « سارو » الدفة ، دون أن يغير من وضعه الذى ارتاح له .. وقال « اجوستينو » وهو يزداد شعورا بالحيرة والخوف : « لست أدرى .. اننى أحفظ كثيرا من الشعر .. قصائد كاردوتشى .. »

فأجاب « سارو » بلهجة آلية : « آه ، أجل .. كاردوتشى .. قل لى قصيدة من كاردوتشى »

فقال « اجوستينو » متسائلا ، وهو فى ذعر من اليد التى لا تبغى أن تفلته ، رغم محاولته أن يتملص منها شيئا فشيئا : « تبغى قصيدة « نافورات كليتونو ؟ » .. فأجاب « سارو » فى لهجة حالمة : « أجل .. نافورات كليتونو ! »

فشرع « اجوستينو » يردد فى صوت مرتجف : « أشبه بالجبال المرمرية العالية ، منها بالاشجار الهيفاء الداكنة فى مهب الريح »

.. وازدادت سرعة القارب ، وظل « سارو » راقدا فى اضطجاعته المريحة ، مغمض العينين ، رافعا أنفه فى مهب الريح .. وراح يهز رأسه الى فوق والى تحت وكأنه يستمرىء الابيات التى تتلى عليه .. وتشبث « اجوستينو » بالشعر وقد رأى فيه الوسيلة الوحيدة التى تتيح له مهربا من الحديث الذى أحس

بغريزته أنه خطر ، غير مأمون ، فواصل ترديد الشعر فى القاء بطىء ، واضح ٠٠ وظل طيلة الوقت يسعى لتخليص يده من تلك الاصابع الست التى كانت تأسرها ، لكنها كانت تزداد اطباقا عليها أكثر من قبل ! وتبين فى جزء أن القصيدةأوشكت أن تنتهى ، فلما أعياه التماس الحيلة ، ألحق بآخر سطر من القصيدة ، السطر الاول من قصيدة « أمام القديس جيدو » ٠٠ **وهنا تجلى الدليل ــ اذا كان قد أعوزه الدليل ــ على أن «سارو» لم يكن مهتما بالشعر ، وانما كان يبغى أمرا آخر جد مختلف ٠٠ أما ما هو ذاك الأمر ، فهذا ما لم يستطع « اجوستينو » أن يدركه ! ٠٠ ونجحت التجربة ، وانتقل « اجوستينو » الى القصيدة الثانية ، دون أن تبدر من « سارو » أتفه اشارة الى أنه لاحظ التغير الذى حدث ٠٠ وما لبث « اجوستينو » ان كف عن الالقاء ، وقال فى صوت مغيظ : « دع يدى ٠٠ أرجوك » وحاول فى الوقت ذاته أن يجذب يده بعيدا ٠٠**

وانتبه « سارو » ، ففتح عينيه وتحول ينظر اليه ، دون أن يفلت يده ٠٠ ولعله قرأ على وجه « اجوستينو » من النفور العنيف ، والفزع الظاهر ، ما جعله يتحقق من أن خطته ــ اذ كانت له بالتأكيد خطة ــ قد منيت بفشل ذريع ٠٠ فأخذ يرفع أصبعا بعد أخرى ــ فى تؤدة ــ عن يد « اجوستينو » التى كانت تنضح بالألم ، وقال بصوت خفيض ، وكأنه يحدث نفسه : « ما الذى تخافه ؟ ٠٠ ها قد آن ان نهبط الى الشاطىء » ٠٠ وجر نفسه حتى استوى على قدميه ، فجذب الدفة وأدارها ، واذ ذاك ولى القارب مقدمه صوب الشاطىء ٠٠

★ ★ ★

◆ ونهض « اجوستينو » من قاع القارب وهو لا يزال يفرك يده المتقلصة العضلات ، دون ان يتفوه بكلمة ، ثم انتقل ليجلس فى المقدمة ٠٠ ولم يكن بين القارب والشاطىء اذ ذاك مسافة تذكر ، فاستطاع ان يرى البر ٠٠ تلك

الرقعة البيضاء من الرمال التى لوحتها الشمس ، والتى كانت متسعة عند المقدمة ، ومن خلفها تجلت خضرة أشجار الصنوبر السامقة ، الكثيفة – اذ كانت (ريو) تقع فى ثغرة بين الكثبان العالية ، يتوجها غاب ذو لون أزرق مخضوضر – على ان « اجوستينو » أبصر ، قبل ان يبلغا (ريو) ، جماعة من الناس على الشاطىء ، وقد انبعث من وسطهم خيط طويل من الدخان الاسود ٠٠ فالتفت الى « سارو » ، الذى كان جالسا فى المؤخرة ، مسيطرا على الدفة بيد واحدة ، وتساءل : « هل سنهبط هنا ؟ »

فأجاب « سارو » فى غير اكتراث : « اجل ، فهذه ريو »

وازداد القارب دنوا من الشاطىء ، فرأى « اجوستينو » الجماعة الملتفة حول النار تتفرق فجأة وتتسابق جريا الى حافة الماء ٠٠ وتبين لتوه انهم صحابه الغلمان ، ورآهم يلوحون بأيديهم ، ولعلهم كانوا يصيحون ، بيد ان الريح حملت أصواتهم بعيدا ٠٠ فتساءل فى انفعال : « أهم هؤلاء ؟ »

قال سارو : « أجل ٠٠ هم ! »

وازداد القارب دنوا حتى أصبح فى وسع « اجوستينو » ان يميز الأولاد ٠٠ كانوا جميعا هناك : « تورتيما ، وبرتو ، وساندرو ، وجميع الآخرين ٠٠ وكان الزنجى « هومز » هناك ، يقفز على طول الشاطىء ، ويصيح مع الآخرين ٠٠ وداخل « اجوستينو » ، اذ رآه هناك ، شىء من المضض لم يدر مبعثه !

★ ★ ★

◆ واندفع القارب بمقدمه الى الشاطىء ، ولكن « سارو » حوله بلفة سريعة للدفة ، فاتخذ اتجاها عرضيا ، ثم ألقى بنفسه على الشراع فأمسك به بكلتا يديه ، وخفضه الى السطح ٠٠ فدار القارب حول نفسه ثم سكن فى الماء الضحل ، واذ ذاك تناول « سارو » من قاعه خطافا للرسو ، ألقى به الى البحر ، وقال : « هيا بنا الى الشاطىء » ٠٠ ثم تسلق حافة القارب ، وخاض فى الماء ، ليسعى الى الاولاد الذين كانوا على الشاطىء فى الانتظار

ورأى « اجوستينو » الاولاد يلتفون حول « سارو » ، وبدا له انهم يهنئونه لأمر استقبله بهزة من رأسه ٠ فلما حان دوره فى الاقتراب ، استقبله الأولاد بتصفيق أشد ، فخيل اليه لحظة انهم كانوا يرحبون به فى ود ، بيد ان ضحكاتهم كانت ساخرة ، لاذعة ٠٠ وصاح « برتو » : « ان « بيزا » العزيز يستعذب النزهة فى البحر ! » ، بينما وضع « تورتيما » اصابعه فى فمه ، وأرسل صفيرا مستهجنا ، فقلده الآخرون ٠٠ حتى « ساندرو » الذى كان متحفظا فى العادة ، رمق أجوستينو فى ازدراء ٠٠ أما الزنجى ، فلم يفعل سوى ان راح يقفز حول « ساندرو » الذى يمر لفوره

شطر النار التى كان الأولاد قد أشعلوها على رمال الشاطىء .. وسار « اجوستينو » مذهولا ، يخالجه خوف مبهم ، الى حيث جلس بين الآخرين حول النار ..

وكان الأولاد قد أقاموا ما يشبه الفرن ، من الرمال الرطبة المضغوطة ، أشعلوا بداخله نارا اتخذوا لها من أكواز الصنوبر وابره وفروعه وقودا .. وعند فتحة الفرن ، كانت ثمة كومة من أكواز الاذرة ، تشوى ببطء . كما كانت ثمة فاكهة كثيرة وبطيخ على ورق من أوراق الصحف ، بالقرب من النار ..

وقال « برتو » حين جلسوا جميعا : « انه ظريف .. صديقنا « بيزا » !.. انك و « هومز » ندان متشابهان ، فخليق بكما ان تجلسا معا .. انكما اخوان .. هو اسود ، وأنت أبيض .. هذا كل ما بينكما من فارق .. وكلاكما يحب النزهات فى القارب ! »

وضحك الزنجى معجبا ، بينما انحنى « سارو » يقلب أكواز الاذرة أمام النار .. وأخذ الآخرون يضحكون فى استهزاء . وتمادى « برتو » فدفع « اجوستينو » دفعة طوحت به على « هومز » ، فتماس ظهراهما لحظة ، وأحدهما يضحك فى غير ارتياح ، والثانى حائر ، ممتعض .. وقال « اجوستينو » فجأة : « لست أفقه ماذا تعنون ! .. لقد قمت بنزهة فى القارب ، فأى ضير فى هذا ؟ »

فردد كثيرون فى أصوات ساخرة : « آه .. حقا ، أى ضير فى هذا ؟ .. قام بنزهة فى القارب .. أى ضير فى هذا ؟ »

وأمسك بعضهم جنوبهم من فرط استغراقهم فى الضحك ، وعاد « برتو » يلتفت الى اجوستينو مكررا : « أجل ، أى ضير ؟.. لا ضير على الاطلاق !..



بل ان « هومز » يراها نزهة رائعة ٠٠ أليس كذلك ياهومز ؟ » ٠٠ فهز الزنجى رأسه موافقا وقد بدا عليه الانشراح ٠٠ واذ ذاك بدأت الحقيقة تنبثق فى ذهن « اجوستينو » وئيدا ، فلم يتمالك أن رجح وجود علاقة بين لمزاتهم وبين مسلك « سارو » فى القارب ، فقال : « لست أدرى ما الذى ترمون اليه ، فاننى لم آت خطأ فى القارب ٠ لقد حملنى « سارو » على أن ألقى عليه بعض الشعر ٠٠ وهذا كل ما جرى ! »

٠٠ فسمع أصواتهم تنبعث من كل جانب : « آه ٠٠ آه ، من تلك الاشعار!»

٠٠ فصاح « اجوستينو » وقد تضرج وجهه : « أليس ما أقول حقا ياسارو ؟ »

٠٠ لكن « سارو » لم يجب بنعم أو لا ، بل قنع بالابتسام ، وهو يرقبه طيلة الوقت فى فضول غريب !٠٠ وفسر الاولاد مابدا عليــه من عدم اكتراث مصطنع ، بأنه ليس فى الواقع سوى ستار لاخفاء غدره وغروره ازاء أكذوبة « اجوستينو » ، فصاحوا معا : « آه ٠٠ طبعا !٠٠ انه يسأل الخمار ما اذا كانت خمره طيبة ، ولن يجسر الخمار على أن يجيب بالنفى !٠٠ أليس كذلك يا سارو ؟٠٠ آه ، حيلة لطيفة ٠٠ واها لك يا بيزا ٠٠ يا بيزا ! » ٠٠ووجد الزنجى فى هذا ثأرا يرضى كرامته ، فأحس باغتباط ٠٠ وفجأة تحـول « اجوستينو » اليه وهو يرتعش لفرط الحنق وقال : « ما الذى يضحكك ؟ »

فأجاب وهو يتراجع : « لست أضحك » ٠٠ وتدخل « برتو » قائلا : « ماينبغى لكما أن تتشاحنا ٠٠ لسوف يسعى « سارو » كى يعيد الود بينكما »

★ ★ ★

◆ على أن الاولاد ما لبثوا أن فقدوا اهتمامهم بالموضوع ـ اذ انتهى الى غير شجار ـ فأخذوا يتحدثون فى مسائل أخرى ، ويصفون كيف تسللوا الى حقل سرقوا منه الاذرة والفاكهة ، وكيف رأوا المزارع ينـدفع نحوهم ساخطا ، ممسكا ببندقيته ، فلاذوا جميعا بالفرار ، بينما أطلق المزارع عليهم بضـع طلقات من بارود « الرش » ، دون أن يصيب منهم أحدا ٠٠ وفى تلك الاثناء كانت أكواز الاذرة قد نضجت على الجمر وغدت شهية الشكل ، فأخرجها « سارو » من الفرن وأخذ يوزعها عليهم بطريقته الأبوية المألوفة ٠ وانتهز « اجوستينو » فرصة انهماكهم فى أكل الاذرة فقفز الى « ساندرو » الذى كان يجلس على حدة يتناول نصيبه حبة حبة ، وشرع يقول له : « لست أفهم ٠٠ » ، ولكن هذا رمقه بنظرة جعلته يوقن من أن لا داعى للكلام ! ٠٠ ثم قال « ساندرو » فى تؤدة : « لقد جاء الزنجى مستقلا «الترام» ، وقال انك و « سارو » خرجتما للنزهة فى القارب »

ـ ولكن ٠٠ أى ضير فى هذا ؟

فاجاب « ساندرو » وقد غض بصره : « لا شأن لى فى هذا ٠٠ انه شأنك ، وشأن الزنجى ٠ أما «سارو» ٠٠ » وأمسك عن الكلام ، ونظر الى « اجوستينو »، فسأله هذا : « اكمل ! »

ـ الواقع اننى لا أجرؤ على الخروج وحيدا مع « سارو » !

ـ ولكن ٠٠ لماذا ؟

فتلفت « ساندرو » حوله فى حذر ، ثم أخذ يفضى فى صوت خفيض ، بالشرح الذى كان « اجوستينو » قد حدسه ، وان لم يستطع أن يبرره ، بل لم يزد على أن قال : « آه » ٠٠ ثم عجز عن أن يضيف شيئا ، فعاد الى مكانه بين الآخرين ٠٠ وكان «سارو» يجلس وسط الاولاد ، ورأسه الرصين الملامح، الطيب السمات ، مائل الى أحد الجانبين ، فبدا تماما كالأب محوطا بأبنائه !٠٠ بيد أن « اجوستينو » أحس ـ اذ أبصره ـ بكراهية نحوه فاقت ماكان يكنه للزنجى ٠ وكان مما زاد « اجوستينو » بغضا له ذلك الصمت الذى التزمه حين استنجد به ، وكأنه كان يبغى الايحاء للاولاد بأن ما اتهموه به قد حدث فعلا !٠٠ بل ان اجوستينو لم يتمالك أن يلاحظ ـ الى جانب هذا ـ ان احتقارهم وسخريتهم قد حفرا بينه وبينهم هوة واسعة ٠٠ عين الهوة التى فطن الآن الى أنها كانت تفصل بينهم وبين الزنجى !٠٠ كل ماهنالك من فارق ، هو أن الزنجى بدلا من أن يستشعر مثله هوانا وألما ، بدا وكأنه يستمرىء الوضع ٠ ولقد حاول أجوستينو أكثر من مرة أن يدير دفة الحديث نحــو الموضوع الذى كان يضنى باله ، ولكنه كان يقابل دائما بضحك وازورار مهين! ٠٠ ثم انه فوق ذلك ظل لا يفهم تماما ماحدث ، رغم شرح « ساندرو » الذى كان واضحا كل الوضوح ، ولاح له أن ظلاما يكتنف كل شىء حوله ، ويمتد فى اغوار نفسه ، وكأنما لم تكن تحيط به غير أشباح ، وأشكال غامضة مخيفة ، بدلا من الشاطىء والبحر والسماء ٠٠

وكان الاولاد فى تلك الاثناء قد فرغوا من التهام الاذرة وطوحوا بالأكواز العارية على الرمال ، فهتف أحدهم : « هيا نسبح فى مياه ريو » ٠ وقوبل الاقتراح بموافقة اجماعية فى الحال ، وذهب « سارو » معهم ـ اذ كانوا قد اتفقوا على أن يحملهم فى القارب عند العودة الى (بلاج فيزبوتشى) ـ وفيما كانوا يسيرون على الرمال ، تخلف « ساندرو » عن الآخرين ، وسعى الى « اجوستينو » فقال له : « اذا كان الزنجى قد أساء اليك ، فلم لا تعلمه كيف يخافك ويحسب لك حسابا ؟ »

فتساءل « اجوستينو » فى استخذاء : « وكيف ؟ »

ـ اذقه « علقة » طيبة

قال « اجوستينو » وهو يذكر تنافسهما فى مباراة الذراع : « ولكنه أقوى منى ٠٠ اللهم الا اذا عاونتنى »

ـ ولماذا أعاونك ؟ .. ان المسألة تخصك .. وتخصه !

وتعمد أن ينطق الكلمات الاخيرة بلهجة أوحت بأنه كان من رأى الآخرين فيما يتعلق بسبب عداء « اجوستينو » للزنجى .. ودهم فؤاد « اجوستينو » شعور لاذع فظيع المرارة : اذن فقد كان « ساندرو » ـ الوحيد الذى أبدى له شيئا من العطف ـ يؤمن بتلك الفرية ، هو الآخر !

وابتعد « ساندرو » بعد أن أزجى اليه تلك النصيحة ، وانضم الى الآخرين ـ وكأنه خشى أن يرى مع « اجوستينو » ! ـ فدلفوا من الساحل الى غابة نبتت فيها أشجار صنوبر حديثة العهد ، ثم عبروا دربا رمليا ، وولجوا منابت الغاب .. وكانت أعواد الغاب سميكة ، طويلة ، تتوج كثيرا منها شعيرات بيضاء .. وأخذ الاولاد يظهرون ويختفون وهم يمرقون بين الاعواد الخضراء الطويلة ، متخيرين مواطىء أقدامهم على الارض اللزجة ، منحين عن طريقهم الاوراق السميكة الوبرية ، التى كانت تحدث حفيفا خشنا .. وانتهوا أخيرا الى بقعة انفسح فيها الفراغ بين أعواد الغاب ، وبدت ضفة منخفضة ، موحلة .. وتدافعت عند مرآهم ضفادع كبيرة راحت تقفز من كل اتجاه على سطح الماء المعتم ، الراكد . واذ ذاك شرعوا جميعا يخلعون ثيابهم ، كل أمام الآخر ، تحت بصر « سارو » الذى جلس فى كامل ثيابه على صخرة تطل على الحمأة ، وبدا مستغرقا فى تدخين سيجاره ، لكنه كان فى الواقع يرمقهم طيلة الوقت من خلال أجفانه المسدلة .. وخجل « اجوستينو » من أن ينضم اليهم ، بيد أنه خشى أن يسخروا منه ، فلم يلبث أن شرع بدوره يفك أزرار سرواله ، متباطئا فى ذلك ما استطاع ، ومثبتا بصره على الآخرين فى حيطة ..

★ ★ ★

◆ وكأنما اشتد بالآخرين الفرح للتخلص من ثيابهم ، فأخذ كل منهم يرتطم بالآخر وهو يصيح فى سرور !.. كانوا يلوحون ناصعى البياض وسط أعواد الغاب الخضراء ، تشوب بياضهم قتامة كالحة فيما بين الفخذين والبطن ، أضفت على مظهرهم لونا من الخشونة المستهجنة ، كتلك التى تظهر عادة على العمال الذين يشتغلون بأيديهم . وكان « ساندرو » الرشيق ، المتناسق الأعضاء ، ذو الشعر الأصفر النامى على جسمه ـ والذى كان يضاهى فى اللون شعر رأسه ـ هو الوحيد الذى لا يكاد يبدو عاريا .. ولعل ذلك كان راجعا الى أن السمرة كانت موزعة على جسمه كله توزيعا منسقا .. وكيفما كان الامر ، فان عريه بدا مختلفا عن ذلك العرى المثير للنفور ، والذى يشاهد فى الحمامات العامة !

وأخذ الأولاد يمارسون كل أنواع اللعب البذيئة قبل أن يغوصوا فى الماء ،

فى قحة أذهلت « اجوستينو » ، الذى كان كل ذلك جديدا عليه !٠٠ وكان هو الآخر عاريا ، وقد اسودت ساقاه بالوحل البارد القذر ، لكنه كان يود لو يلوذ بأعواد الغاب ليختفى بينها ، ولو ليفر من نظرات « سارو » الذى كان يجلس محدودب الظهر ، جامدا ـ كما لو كان احدى تلك الضفادع الضخمة التى تسكن المستنقع ـ يرمقه خلال عينين نصف مغمضتين !٠٠ بيد ان نفور اجوستينو كان، كالمعتاد ، أقل من تلك الجاذبية الغريبة التى كانت تشده الى العصبة! ٠٠ بل لقد كان الشعوران ممتزجين الى حد لا يمكن معه الفصل بينهما ، ويستحيل عليه عنده أن يميز بين استبشاعه لما يجرى ، واستطابته المسرة التى كانت وراء الاستبشاع ٠ وأخذ كل من الاولاد يعرض جسمه بدوره ، مزهوا برجولته وقوته البدنية ٠ وكان « تورتيما » أكثرهم غرورا ،لكنه كان رغم قوته الفائقة ، أكثرهم سماجة ، وأقذرهم مظهرا ٠ ومع ذلك فقد أوحى اليه الغرور بأن يصيح فى اجوستينو : « هب اننى ظهرت أمام أمك عاريا ـ هكذا ـ ذات صباح بديع ، فماذا تراها قائلة ؟ ٠٠ أتراها ترافقنى ؟ »

فقال اجوستينو : « لا » ٠٠ ومع ذلك فقد أردف تورتيما : « بل أؤكد لك انها ستسعى الى فى الحال ، ولسوف ترمقنى بنظرة شاملة ، لتستبين مدى صلاحيتى ، ثم تقول : « هيا ياتورتيما ٠٠ تعال نخرج للنزهة » !٠٠ وكان هذا القول من السخف بحيث حملهم جميعا على الضحك ٠٠ ثم مالبثوا أن تواثبوا تباعا الى الماء مثل الضفادع التى أزعجوها بمقدمهم ٠ وكان الشاطىء محاطا بالغاب تماما ، بحيث لا يلوح للبصر من النهر سوى جزء قصير ٠٠ لكنهم ما أن أصبحوا فى عرض المجرى ، حتى رأوا النهر بأكمله ، وقد انسابت مياهه الداكنة السريعة بحركة لا يلاحقها البصر ، نحو المصب البعيد الذى كان يتوسط الضفتين الرمليتين ٠

وكان النهر فى الناحية الاخرى يمضى بين خطين من أحراش فضية تلقى ظلالا بهيجة على صفحة الماء ، الى أن يصل المرء الى جسر حديدى صغير ، تتكاثف خلفه عيدان الغاب وأشجار الصنوبر والسرو ، الى درجة تسد الطريق ٠ وكان ثمة بيت أحمر يتوارى بين الاشجار ، كأنه الحارس على الجسر !

وأحس « اجوستينو » بالهناءة لحظة ، وهو يسبح فى ذلك الماء البارد القوى الجريان ، الذى خال أنه يكاد يحمل ساقيه معه ، فنسى كل ماكان يضايقه من اساءات ولمزات ٠ وأخذ الاولاد يسبحون فى كل اتجاه ، ورؤوسهم وسواعدهم تعلو على السطح الاخضر الرقيق ، وأصواتهم تتردد فى الجو الرطب الراكد الهواء ٠٠ وكانت أجسامهم تبدو ، خلال الماء الشفاف ، كما لو كانت سيقانا بيضاء لنباتات تنمو فى الاعماق ، والتيار يعبث بها فيحركها فى هذا الاتجاه

وذاك ٠٠ وسبح « اجوستينو » حتى بلغ « برتو » الذى لم يكن بعيدا عنه ، وسأله : « هل فى هذا النهر اسماك كثيرة ؟ »

فتأمله « برتو » وقال : « ما الذى تفعله هنا ؟ ٠٠ لم لم تبق لتؤنس سارو؟» ٠٠ فأجاب « اجوستينو » وقد عاوده الشعور بالشقاء : « اننى أحب السباحة » ٠٠ ثم استدار وتولى سابحا ٠٠ بيد أنه لم يكن سباحا قويا ، مدربا كالآخرين ، فسرعان ما أدركه التعب ، وترك التيار يحمله نحو مصب النهر ٠٠ وما لبث أن خلف الاولاد وضجيجهم وراءه ، وأخذ سياج الغاب يبهت رويدا ، وبدأ يرى خلال الماء الصافى ، العديم اللون ، رمال القاع ، والماء يدور حولها فى دوامات صغيرة مستمرة ٠٠ وانتهى أخيرا الى بركة داكنة الخضرة ، كأنها عين المجرى الرقراقة ، فلما اجتازها مست قدماه الرمال ، وبعد أن كافح هنيهة قوة التيار ، صعد الى الضفة ٠٠ كان الجدول عند انسيابه الى البحر يلتف حول نفسه ، مكونا ما يشبه عقدة من الماء ، ثم يفقد كيانه وينتشر كالمروحة ، ويفقد عمقه رويدا حتى يغدو كقناع خفيف سائل على وجه الرمال الناعمة ٠ وكان البحر يندفع الى النهر فى مويجات مزبدة ٠ وكانت ثمة برك صغيرة فى الرمال المفرقة بالماء ، نسيها التيار ، وانعكست عليها السماء المشرقة ٠٠

* * *

◆ وأخذ « اجوستينو » يتجول عاريا على الرمال الناعمة اللامعة برهة ، مستمتعا بأن يطأها بقدميه فيجعل الماء يرتفع الى السطح ويغرق مواطىء القدمين٠ وتولته رغبة قوية ، لم يدر مبعثها ، فى أن يجتاز النهر خوضا ، وان ينطلق فى السير على الشاطىء ، مخلفا الاولاد و « سارو » ، وأمه ، وكل حياته القديمة وراءه ٠٠ فمن يدرى ، لعله لو سار قدما الى الامام ، لوصل فى النهاية الى بلد لا وجود فيه لتلك الاشياء الفظيعة ٠٠ بلد يجد فيه من الترحيب مايصبو اليه ، ويتاح له فيه أن ينسى كل الاشياء التى تعلمها ، ثم يعود الى تعلمها من جديد خالية من العار والتقزز ، منطوية على اللطف والتدرج الطبيعى كما كان ينبغى فيما بدا له !

وأنعم البصر فى الأفق المعتم ، البعيد ، الذى يمتد الى اقصى حدود البحر والشاطىء والغابة ، وأحس بأنه مشدود الى ذلك الاتساع المترامى ، وكأنه منجذب الى شىء يحرره من قيوده !٠٠ ولكن مالبثت صيحات الأولاد ـ وهم يتسابقون على الشاطىء ـ ان أيقظته من تخيلاته الحزينة ٠ وكان أحدهم يلوح بثيابه فى الهواء ، بينما كان برتو ينادى : « بيزا ٠٠ اننا منصرفون ! » ٠٠ فجمع شتات نفسه ، وسار على حافة الماء ليلحق بالجماعة

وأخذ الاولاد يتجمعون فى الماء الضحل ، و « سارو » ينذرهم بلهجة أبوية

بأن القارب أصغر من أن يضمهم جميعا ، بيد أنه كان من الواضح انه لم يكن يقصد سوى مداعبتهم ٠٠ اذ لم يلبث الاولاد أن ارتموا على القارب كالمجانين ، متصايحين ٠٠ وأمسكت عشرون قبضة بجوانب القارب ، وفى مثل لمح البصر كان قد امتلأ بالاجسام المتزاحمة ٠٠ واستلقى بعضهم فى القاع ، بينما جلس بعضهم متلاصقين فى المؤخرة حول الدفة ، وبعضهم فى المقدمة ، وآخرون على المقاعد ، وغيرهم على حواف القارب تاركين أقدامهم مدلاة فى الماء ٠ وتبين بالفعل أن القارب أصغر من أن يتسع لمثل هذا العدد ، اذ لم يلبث الماء أن بلغ حوافه !

وقال «سارو» فى بشاشة ضافية : «نحن جميعا هنا ٠٠ ألسنا كذلك ؟ » ، ثم وقف ونشر الشراع ، فانطلق القارب مسرعا فى البحر، والاولاديحيون رحيله بصيحاتهم ٠ ولكن « اجوستينو » لم يشاطرهم مرحهم ، بل كان يترقب فرصة سانحة ليثبت براءته ويمحو عن نفسه تلك الوصمة الظالمة التى أكربته !وانتهز فرصةانهماك الاولاد فى نقاش عنيف، فقفز الى جوار الزنجى ـ «هومز» ـ الذى كان يجلس بمعزل ، ولوى ذراعه فى قسوة وسأله : « ما الذى ذهبت فأشعته عنى ؟ »

وكان من سوء الطالع انه اختار تلك اللحظة ، ولكنها كانت أول فرصة سنحت له ليقترب من الزنجى الذى كان حريصا على أن يظل بعيدا عنه حين كانا على الشاطىء ٠٠ وأجاب « هومز » دون أن ينظر اليه : «انى قد قلت الحق»
ـ وماهو هذا الحق ؟

ووجف اذ أجابه الزنجى : « لا خير فى أن تلوى ذراعى بهذا الشكل ٠٠ أنا لم أقل غير الصدق ٠ لكنك اذا ظللت توغر « سارو » ضدى ، فسأفضى الى أمك بكل شىء ٠٠ لذلك يحسن بك أن تكون على حذر يابيزا » !

فصاح « اجوستينو » وكأنه رأى هوة عميقة ، تنفغر تحت قدميه : « ماذا ؟ ٠٠ ماذا تعنى ؟٠٠ أمعتوه أنت ؟٠٠ انا ٠٠ أنا ٠٠ » ، وتلعثم ، وعجز عن أن يقرن بالكلام تلك الصورة التى رسمها خياله فجأة ٠ على أنه لم يجد فرصة للمضى ، فقد تصاعدت صيحات السخرية من جنبات القارب ٠ وقال « برتو » ضاحكا : « انظروا اليهما معا ٠٠ تأملوهما !٠٠ ما أتعس حظنا اذ لم نحضر آلة تصوير لنلتقط صورتهما معا » !

واستدار « اجوستينو » وقد تضرج وجهه ، فرآهم جميعا يضحكون ٠٠ حتى « سارو » بدت تحت شاربيه ابتسامة ، وهو يدخن سيجاره ، نصف مغمض العينين ٠٠ ونأى « اجوستينو » عن الزنجى ـ وكأنه يبتعد عن أفعى !ـ وجلس محتضنا ركبتيه بذراعيه ، مرسلا بصره الى البحر ، وقد اغرورقت عيناه!

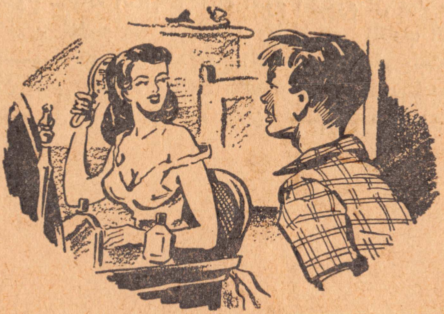
★ ★ ★

◆ وكانت الشمس عند الأفق آخذة فى المغيب ، تحيط بها سحب نارية ، على حافة بحر بنفسجى ، مطلقة أسهما من أشعة بللورية مدببة الأطراف • وارتفعت الريح ، فتباطأ القارب ، وقد مال على أحد جانبيه تحت ثقل حمولته من الركاب • وكانت مقدمته تشق البحر ، وكأنها موجهة نحو أشباح الجزر المعتمة، البعيدة ، التى كانت تلوح خلال الغسق كأنها جبال تحف بهضبة نائية !•• وأمسك « سارو » البطيخة التى سرقها الأولاد بين ركبتيه ، فشقها بسكينة ، وقطعها ، ثم راح يوزع اجزاءها على الاولاد بروح ابوية ، فانقضوا عليها فى نهم ، ينهشون اللحم ويلفظون البذور •• ثم أخذت القشور التى جردوها من لحمها تطير الى البحر واحدة اثر أخرى ••

وحان ـ بعد البطيخة ـ دور زجاجة النبيذ التى أخرجها « سارو » فى هدوء ، فدارت على الموجودين فى القارب • واضطر « اجوستينو » بدوره الى أن يتناول منها جرعة ـ وكان النبيذ دافئا ، قويا ، فصعد توا الى رأسه ! ـ حتى اذا عادت الزجاجة فارغة الى مكانها ، أخذ « تورتيما » يغنى أغنية بذيئة ، فانضموا اليه جميعا فى وقاحته • وكانوا بين كل أغنية وأخـرى يحملون « اجوستينو » على أن يغنى هو الآخر ، اذ لاحظوا جميعا ماكان عليه من كآبة •• لكنهم بدلا من أن يخففوا عنه ، راحوا يغيظونه وهم يحملونه على الغناء ! وكان هو يحس فى أعماقه هما ثقيـلا ، لم يزده البحر بنسماته ، والشمس الغاربة بلهبها الجميل ، سوى مرارة وقسوة !•• وبدا له ان من الظلم البشع أن يجرى قارب كقاربهم ، على بحر مثل ذلك البحر، وتحت سماء كتلك السماء ، محملا بالشر الخبيث ، والقسوة ، والزيف ، والفساد !•• لقد كان القارب المكتظ بالأولاد ـ وهم يتمازحون فى قحة كالقرود الماجنة ، وقد جلس بينهم « سارو » السمين ، مغتبطا ـ يبدو صورة بشعة ، كئيبة ، وسط هذا الجمال كله !•• حتى لقد كان الفتى يتمنى فى بعض الاويقات لو يغرق القارب ، بل كان يؤثر أن يموت هو الآخر ، حتى لا تصيبه عدوى هذا الدنس وأوشابه !•• آلا ما أطول المدة التى خال انها انقضت منذ الصباح ، حين قدر له أن يرى للمرة الاولى تلك المظلة الحمراء على (بلاج فيزبوتشى) ؟! •• لكأنما كان الصباح يمت الى عصر فات وانقضى !

وكان القارب كلما ارتفع على موجة عالية ، صرخ الغلمان ، فتسرى فى بدنه قشعريرة •• وكلما تحدث اليه الزنجى فى لهجته المنفرة ، وفى صغار العبيد وريائهم ، حاول أن لا يصغى اليه ، وتزحزح ممعنا فى البعد عنه ! كان يحس

- فى غير وضوح - بأنه انتقل فى ذلك اليوم المشئوم الى عهد حافل بالصعاب والتعاسات ، لم ير لنفسه منه مهربا !٠٠ وما أن مس القارب الشاطىء ، حتى هرع « اجوستينو » منه دون أن يودع أحدا ٠٠ لكنه لم يلبث أن خفف من سرعته قبل أن يمضى بعيدا ، والتفت خلفه فرأى الاولاد يساعدون « سارو » على جذب القارب الى الشـــاطىء ٠٠ وكان الظلام قد هبط رويدا رويدا على الفضاء ٠



الفصل الرابع

• **كان** ذلك اليوم بداية عهد معتم ، مضطرب ، بالنسبة لأجوستينو • ففى ذلك اليوم فتحت عيناه قسرا ، فاذا الذى تعلمه أكثر مما يتسع له ذهنه •• كان عبئا فوق مايستطيع أن يحمل ! •• ولم تكن طرافة الأشياء التى تعلمها ، وجدتها ، هى التى أضنته وسممته ، وانما كان الذى أضناه وسممه : نوعها ! •• كانت أفظع وأبشع من أن يهضمها ويستوعبها •• فلقد خطر له — على سبيل المثال — أن علاقاته بأمه لن تلبث — بعد الامور التى تكشفت له فى ذلك اليوم — أن تصفو وتتضح، وان عدم الارتياح ، والامتعاض ، بل الاشمئزاز ، وغير ذلك من المشاعر التى أيقظها حنانها فى نفسه ، لن تلبث — بعد الشرح الذى ازجاه له « سارو » — أن تتلاشى وتهدأ ، وتستحيل بسحر ساحر الى ادراك مستكين ••

بيد أن الامر لم يتم على هذا النحو ، اذ بقى عدم الارتياح ، والامتعاض ، والاشمئزاز ، مسيطرة على نفسه •• غير ان هذه الأحاسيس كلها •• كانت فى البداية منبعثة عن الصدمة المحيرة التى أصابت حبه البنوى نتيجة لادراكه المبهم لأنوثة

أمه •• فاذا بهذه المشاعر تصبح ـ بعد ذلك الصباح الذى قضاه فى خيمة « سارو » ـ منبعثة عن شعور مرير من الفضول الآثم ، لا قبل له باحتماله ، من فرط ماكان يسيطر عليه من احترام تقليدى لأمه !•• وبعد أن حاول فى البداية أن يتحلل من تلك العاطفة ـ دون أن يفطن ـ لائذا بنوع من الكراهية الظالمة ، أصبح الآن يرى من واجبه أن يفصل المعلومات التى اكتسبها أخيرا ، عن الشعور برابطة الدم التى تربطه الى شخص لم يعد يود أن يعتبره أكثر من •• امرأة !

أجل ، أصبح يحس أنه لو استطاع أن لايرى فى أمه أكثر مما كان يرى « سارو » والاولاد : مجرد امرأة حسناء ! •• فان كل شقوته لن تلبث اذ ذاك أن تتبدد •• ومن ثم أخذ يسعى ، بكل ماأوتى من جهد ، وراء المناسبات التي تثبته على عقيدته هذه • غير أن النتيجة الوحيدة لسعيه تمثلت فى أن توقيره وحبه السابقين تحولا الى قسوة وحساسية مرهفة !

وفيما كانت هذه « المعركة » تدور فى نفسه ، كانت أمه ـ فى البيت ـ لا تخفى عنه من نفسها أكثر مما اعتادت أن تستر من قبل ، ولذلك لم تحس بأى تغير فى مسلكه نحوها ! •• لم تكن ، وهى أمه ، لتشعر باستحياء منه • أما هو ، فصار يراها مثيرة للاشتهاء !•• كان يسمعها تناديه ، فى بعض الأحيان ، فيذهب الى غرفتها ليجدها أمام مائدة الزينة ، فى قميص شفاف يكشف عن نصف ثدييها •• أو ربما استيقظ من نومه فرآها منحنية عليه تطبع قبلة الصباح على جبينه ، وقد انفرج شقا ثوب المخدع فسمحا له بأن يرى بجلاء شكل جسمها خلال قميص النوم الشفاف ، المتغضن •• ولقد تروح وتغدو أمامه ـ وكأنه غير موجود ـ ترتدى جوربيها أو تخلعهما •• أو تلبس ثيابها وتتعطر •• أو تتخذ زينتها •• وما الى ذلك من أعمال كان « اجوستينو » ـ من قبل ـ يراها

طبيعية ، فأصبحت تبدو له الآن مظاهر أو علامات واضحة لحقيقة أكثر شمولا وأخطر شأنا !٠٠ ومن ثم أصبح ذهنه موزعا بين الفضول والألم ٠ وظل يقول لنفسه متكلفا استخفاف الخبير العارف : « انها ليست سوى امرأة ! » ٠٠ بيد انه كان لايلبث في اللحظة التالية أن يشعر بالعجز عن احتمال ماكانت تبديه ، كأم ، من عدم الكلفة والتحفظ ٠٠ أو ما كان يجد نفسه مسوقا اليه من تأمل ومراقبة لحركاتها ، فيود لو يصرخ فيها : « استرى جسمك ٠٠ اخرجى ولا تدعينى أراك ثانية ، فاننى لم أعد كما كنت من قبل ! »

★ ★ ★

◆ **على** أن أمله فى أن لا يعتبر أمه أكثر من امرأة ، سرعان ما تصدع ٠٠ اذ لم يلبث أن تبين انها وان صارت بالنسبة اليه امرأة ، الا أنها ظلت فى نظره ـ رغم ذلك ـ أمه !٠٠ وتبين أن الشعور القاسى بالعار ، الذى انبعث فى البداية عن مشاعره الجديدة ، لن يفارقه بعد اليوم ! ٠٠ تبين أنها ستظل دائما ـ بالنسبة له ـ المرأة التى أحبها ذلك الحب المطلق الطاهر ٠٠ ستظل دوما تمزج بحركاتها الأنثوية ، مظاهر الحنان الخالص التى لم يكن يعرف طيلة عمره سواها ٠٠ أبدا لن يستطيع أن يفرق بين رأيه الجديد فيها ، وبين الذكريات الجريحة الخاصة بما كان لها من وقار وتبجيل فى نفسه !

٠٠ لم يداخله الشك لحظة فى أن علاقتها بالشاب كانت بالفعل كما صورها الأولاد فى خيمة « سارو » !٠٠ وأخذ يعجب فى نفسه من التطور الذى أصابه : فهو فى البداية لم يشعر بغير الغيرة على أمه ، والنفور من الشاب ! ـ وكان الشعوران على السواء ، مستخفيين ، وغير واضحى المعالم ـ **بيد انه ، فى جهاده ليحدد مشاعره ويهدىء من نفسه ، أصبح يرجو لو أنه أحس بالعطف على الشاب ، وبعدم الاكتراث لأمه !**

٠٠ لكن ذلك العطف بدا له نوعا من التواطؤ ، كما بدا له عدم الاكتراث نوعا من التهور والطيش !

★ ★ ★

◆ **وأصبح** لا يخرج معهما للنزهة فى القارب الا نادرا ، اذ غدا يحرص عادة على أن يتفادى كل فرصـــة لأن يدعواه لصحبتهما ٠ على أنه كان كلما ذهب معهما ، يدرس فى انتباه حركات الشاب وكلماته ، كأنما يود لو أنه تخطى حدود آداب المجتمع ٠٠ وكان يرقب أمه وكأنه يأمل أن يبدر عنها مايؤكد وساوسه ! وكانت هذه المشاعر ـ فى الوقت ذاته ـ تنطوى على ارهاق لا يحتمله ، لأنها كانت على العكس تماما مما كان يحب أن يشعر به ٠٠ ولأنه كان يود أن يشعر مرة أخرى بالرثاء الذى أثاره مسلك أمه النزق ذات يوم فى نفسه ٠٠ فقد كان الرثاء أقرب الى العواطف الانسانية من هذا التربص وهذه المراقبة ، المجردين من الاشفاق !

★ ★ ★

◆ **وأسلمته** هذه الأيام الحافلة بالصراع النفسى ، الى شعور مضطرب بالدنس ٠٠ أحس انه لم يستبدل بطهره وسذاجته القديمين ماكان يرجوه من طمأنينة الرجولة ، وانما استبدل بهما حالة كئيبة ، قلقة ، لم يجد فيها من الميزات ما يعوضه عما فيها من عناء ، بل كان يقابل فيها معميات جديدة تحيره ، الى جانب الطلاسم القديمة !٠٠ فما جدوى ان تتضح له الأمور ، اذا كان هذا الوضوح لا يجلب عليه سوى ظلال أشد قتامة من سابقتها ؟٠٠ وكان يسائل نفسه أحيانا : « **أكان من يكبرونه سنا من الصبية يبقون على حبهم لامهاتهم ، اذا ماعلموا عنهن ما علمه عن أمه ؟ وكيف ؟** » **٠٠ وخرج من تساؤله الى أن هذا العلم ولا بد كفيل بأن يقضى فورا على عاطفة البنوة فى نفوسهم!**

٠٠ بيد أن هذا لم يحدث عنده ، وانما قام العلم الى جانب البنوة معا فى ارتباط بغيض !

وكما يحدث فى بعض الأحيـــان ، أصبح مسرح هـــذه المكتشفات ، وذلك الصراع ـ وهو بيته ـ سجنا لا يطاق ! ففى خارج البيت ، كان البحر ، والشمس ، وجموع السابحين ، ومواكب النســـاء ، تشغل كلهـــا باله ، وتفل من ارهاف أحاسيســـه ٠ أما بين جـــدران داره الأربعة ، ومع أمه ـ وحدهما ـ فقد كان يشعر بأنه معرض لكل لون من ألوان الوساوس ، وبأنه موزع بين شتى أنواع التناقض !٠٠ كانت أمه على (البلاج) امرأة كبقية النساء الكثيرات اللاتى يستمتعن بحمامات الشمس ٠٠ أما فى البيت ، فكانت تبدو قاهرة ، فذة ! وكما يبدو الممثلون على مسرح صغير ، أكبر من أحجامهم الطبيعية ، كانت كل بادرة أو كلمة من أمه تبدو واضحة بشكل غير عادى ٠٠ ولقد كانت ثمة روابط عاطفية وخيالية حية تربط « اجوستينو » الى كل الأشياء المألوفة فى البيت ٠٠ كان منذ حداثته يرى لكل ردهة ، ولـــكل ركن أو حجرة ، شخصية غريبة لا يستطيع تحديدها تماما ٠٠ كانت جميعها أماكن تستطيع أن توفق فيها الى أغرب المكتشفات ، وأن تعيش فى أكثر المغامرات اغراقا فى الخيال ! أما الآن ، وبعد أن التقى بأولئك الصبية فى الخيمة الحمراء ، فقد أصبحت تلك المكتشفات والمغامرات من نوع جديد ، ومن ثم لم يعد يدرى هل يزداد استغراقا فيها ، أو فزعا منها ؟! ٠٠ لقد اعتاد فيما مضى أن يتصور فى قطع الأثاث وفى الجدران مكامن ، وأشـــباحا ، وأرواحا ، وأصواتا ٠٠ أما الآن ، فان خياله ـ الذى ازداد نشاطا عما كان عليه فى طفولته الغريرة ـ اتجه الى الحقائق الجديدة التى خيل اليه أن الجدران ، وقطع الأثاث ، بل جو البيت كله ، زاخرا بها ٠ وبدلا من الانفعالات البريئة التى

كانت تفثأها قبلة أمه على خده ـ قبيل النوم ـ والنعاس الخالى من الأحلام ٠٠ بات الغلام يتعذب فى لهب فضولى معيب كان يزداد جبروتا فى الليل ، وكأنه كان يجد فى الظلام وقودا لناره المدنسة !

كان يلوح لأجستينو انه يلمح فى كل مكان من البيت آثار وجود امرأة ٠٠ المرأة الوحيدة التى عرفها وألفها ٠٠ وكانت هذه المرأة هى أمه ! كان يحس وهو معها ـ وبطريقة ما ـ كما لو كان قد غدا حارسا يرقبها ٠٠ فاذا اقترب من بابها أحس بأنه يتجسس عليها ٠٠ واذا لمس ثيابها ، أحس كأنه يلمسها هى ، لأن الثياب تضم جسدها ٠٠ وكان يحلم ليلا وهو مفتوح العينين ، وتراوده اضغاث تعذبه ٠٠ فيتصور نفسه أحيانا وقد ارتد طفلا ، يخاف كل صوت ، ويخشى كل خيال ، فيقفز من سريره يعدو ، كيما يلوذ بحمى فراش أمه !٠٠ ولكن ، ما أن تمس قدماه الأرض ، حتى يتبين ـ رغم خدر النعاس الجاثم على حواسه ، ورغم تشتت خواطره ـ ان خوفه لم يكن سوى قناع يستر ، فى احكام ، فضوله ٠٠ وانه لو ارتمى بين أحضان أمه فلن تلبث أوهامه الليلية أن تكشف للتو عن غرضها الحقيقى !

وكان يستيقظ أحيانا على حين غرة ، فيسائل نفسه عما اذا كان من المحتمل أن يكون الشاب صاحب القارب ـ فى تلك اللحظة بالذات ـ فى غرفة أمه التى لايفصلها عن غرفته سوى جدار رقيق ! ٠٠ وكان يخال أنه يسمع أصواتا تؤكد ريبه ، وأخرى تنقضها ، فيتقلب فى فراشه برهة متململا، ثم لا يلبث في النهاية أن يجد نفسه فى الردهة ـ دون أن يدرك كيف بلغها ـ وقد وقف فى ثياب النوم عند باب مخدع أمه ـ يتسمع ويتجسس ! ٠٠ وذات مرة ، لم يقو على مقاومة الاغراء الذى كان يوسوس اليه بدخول الغرفة دون استئذان ،

فاقتحمها ووقف فى وسطها جامدا ، تحت ضوء القمر الباهت المنساب خلال النافذة المفتوحة ، وقد علقت عيناه بالسرير ، حيث استطاع أن يتبين شعر أمه الأسود منتشرا على الوسادة، وأطرافها المديدة ، الملفوفة ، الرقيقة ، مستكينة على الفراش ٠٠

وسألته أمه اذ استيقظت : « أهذا أنت يا اجوستينو ؟» ٠٠ فاستدار وهرع الى غرفته دون أن يتفوه بكلمة ما !

* * *

◆ **وكان** عزوفه عن البقاء وحيدا مع أمه يدفعه الى الاكثار من التردد على (بلاج فيزبوتشى) ٠ لكنه كان يجد هناك أيضا ــ فى ارتقابه ــ ألوانا من الضنى جعلت المكان بغيضا الى نفسه ، كالبيت تماما !٠٠ ذلك ان مسلك الأولاد نحوه، مذ خرج وحيدا مع « سارو » فى القارب ، لم يتغير البتة ٠٠ بل انه اتخذ فى الواقع شكلا نهائيا واضح المعالم ، وكأنه قام على يقين ثابت !٠٠ فقد كان من المستحيل عليهم اقصاء هذه الفكرة عن عقولهم مادام الغلام قد قبل تلك الدعوة وذلك الايثار المشئومين من « سارو » ! **ومن ثم ، فالى جانب الغيرة والكراهية اللذين استشعرهما الغلمان نحو اجوستينو منذ البداية ، لثرائه ، قام سبب آخر حفزهم على ازدرائه : ذلك هو فجوره الذى توهموه !٠٠ وبدا لعقولهم الموبوءة ان كلا من السببين يبرر الآخر ، وان كلا منهما ينبعث عن الآخر ! بل لاح من معاملتهم المهينة ، القاسية ، انهم يعتقدون انه مادام الصبى غنيا ، فمن الطبيعى أن يكون خليعا ، فاسدا !٠٠** ولم يحتج « اجوستينو » الى طويل وقت كى يتبين العلاقة الخبيثة بين هذين الاتهامين ، فتولاه شعور غامض بأنهم كانوا يثأرون منه لأنه مختلف عنهم ، بل أرقى منهم ! ٠٠ فقد كان الفـــارق الاجتماعى بينه وبينهم ، وارتفاع مستواه عنهم ، يتجليان فى

ثيابه ، وفى حديثه عن الترف الذى يتوفر فى داره ، وفى ميوله وتأدبه فى الحديث . ولقد حفزه اختلافه الخلقى وسموه عنهم ، على أن ينكر ما اتهم به من انه على أية علاقة بسارو ، فضلا عما كان يبدو عليه من تقزز من أخلاق الصبية وعاداتهم . ومن ثم فقد انتهى ، بدافع المذلة التى ألفى نفسه فيها ، ودون ما اختيار حر من تلقاء نفسه ، الى أن يقرر أن يصبح كما بدا له أنهم يريدونه أن يكون : أن يصبح .. مثلهم !

وهكذا شرع يرتدى أقدم ثيابه وأقذرها ، الأمر الذى أثار دهشة بالغة فى نفس أمه ـ وكانت قد بدأت تلاحظ انه لم يعد يعتز بمظهره ! ـ كما صار يحرص على أن يتجنب ذكر مايحيطه من رفاهية فى بيته .. وراض نفسه على أن يشعر بمتعة ومسرة من وراء أساليب وعادات كانت حتى ذاك اليوم تثير اشمئزازه ! **بل انه توسل يوما بكل مالديه من جهد ليهيىء أعصابه للاقدام على ما هو أنكى من ذلك كله : فبينما كان الصبية يسلقونه يومئذ بنكاتهم المعتادة ، ساخرين ، متغامزين عن خروجه فى القارب وحيدا مع « سارو » ، اندفع هو قائلا انه قد سئم الانكار ، وان ما اتهموه به قد حدث فعلا !.. وانه لا يحفل بما اذا كانوا يعرفون أو لايعرفون ! .. وبهت «سارو» لهذا الاقرار الكاذب ، ولكنه لم ينكره ! ـ ولعله خشى أن يفضح فشله !** ـ واشتد الذهول فى البداية بالأولاد ، اذ سمعوا « اجوستينو » يعترف بحقيقة التخرصات التى تراءى لهم من قبل ان مجرد الاشارة اليها كان يعذبه ـ فقد كان شديد الخجل والحياء ، وما خطر لهم قط أن له مثل هذه الجرأة ! ـ بيد انهم مالبثوا أن انهالوا عليه بالاسئلة عن حقيقة ما حدث ، واذ ذاك فقد ما فرض على نفسه من اصطناع ، فاحمر وجهه ، ورفض أن ينبس بكلمة ما ! وكان من الطبيعى أن يؤول الأولادصمته وفق هواهم ، فعزوه الى الشعور بالعار ، وليس الى جهله

وعجزه عن الاختلاق !٠٠ ومن ثم ازدادت سخريتهم ولمزاتهم قسوة عن ذى قبل ٠٠!

★ ★ ★

◆ على ان الغلام كان قد تغير بالفعل ، فانمجرد انفاقه وقتا طويلا معالاولاد فى كل يوم ، لم يلبث أن انتهى به - دون أن يفطن ، بل دون أن يحاول - الى أن يصبح شديد الشبه بهم ، ففقد ذوقه وميوله القديمة ، دون أن يكتسب ميولا جديدة فى الواقع ٠ وكم من مرة استبد به الاشمئزاز من (بلاجفيزبوتشى) والثورة عليه ، فكان ينضم الى صبية (بلاج سبيرانزا) ، يشاركهم ألعابهم البريئة ، ويتقرب الى من اتخذهم أندادا فى أوائل الصيف ٠ ولكن ، لشد ماكان هؤلاء الصبية ذوو النشأة الحسنة يبعثون فى نفسه من ملل وسأم ٠٠ وما كان أضيقه بهدوئهم وتورعهم أمام أهلهم ومربياتهم ٠٠ وما أتفه ماأصبحت تبدو له أحاديثهم عن المدرسة ، وعن مجموعات طوابع البريد ، وعن الكتب والمغامرات الساذجة ، وما اليها ٠٠ ذلك لأن العصبة الاخرى ، وأحاديث صبيتها عن النساء ، وعن حملات السرقة من البساتين ، بل وأعمالهم المنطوية على البطش والعنف ، والتى كان هو نفسه من ضحاياها ، قد بدلته تبديلا لم يعد يستطيب معه صحبة أصدقائه القدامى !

وما لبث أن حدث ما جعله يشعر بهذا التطور ويزداد انسياقا له ٠ ففى ذات صباح ، وصل متأخرا الى (بلاج فيزبوتشى) ، فلم يجد أحدا ، اذ كان « سارو » قد رحل لأمر خاص به ، ولم يظهر فى المكان احد من الصبية ٠ ومن ثم سار الغلام فى اكتئاب الى الشاطىء ، واتخذ لنفسه مجلسا على أحد القوارب ٠ وفيما كان يرسل بصره على طول الساحل ، أملا فى أن يرى «سارو» مقبلا ، وقع بصره فجأة على رجل ومعه صبى يصغره هو بنحو عامين ٠ وكان الرجل قلة فى الجسم ، ذا ساقين سمينتين ، قصيرتين - قامتا تحت بطنمتكرش- ووجه مستدير ، وأنف مدببتعلوه (نظارة) بدون اطار ، وكانلهمظهرالموظف الحكومى ، أو العالم ٠٠ اما الصبى فكان نحيلا شاحبا ، يرتدى ثيابا متهدلة تكبره حجما ، وقد احتضن كرة جلدية كبيرة كان مظهرها ينم عن الجدة

وسار الرجل الى « اجوستينو » ممسكا ابنه بيده ، وتأمله برهة فى تردد ، ثم سأله أخيرا عما اذا كان من الميسور أن يجذف بهما فى البحر للنزهة ، فأجاب « اجوستينو » دون تردد : « بالطبع ! » ٠٠ واذ ذاك حدق فيه الرجل من فوق حافتى عدستيه ، فى ارتياب ، ثم سأله عما يطلب كأجر للنزهة مدة ساعة فى قاربه ٠ وكان « اجوستينو » قد ألم بفئات الاجر التى كان يتقاضاها الغلمان ، فأنبأه ٠ وعندئذ فقط فطن الى أن الرجل ظنه ، خطأ ، ابن حارس

الشاطىء او احد الصبية التابعين له ٠٠ فأحس اجوستينو بشيء من الغبطة لذلك ، في حين قال الرجل : « حسن جدا ٠٠ سنركب معك »

ولم ينتظر « اجوستينو » أن يكرر الرجل قوله ، بل بادر فتناول كتلة خشنة من خشب الصنوبر تستعمل كرافعة ينزلق عليها القارب الى الماء ، ودسها تحت مقدم القارب ، ثم امسك حافتي عوامتيه بكلتا يديه ، وقد منحته المناسبة اعتزازا بنفسه ضاعف من قوته ، فدفع القارب الى الماء ، ثم ساعد الصبي واباه على أن ينتقلا اليه ، وقفز خلفهما ، فأمسك بالمجذافين وشرع يجذف برهة دون ان يتكلم ٠ وكان البحر في تلك الساعة المبكرة خاليا تماما ٠ وأخذ الراكب الصبي يضم الكرة الى صدره وهو لايحول عينيه الباهتتي اللون عن«اجوستينو»٠ اما ابوه فقد جلس مستكينا ، وقد فرق بين ركبتيه ليفسح مكانا لكرشه ، وأخذ يدير عنقه السمين متلفتا حوله ، ومظهره ينم عن استمتاع بالنزهة ٠٠ واخيرا ، سأل « اجوستينو » عمن يكون ، وهل هو ابن حارس الشاطىء ، أو انه أجير لديه ٠٠ ثم تساءل : « وكم عمرك ؟ »

فأجاب اجوستينو : « ثلاث عشرة سنة »

فالتفت الرجل الى ابنه قائلا : « انظر ، ان هذا الصبي يكاد يكون في مثل سنك ، ومع ذلك فهو يشتغل ليكسب » ! ٠٠ ثم قال لأجوستينو : « وهل تذهب الى المدرسة ؟ » ٠٠ فأجاب الغـــلام وهو يصطنع لهجة النفاق التي سمع الأولاد يتخذونها حين يسألون مثل هذا السؤال : « كان بودي ٠٠ ولكن ، كيف يتسنى لي ذلك ياسيدي ؟٠٠ اننا مضطرون للعمل كي نعيش ياسيدي » !

فقال الأب لابنه : « هل سمعت ؟ ٠٠ ان هذا الصبي لا يستطيع الذهاب الى المدرســة لانه مضطر للعمل ، فهل لك بعد هذا وجه كي تشكو من دروسك وتتذمر ؟ » ٠٠ فقال « اجوستينو » وهو يجذف بقوة : « ان أسرتنا كثيرة العيال ، وكلنا نشتغل » ٠٠ فسأله الرجل : « وكم تكسب في اليوم ؟ »

أجاب « اجوستينو » : « هذا يتوقف على الظروف ٠ فعندما يكثر الوافدون، يصل كسبي الى نحو عشرين أو ثلاثين ليرة » ٠٠ فأردف الرجل : « وطبعا تسلمها جميعا لأبيك » ٠٠ ورد « اجوستينو » دون ماتردد : « بالطبع ٠٠ فيما عدا ما أناله من عطاء كبقشيش ! »

ولم يشأ الرجل في هذه المرة ان يضرب به المثل لابنه ، بل هز راسه في تقدير ٠ أما ابنه ، فلم يقل شيئا ، بل ضم الكرة الى صدره أكثر من ذي قبل ، وظل مثبتا عينيه الشاحبتين ، الدامعتين ، على « اجوستينو » ٠٠ وعلى حين غرة، سأل الرجل اجوستينو : « هل تحب أن تكون لك كرة من جلد كهذه يافتى ؟» وكانت لأجوستينو كرتان جميلتان ، أهملهما في غرفته مع غيرهما من اللعب

منذ أمد طويل ‥ لكنه مع ذلك قال : « اننى أتمنى بالطبع ، ولكن أنى لى بواحدة ؟ ‥ اننا مضطرون لان نبتاع الحاجيات الضرورية أولا » !

فالتفت الرجل الى ابنه قائلا : « اسمع يابيتر ‥ الا اعط كرتك لهذا الولد الذى لا يملك كرة ما » ‥ ولعله صدر فى قوله هذا عن شىء من الدعابة ، لكن الولد تطلع الى أبيه ، ثم الى « اجوستينو » ، وما لبث أن ضم كرته فى حرص الشحيح، دون ان ينبس ببنت‌شفة . فسأله أبوه فى رفق : «أو لا تريد ؟ » فقال الصبى : « انها كرتى » ‥ فعاد الأب يلح عليه : « أجل ، انها كرتك . لكنك لو شئت نزلت عنها ، فهذا الولد المسكين لم يتح له مثلها طيلة حياته ‥ أفلا تحب بعد هذا ان تمنحه اياها ؟ »

فأجاب ابنه فى اصرار : « لا » ‥ وعند ذلك، تدخل «اجوستينو» قائلا فى ابتسامة المتسامح القانع : « لابأس ‥ اننى فى الحق لا أريدها ، فما أرى لدى وقتا لألعب بها ‥ بخلافه هو »

وابتسم الأب لهذه الكلمات ، وقد سره ان وجد مثل هذا الدرس النافع لابنه ، ثم قال وهو يمسح رأس ولده : « انه خير منك ‥ فهو على فقره لا يريد ان يأخذ كرتك ، وانما هو يتركها لك ‥ على اننى أرجو ان تذكر ـ كلما شئت ان تتذمر وتشكو ـ ان فى العالم أولادا كثيرين على شاكلة هذا الصبى، يضطرون الى العمل ، ولا يحظون قط بكرات أو ألعاب يسعدون بها ! »

فرد الصبى فى عناد : « انها كرتى » ‥ وتنهد الرجل وهو شارد الذهن ، وقال : « أجل ، انها كرتك » ‥ ثم تأمل ساعته ، وقال آمرا : « لقد حان وقت العودة ، فارجع بنا يا غلام »

ووجه « اجوستينو » مقدم القارب نحو الشاطىء دون ان يفوه بكلمة ‥ حتى اذا أشرفوا على البر ، لمح « ســـارو » يقف فى الماء يرقب حركاته فى انتباه ، فخشى ان يفضحه ! بيد ان « سارو » لم يقل شيئا ـ ولعله أدرك ما حدث ، أو لعله لم يكن يحفل ـ واكتفى بأن أعان « اجوستينو » على جذب القارب الى البر

وقال الرجل وهو يعطى « اجوستينو » الأجر الذى اتفقا عليه ، ومبلغا فوقه : « هاك ! » ‥ فتناول اجوستينو النقود وأعطاها الى « ســارو » ، قائلا فى لهجة الراضى عن نفسه : « على اننى سأحتفظ بالعطاء » ‥ فلم يقل « سارو » شيئا ، بل دس النقود فى الحزام المحيط ببطنه وهو لا يكاد يبتسم ، وسار متمهلا على الشاطىء نحو « كابينه » ‥

* * *

◆ ومنح هذا الحادث البسيط « اجوستينو » شعورا واضحا . قويا ،

بأنه لم يعد يمت الى ذلك العالم الذى يعيش فيه الصبية الذين نشأوا نشأته .. فلقد ألف العيش مع الفقراء حتى غدا يضيق برياء سواهم من الناس .. بل لقد أحس فى الوقت ذاته بأسف لانه لم يكن بالفعل مثل غلمان العصبة ــ فانه ظل شديد الحساسية ، على خلافهم ! ــ وكان يفكر فى نفسه أحيانا ، فيرى انه لو كان مثلهم فعلا ، لما تألم كثيرا لنكاتهم المقذعة ، الوقحة ، ومن ثم بدا له انه فقد وضعه الأول ، دون ان يوفق الى اكتساب وضع جديد !



الفصل الخامس

◆ وذات يوم ، حوالى نهاية الصيف ، ذهب « اجوستينو » مع الغلمان الى غابات الصنوبر ليصطادوا طيورا ، ويجمعوا نبات « عش الغراب » ـ وكانت هذه « الحملات » امتع مغامراتهم فى نظر « اجوستينو » ـ فدخلوا الغابة ، وساروا أميالا على أرضها الرطبة ، فى دروب طبيعية ، بين «أعمدة» حمراء من جذوع الشجر ، وهم يتطلعون الى السماء ، ليتبينوا ما اذا كان ثمة شىء يتحرك بين أغصان الصنوبر ‥ فاذا لمحوا طائرا ، عمد « برتو » أو « تورتيما » أو « ساندرو » ـ وهم أمهر الجميع ـ الى شد الخيط المطاط فى مقلاعه (نبلته) وأطلق حجرا قويا فى الاتجاه الذى يظن ان الطائر يكمن فيه !‥ وفى بعض الأحيان كان يهوى بالفعل عصفور كسير الجناح ، ويظل يترنح وهو يرسل أنينا يثير الاشفاق ، حتى يمسك به أحد الغلمان فيلوى عنقه بين أصابعه !

على ان الصيد كثيرا ما كان ينتهى بغير ثمرة ، فكان الصبية يوغلون فى الغابة على غير هدى ، وقد طوحوا برؤوسهم الى خلف ، وعلقت عيونهم بنقطة بعيدة فوقهم ‥ ويمضون قدما حتى ينفذوا الى الأشجار الصغيرة ، والى أحراش متشابكة من النباتات الشوكية تنتشر فى التربة العارية ، الرطبة ، التى تكسوها الأوراق والثمار الساقطة الجافة ‥ وما ان يبلغوا منطقة الأشجار الحديثة النبت ، حتى يشرعوا فى البحث عن النباتات الفطرية ‥

وكان المطر قد ظل يهطل يوما أو يومين قبل ان يخرجوا الى الغابة فى ذلك اليوم ، فكانت أوراق الشجيرات لا تزال مخضلة بالماء ، والأرض

محتفظة برطوبتها ، وقد كستها أعشاب حديثة النمو ٠٠ وبين الحشائش الكثيفة ، كانت الفطريات الصفراء تتناثر ، والماء يتلألأ عليها ٠٠ منها ما كان منفردا رائع الشكل ، ومنها ما كان صغيرا ، وقد نما في مجموعات كبيرة ٠٠ واخذ الغلمان يمدون أيديهم خلال الأعشاب فيقتطفون الفطريات في رفق ، ممسكين رؤوسها بين اصبعين ، حريصين على ان يقطعوا سيقانها التي كان الوحل والطحالب تعلق بها ٠٠ ثم أخذوا ينظمونها - «يلضمونها» - كحبات العقد ، في أعواد من القش الجاف ٠٠ وكانوا في العادة يمضون على هذا المنوال ، من بقعة الى اخرى ، حتى يجمعوا عدة كيلو جرامات من الفطريات تكفي عشاء لـ « تورتيما » ، الذي كان - بوصفه اقواهم - يستأثر بما يجمعون !٠٠ وقد كان محصولهم في ذلك اليوم وفيرا ، اذ كانوا قد عثروا على دغل بكر لم ترتده قدم من قبل ، وقد نمت فيه الطحالب بوفرة في مستنقعاتها ٠٠ وهكذا ولت ساعات النهار وهم لم يجمعوا سوى نصف ما كان موجودا ، فلم يجدوا بدا من ان يتحولوا عائدين بخطى مثقلة وئيدة ، مصطحبين عددا كبيرا من الأعواد المحملة بالفطريات ، عدا طائرين أيضا او ثلاثة ٠٠

وكانوا في العادة يسلكون دربا يفضي مباشرة الى الشاطىء ، ولكنهم في ذلك المساء انساقوا مبتعدين عن ذلك الدرب ، يطاردون عصفورا مخادعا ظل يحوم بين الأغصان المنخفضة ، موحيا اليهم بأنه سهل المنال ٠٠ وهكذا انتهت بهم المطاردة الى ان ساروا بمحاذاة طول الغابة حتى بلغوا طرفها الاقصى الواقع خلف البلدة مباشرة ٠ وكان الظلام قد بدأ يرخي سدوله حين تجاوزوا شجيرات الصنوبر الأخيرة ، ووصلوا الى مساحة تتوسط ضاحية نائية ، وقد تناثرت فيها أكوام من الفضلات والعوسج والقش ، وتخللتها بضعة دروب غير واضحة ، كثيرة التعرج والتثني ٠٠ وكانت بعض الأشجار المضطربة النمو تقوم على مسافات حول الساحة ، ولم يكن ثمة أرصفة تحيط بها ، وانما كانت تحد جوانبها حدائق مغبرة ملحقة بالمنازل الصغيرة - « الفيلات » - القليلة التي تفصل بين الواحد والآخر منها ارض فضاء ، يضمها سياج مهدم ٠٠ وكان قيام الدور الصغيرة متباعدة حول الساحة ، ومنظر السماء المترامية الأطراف فوقها ، يزيدان من الشعور بالعزلة ، والقذارة التي كانت تطبع المكان بطابعها ٠٠

* * *

◆ واجتاز الأولاد الساحة من أحد أركانها الى الركن المقابل ، وهم يسيرون أزواجا ، كل اثنين معا ، وكأنهم في موكب ديني ٠٠ وفي نهاية

الصف سار « تورتيما » و « اجوستينو » ٠ وكان هذا يحمل عودين طويلين محملين بالطحالب ، بينما أمسك « تورتيما » فى يديه الكبيرتين عصفورين تدلى رأساهما المخضبان بالدم ٠٠ فلما بلغوا أقصى الساحة ، لكز «تورتيما» بمرفقه « اجوستينو » ، وأشار الى احدى « الفيلات » الصغيرة ، وقال فى ابتهاج : « هل ترى هذه ؟ ٠٠ أتدرى ما هى ؟ »

وأرسل « اجوستينو » بصره ٠٠ فاذا « الفيلا » لا تكاد تفترق عن مثيلاتها فى شىء ، سوى انها أكبر من الاخريات قليلا ، اذ كانت تتألف من ثلاثة طوابق ، وسقف محدودب من القرميد ٠ وكانت واجهتها معتمة ، مدخنة ، ذات نوافذ بيضاء مغلقة باحكام ، بينما كانت الأشجار الوارفة القائمة فى الحديقة تكاد تخفيها عن الأنظار ، ولم تبد الحديقة واسعة ، وكان السياج الحجرى المحيط بها مكسوا بالنباتات المتسلقة ٠٠ فاذا تطلع المرء خلال البوابة الخارجية رأى دربا قصيرا تحف بجانبيه الشجيرات القصيرة ، وبابا ذا مصراعين يعلوه قوس من البناء على طراز قديم ٠ وكف « اجوستينو » عن السير ، قائلا لزميله فى لهجة تنم عن تساؤل : « انها مهجورة ، لا أحد فيها » ٠٠ فضحك تورتيما وقال : « لا أحد !؟ » ٠٠ وبكلمات قلائل ، حدث « اجوستينو » عمن كان يعمر البيت ! ٠٠ وكان «اجوستينو» قد سمع الأولاد مرارا يتحدثون عن بيوت لا يعمرها سوى نسوة يحتجبن بداخلها طيلة النهار ، حتى اذا جن الليل تأهبن لاستقبال اى طارق ، فى مقابل أجر معلوم ! ٠٠ ولكن اجوستينو لم يكن قد رأى بيتا منها من قبل ، ومن ثم أيقظت كلمات « تورتيما » فى نفسه كل ما كان قد خالجه من عجب ودهشة وحيرة حين سمع الغلمان يتحدثون عن هذه الدور لأول مرة ٠٠ فأحس اليوم ـ كما فى المرة الاولى ـ بأنه لا يكاد يصدق ان هناك ، حقا ، مجتمعا يذهب فى كرمه الى درجة انه يتيح للجميع ، دون ايثار أو محاباة ، ذلك « الحب » الذى كان يلوح له عزيز المنال ، بعيد الوجود ! ٠٠ ومن ثم آخذ يرمق « الفيلا » الصغيرة بنظرات مستريبة ، وكأنه يتمنى لو وجد على جدرانها شيئا ينم عما يجرى فى داخلها من حياة عز عليه ان يصدق وجودها ! كان البيت يلوح عتيقا ، واضح الكآبة ـ اذا ما قورن بالصورة التى ارتسمت فى خيال اجوستينو لحجراته التى يشرق فى كل منها سناء امرأة عارية ! ـ فقال أخيرا وهو يتظاهر بعدم الاكتراث ، وان كانت دقات قلبه قد أخذت تزداد سرعة : « آه ٠٠ أجل ! »

فقال « تورتيما » : « ٠٠ ان هذا البيت أغلى ما فى البلدة أجرا ! » ٠٠ ومضى يسرد بعض البيانات عن المكان ، وعدد النسوة القاطنات فيه ، والناس الذين يرتادونه ، والوقت الذى يسمح لك بأن تقضيه فيه ٠ ولم ترق هذه

المعلومات لأجوستينو ، فقد حلت بواقعيتها محل بعض تفصيلات الصورة المضطربة التى رسمها خياله حين سمع عن تلك الأماكن « المحرمة » للمرة الاولى ! .. على انه أخذ يوجه لصاحبه كثيرا من الأسئلة - فى لهجة تظاهر فيها بفضول فاتر - اذ قفز الى ذهنه فجأة ، بعد الدهشة والاستياء اللذين داخلاه لأول وهلة ، خاطر لم يلبث ان استبد به .. وبسط له « تورتيما » - الذى بدا على دراية واسعة بالأمر - كل ما تاق اليه من بيانات .. وعبرا الساحة وهما مستغرقان فى الحديث ، حتى لحقا بالآخرين . واذ كان الظلام قد هبط تماما ، فان عقد الجماعة أخذ فى الانفراط ، فأسلم « اجوستينو » حمله من الفطريات الى « تورتيما » وانطلق الى داره ..

★ ★ ★

◆ كان الخاطر الذى راوده على اثر ذلك واضحا ، بسيطا - رغم ان منشاه كان معقدا ، غير جلى - فلقد قر رأيه على ان يذهب الى تلك « الفيلا » فى الليلة ذاتها ! ولم يكن الأمر مجرد رغبة مبهمة ، وانما كان قرارا حاسما ، بل ملحا ، اذ أحس ان هذه هى السبيل الوحيدة التى تتيح له الفرار من ذلك الاتهام المهين الذى سبب له كثيرا من العذاب طيلة الصيف . فلو انه استطاع ان يضاجع امرأة من أولئك النسوة ، لكان فى ذلك - كما خطر له - الدليل الحاسم على سخف الفرية التى ألصقها به الصبية .. بل ان ذلك كفيل - فى الوقت ذاته - بأن يوهن الخيط الرفيع الذى ما زال يربطه الى امه .. خيط الشعور الشهوانى الضال ، القلق ! .. ومع انه لم يكن يجرؤ على ان يعترف - ولو بينه وبين نفسه - بحقيقة هذا الشعور ، الا ان الهدف الأول لحياته فى الآونة الحاضرة بدا فى صورة الرغبة فى ان يشعر بأنه أصبح الى الأبد مستقلا ، فى غنى عن حب أمه ! .. سيما وانه كان قد صادف فى اليوم ذاته واقعة بسيطة - وان كانت حافلة بالمعانى - أقنعته بهذه الضرورة : تلك هى انه حتى ذلك الحين كان وامه ينامان فى غرفتين منفصلتين ، لكنهما فى ذلك المساء كانا يرتقبان صديقة لامه ستقضى معهما اسبوعا . ولما كان البيت صغيرا ، فقد رؤى ان تفرد غرفته هو للضيفة ، على ان يعد له سرير صغير - من أسرة المعسكرات - فى غرفة امه . ولقد شعر فى ذلك الصباح باشمئزاز وهو يرى السرير الصغير يقام الى جوار سرير أمه الذى لم يكن قد سوى بعد ، والذى تناثرت عليه ثياب نومها ..

ولم يزده النوم مع أمه فى غرفة واحدة سوى كراهية للمشاعر المختلطة المضطربة التى كانت تخالجه نحو أمه . وخطر له ان هذا التطور الجديد الذى يزيده قربا منها ، لا بد ان يكشف له من أمرها كل ما كان حتى

الآن مجرد شك غير واضح ٠٠ اذن فعليه ان يبحث عن علاج سريع ، وسريع جدا ، وان يقيم بينه وبين أمه طيف امرأة أخرى يحول اليهـا أفكاره ، ان لم يكن بصره أيضا ٠٠ ولن يكون هـذا الطيف الذى يقف ستارا بينه وبين عرى امه ، ويرد اليها مهابتها ، ويحجب انوثتها ، سوى احدى نساء « الفيلا » القائمة فى الساحة !٠٠ اما كيف يتاح له ان ينفذ الى ذاك البيت ، وكيف يختار المراة ويخلو اليها ، فكانت مسائل لم يعرها اى تفكير ٠٠ بل انه لو أراد لما استطاع ان يتصورها ! ٠٠ فعلى الرغم مما ازجاه اليه « تورتيما » من معلومات ، ظل البيت وأهله وكل ما يمت اليـه ، محوطا بجو كثيف من عدم الاحتمال ، وكأن المرء اذ يفكر فيه لا يفكر فى حقيقة ، وانما يفكر فى أغرب افتراض شاذ لن يلبث فى اللحظة الاخيرة ان يتكشف عن خيال زائف ! ٠٠ كان نجاح مشروعه يتوقف فى ذهنه على استنتاجات منطقية : اذا كان هناك بيت ، فهناك أيضا نساء ٠٠ وما دامت هناك نساء ، فهناك امكان لقاء احداهن ٠٠ غير انه لم يكن يوقن بجلاء بأن للبيت والنساء وجودا حقيقيا ، لا لانه كان يرتاب فى صدق « تورتيما » ، وانما لانه كان يفتقر تماما الى أشياء يقيس اليها ٠٠ فما كان بين كل ما فعل أو رأى من قبل ، شىء يشبه أقل الشبه ما كان يوشك ان يقدم عليه ! ومن ثم ، فكما يتصور الهمجى الفقير قصور أوربا ـ حين يسمع عنها ـ كنوع من الأكواخ يشبه كوخه ، وان كان يكبره حجما ٠٠ كذلك لم يسع « اجوستينو » ـ وهو يحاول ان يتصور أولئك النسـوة وما يقدمن من عواطف ـ سوى ان يرسم صورة لامه ، مع بعض تعديلات وفوارق تافهة ٠٠ وان يتصور المضاجعة كمجرد رغبة مبهمة ، خيالية !

ولكن تجربته هذه بالذات ، أفضت به ـ كما يحدث عادة ـ الى ان يشغل باله بنواح « عملية » للمسألة ، كأنما كان حل هذه النـواحى كفيلا بأن يمكنه من ان يحل ما يحيط بها من غموض وعدم واقعية ٠٠ وكانت من بين هذه النواحى التى شغلته ، مشكلة النقود ، بوجه خاص ، فلقـد بين له « تورتيما » بتفصيل تام ما سوف ينبغى عليه ان يدفع ، ولمن يدفعه ، ومع ذلك فانه لم يستطع ان يستوعب هذه المسألة تماما : اذ ما العـلاقة بين النقود ـ التى تستخدم عادة فى الحصول على أشياء محددة ذات صفات ملموسة ـ وبين عواطف أية امرأة ٠٠ ولحمها العارى ؟

وبدت له فكرة دفع نقود فى مقـابل المتعة المخجلة ، المحـرمة ، فكرة قاسية ، غريبة ، مهينة ، قد تبدو لمن يدفع النقود مسـتعذبة ٠٠ لكنها ولا بد مؤلمة للطرف الآخر الذى يتلقى النقود !٠٠ فهل من الصحيح حقا انه مضطر الى ان يدفع النقود للمرأة مباشرة ، وفى حضورها ؟ ٠٠ وأحس

بأن من الخليق به ان يخفى النقود بطريقة ما ، وان يترك المرأة وهى تخال ان علاقتهما بريئة من كل مصلحة ! .. ثم ، ألم يكن المبلغ الذى ذكره « تورتيما » زهيدا جدا ؟ .. ان أى مبـلغ - مهما يبهظ - لن يكفى لأن يكون ثمنا لمثل هذه التجربة .. التجربة التى تختم احدى مراحل حياته ، لتبدأ بعدها مرحلة أخرى !

ازاء هذه الهواجس قرر ان يتبع ما قاله « تورتيما » بحذافيره - حتى لو تبين انه خطأ - اذ لم تكن لديه معـلومات أخرى يبنى عليها خطة يتصرف بمقتضاها . كان قد عرف من صديقه كم تكلفه زيارة « الفيلا » ، ولم يكن المبلغ يربو على ما ادخر منذ أمد طويل فى « الحصالة » المصـنوعة من الفخـار .. فهو ولا بد قادر على ان يجمع من العملات الصـغيرة والنقود الورقية - التى احتوتها الحصالة - المبلغ اللازم ، بل وقد يجد أكثر منه . وتمثلت خطته فى ان يستخرج المبـلغ من « الحصالة » ، ثم يتريث حتى تذهب امه الى المحطة لاستقبال صديقتها ، واذ ذاك يخرج بدوره فيبحث عن « تورتيما » ، ويقصد معه الى « الفيلا » ! ولا بد من ان يحمل معه مبلغا يكفى لتورتيما أيضا ، اذ كان يعرف انه فقير ، وانه ما كان ليؤدى له صنيعا مالم يحصل لنفسه على مقابل له على الأقل ..

كانت هذه خطته ، ومع انها ظلت تبدو له مستبعدة وغير محتملة ، الا انه عقد العزم على ان يتأهب لها ، بنفس العناية والدقة اللتين يعد بهمـا العدة للانطلاق فى نزهة بالقارب ، أو فى رحلة الى غابات الصنوبر !



الفصـل السادس

◆ وقطع كل المسافة بين الميـدان النائى وبيت امه ، جريا ، فى لهفة وانفعال ، وقد تحرر للمرة الاولى من سموم النـدم ، وتأنيب الضمير ، والتردد ! ٠٠ وكان الباب الأمامى للبيت موصدا ، ولكن نوافذ قاعة الجلوس كانت مفتوحة ، وقد انسابت منها أنغـام موسيقية ٠ كانت امه توقع على المعزف ٠٠

ودخل ، فاذا المصباحان الخافتان القائمان على المعزف يلقيان ضوءهما على وجهها ، بينما كانت بقية الحجرة غارقة فى الظلام ٠٠ وكانت امه على مقعد المعزف ، وعلى مقعد آخر ـ بجوارها ـ جلس الشاب صـاحب الزورق ٠ وكانت هذه أول مرة يراه فيها « اجوستينو » فى بيتهما ، فداخـله احساس مفاجىء ملك عليه أنفاسه ! وبدا ان أمه أحست بوجوده ، بالهام ما ، اذ أدارت رأسـها بحركة هادئة فيهـا دلال غير متعمـد ـ دلال أحس « اجوستينو » ان الشاب هو المقصود به دونه ! ـ وكفت فى الحال عن العزف حين رأته ، ونادته اليها قائلة : « ما معنى قدومك فى هـذه الساعة يا « اجوستينو » ؟ ٠٠ تعال هنا »

وتقدم من المعزف فى بطء ، وقد فاضت نفسه بالسخط والحـيرة ، فشدته امه اليها ، وأحاطته بذراعها ٠ ولاحظ ان عينى امه على غير عهده بهما : براقتين ، متألقتين ، تفيضان شبابا ٠٠ وبدا كأن الضحك يوشك ان يتفجر من خلال شفتيها ، مما أظهر أسنانها اللامعة ٠٠ وأزعجته بالشدة

التى اجتذبته بها اليها ، اذ بلغت مبلغ العنف ، وكأنها كانت ترتجف اغتباطا ! وكان واثقا من أن هذه الظواهر لا تمت اليه شخصيا بصلة ٠٠ على انها - لفرط دهشته - ذكرته بالانفعال الذى كان يساوره قبل دقائق ، وهو يجرى الى البيت ملهوفا مشوقا الى أخذ مدخراته والذهاب مع « تورتيما » الى « الفيلا » ٠٠ والاستمتاع بامرأة !

ومضت امه تقول ، فى صوت جمع بين الحنان ، والقسوة ، والاغتباط : « أين كنت ؟٠٠ أين كنت كل هذا الوقت أيها الولد العديم النفع ؟ » ٠٠ ولم يحر « اجوستينو » جوابا ، بل شعر ان امه لم تكن تتوقع جوابا فى الواقع ، وانما كانت تحدثه كما اعتادت ان تخاطب القط فى بعض الأحيان ! وكان صاحبها الشاب منحنيا الى الأمام ، محيطا ركبتيه بيديه ، وبين اصبعيه سيجارة ، وقد راح يحدق فى صديقته بعينين باسمتين متألقتين كعينيها ٠٠ وعادت هى تردد لابنها : « أين كنت ؟ ٠٠ ما أكثر اهمالك اذ تستسلم للعب والفراغ بهذا الشكل ؟! »

وعبثت بشعره على جبينه ثم عادت تسويه بيدها الدافئة ، الرشيقة ، فى حركات حنون - كان يخالطها شىء من العنف ، لم تجد حيلة لمقاومته ! - ثم قالت فى فخر وهى تلتفت الى الشاب : « أليس غلاما جميلا ؟ » ٠٠ فأجاب الشاب : « انه جميل ، كامه » ٠٠ وابتسمت فى دلال لهذه المجاملة ، بينما تملص « اجوستينو » ليتخلص من عناقها ، وقد امتلأت نفسه اشمئزازا وخجلا ، فقالت له : « اذهب فاغتسل ٠٠ وتعجل لاننا لن نلبث ان نذهب الى العشاء بعد قليل » ٠٠ فحيا « اجوستينو » الشاب بانحناءة خفيفة وغادر الغرفة ٠ وسمع الموسيقى تستأنف توا من حيث قطعها بوصوله ٠٠

★ ★ ★

◆ على انه لم يكد يصل الى الردهة حتى سمر فى مكانه ، ينصت الى الأنغام التى كانت أصابع امه تعزفها ٠ وكانت الردهة مظلمة ، وفى نهايتها امتد بصره خلال الباب المفتوح الى المطبخ الواضح الضياء ، حيث كان الطاهى بزيه الأبيض يروح ويغدو بين المنضدة وأدوات الطهو ٠ وكانت امه سادرة فى العزف ، وقد بدت الأنغام لاجوستينو مرحة ، صاخبة ، مشرقة ، كذلك الوميض الذى كان

يلمع فى عينى امه وهى تضمه الى جانبها ٠٠ ربما كانت الأنغام بطبيعتها كذلك ٠٠ وربما بثت فيها امه شيئا من النار المضطرمة فى نفسها ، ومن اشراقها ، ومرحها ٠٠ وكانت الموسيقى تتردد فى جنبات البيت كله ، فالفى « اجوستينو » نفسه يفكر فى ان كثيرا من الناس قد وقفوا ولا بد فى الطريق ينصتون ، ويعجبون للخلاعة المشينة التى كان كل نغم يفيض بها !

ثم ، توقف الصوت فجأة فى منتصف احدى النغمات ، وأحس « اجوستينو » عن يقين - لم يستطع ان يدرى مبعثه - بأن العاطفة التى وجدت فى الموسيقى تعبيرا عنها ، قد وجدت فجأة متنفسا آخر ! ٠٠ وتقدم خطوتين ، ووقف جامدا على عتبة باب قاعة الجلوس ٠٠ ولم يدهشه كثيرا ما رأى : كان الشاب واقفا يطبع قبلة على شفتى امه ٠ أما هى فكانت مائلة الى الخلف على المقعد الذى كان أصغر من ان يتسع لجسمها ، ومازالت احدى يديها على مفاتيح المعزف ، بينما طوقت اليد الاخرى عنق الشاب ! وبالرغم من خفوت الضوء ، فانه استطاع ان يرى جسمها فى تقوسه الى الوراء ، وقد نفر صدرها الى الأمام ، وانثنت احدى ساقيها خلفها ، بينما امتدت الاخرى نحو قاعدة المعزف ٠ وعلى النقيض من اسرافها فى استسلامها العاطفى ، كان الشاب محتفظا بما اعتاد ان يظهر به من بساطة واتزان ٠ وكان من الواضح انه اذ أحاط عنقها باحدى ذراعيه - وهو واقف - فانما صدر فى ذلك عن خوف عليها من ان تقع ، أكثر منه عن انسياق لعاطفة عارمة ٠٠ وكانت ذراعه الاخرى الى جانبه ، ومازالت السيجارة بين اصبعيه ٠ بينما كانت ساقاه فى سروالهما الأبيض ، وقد ثبتتا فى وقفتهما منفرجتين ، تعبران عن اعتداد وسيطرة تامة على الموقف

ودامت هذه القبلة طويلا ، وقد بدا لاجوستينو ان امه كانت تتشبث بشفتى الشاب فى نشوة متزايدة كلما هم بأن يضع لها نهاية ! ولم يتمالك « اجوستينو » ان شعر انها كانت جائعة ، منهومة الى القبلة ، كشخص طال به الجوع الى الطعام أياما ! ٠٠ ومالبثت ان انبعثت فى الحجرة نغمتان أو ثلاث نغمات حلوة ، بحركة عابرة من يدها ٠ وفجأة ، افترقا ٠٠ فاتخذ « اجوستينو » خطوة الى الأمام ، وقال « ماما » ٠٠ واستدار الشاب على عقبيه وسار الى النافذة فوقف عندها ، وساقاه منفرجتان ، ويداه فى جيبه ، متظاهرا بالنظر الى الخارج

وقالت الأم : « اجوستينو ! » ‎.. فتقدم منها ابنها ، وكانت تتنفس فى عنف - حتى لقد كان يرى بجلاء ثدييها خلال ثوبها الحريرى وهما يرتفعان وينخفضان - وكانت عيناها أكثر تألقا من قبل ، وشفتاها منفرجتين ، وشعرها مضطربا ، وقد تهدلت منه على صدغها خصلة ناعمة ، مدببة ، كأنها ثعبان حى !‎.. ورددت فى صوت خفيض ، متهدج ، وهى تبذل وسعها لتسوى من شعرها : « ماذا بك يا اجوستينو ؟ » ‎.. وأحس الفتى بدفعة مفاجئة من اشفاق ممتزج باشمئزاز ، وود لو يصرخ فيها : « هدئى من روعك ‎.. لا تلهثى هكذا ‎.. لا تحدثينى بهذا الصوت ! » ‎.. ولكنه بدلا من ذلك اصطنع صوتا صبيانيا ، وقال فى لهفة مغالى فيها : « ماما ‎.. هل أفتح « حصالتى » ؟ ‎.. اننى أريد أن ابتاع كتابا »

فأجابت : « أجل ياعزيزى » ‎.. ومدت يدا تربت بها مقدم رأسه ، فلم يتمالك « اجوستينو » أن أجفل للمستها ! وكانت حركته من الضآلة بحيث يتعذر الاحساس بها ، ولكنها لاحت له من العنف بدرجة أحسها الجميع ‎.. فقال : « حسنا جدا ‎.. اذن سأفتحها » . وبادر الى مغادرة الغرفة دون أن ينتظر جوابا ‎.. لقد كانت فكرة « الحصالة » مجرد حجة انتحلها ، حين رأى أمه فى ذلك المنظر فلم يدر ماذا ينبغى أن يقول !

★ ★ ★

• **وكانت** غرفته مظلمة ، و« الحصالة » على منضدة فى الطرف الأقصى ‎.. وقد انساب خلال النافذة المفتوحة شعاع من مصباح الشارع ، وقع على الجزء الوردى المنبعج من« الحصالة» وعلى ثغرها الأسود الواسع المبتسم ‎..

وأضاء اجوستينو نور الحجرة ، وتناول « الحصالة » وطوح بها الى الارض بعنف متهوس ، فتحطمت للتو ، وتبعثرت من ثغرتها الواسعة كمية من النقود من كل فئة - فقد كانت بها أوراق نقدية عديدة مختلطة بالقطع المعدنية - **فركع على يديه وركبتيه ، وشرع يحصى النقود فى لهفة ، وأصابعه ترتجف ، وصورة أمه وصديقها فى قاعة الجلوس تختلط بالنقود المبعثرة على الارض ، وهو يجمعها ويحصيها ‎.. صورة أمه منحنية الى الوراء على مقعد المعزف ، والشاب منحن عليها** ‎.. على أنه لم يلبث أن تبين - اذ فرغ من العد - ان النقود لا تصل الى المبلغ الذى كان يحتاج اليه !

ترى ماذا يفعل ؟٠٠ ولمع بخاطره انه قد يستطيع أن يحصل على الباقي من أمه ، اذ كان يعرف أين تحفظ نقـودها ، ولن يكون ثمة أسهل من الوصول اليها ٠٠ ولكنه استنكر هذه الفكرة ، وقرر أن يسألها نقودا بصراحة ٠٠ ولكن ، أى عذر يبديه ؟ ٠٠ وخطر له فجأة عذر مناسب ، بيد انه فى تلك اللحظة سمع الدقات النحاسية المعلنة لاعداد العشاء ، فبادر يخفى « ثروته » فى أحد الادراج ثم هبط الى الطابق الأسفل ٠

وكانت أمه تجلس الى المائدة ، والنافذة مفتوحة على مصراعيها ، وفراشات مخملية كبيرة تنساب خلالها قادمة من الحـديقة ، لتضرب بأجنحتها المصباح الأبيض ٠ **وكان الشاب قد انصرف ، واستردت المرأة وقارها المهيب المعتاد ٠ وعجب « اجوستينو » وهو يتأملها ، كيف أن فمها لم يكن يحمل أثرا للقبلات التى طبعت عليه منذ بضع دقائق مضت ؟!** ٠٠ تماما كما عجب فى المرة الاولى التى خرجت فيها مع الشاب فى زورقه ٠ وماكان بوسعه أن يحدد الأحاسيس التى أيقظتهـا هذه الفكرة فى نفسه : فمن شعور بالعطف والرثاء نحو أمه التى بدا ان تلك القبلات كانت غالية لديها ، ومبعث اضـطراب لها !٠٠ الى شعور آخر - فى الوقت ذاته - بالتقزز والاستنكار ، لا لما رأى ، وانما للذكرى التى بقيت فى نفسه !٠٠ ولكم ود الغلام أن يقصى تلك الذكرى عن باله ، وأن يتناساها اطلاقا ٠ ترى كيف يتسنى لهذه المناظر المزعجة ، المؤثرة ، أن تنفذ الى النفس خلال العين ؟٠٠ لقد أدرك اجوستينو مقدما ان هذا المنظـر سيظل الى الابد مطبوعا على صفحة ذاكرته !

* * *

◆ **واذ** فرغا من العشاء ، نهضت أمه عن المائدة ، فصعدت الى الطابق العلوى ٠ وخطر لأجوستينو انه لن يصادف لحظة خيرا من هذه ليطلب منها نقودا ، فتبعها الى غرفتها ٠ وجلست

أمه الى منضدة الزينة ، وأخذت تتأمل وجهها فى المرآة صامتة ٠٠ فهتف بها « اجوستينو » : « ماما » ٠٠ فقالت وهى شاردة الذهن : « ماذا ؟ »

ـ أريد عشرين ليرة

ـ لماذا ؟

ـ لأبتاع كتابا !

فقالت فى رفق وهى تنثر « البودرة » على وجهها : « ألم تقل انك ستكسر « حصالة » نقودك ؟ »٠٠ فاصطنع « اجوستينو » عذرا صبيانيا ، اذ قال : « بلى ، ولكن لن تتبقى لى نقود اذا كسرتها ٠ اننى أريد أن أشترى كتابا دون أن أكسر الحصالة »

فضحكت أمه فى ود قائلة : « يالك من طفل ! » ٠٠وتأملت نفسها فى المرآة لحظة أخرى ، ثم قالت : « ستجد كيس نقودى فى الحقيبة على فراشى ٠ خذ عشرين ليرة ، ورد الكيس الى الحقيبة »

وسار الى السرير ، ففتح الحقيبة ، وأخذ الكيس ، فتناول منه عشرين ليرة ٠٠ ثم ، ضم قبضته على الورقتين الماليتين ، وألقى بنفسه على السرير الصغير الذى أعد له بجوار سرير أمه ٠ وكانت هى قد فرغت من زينتها ، فاقتربت منه قائلة : « ما الذى تنتوى فعله الآن ؟ » ٠٠ فقال وهو يتصفح كتابا يتضمن بعض قصص المغامرات ، وجده مصادفة على المنضدة المجاورة للسرير ، ففتحه عند أحد الرسوم : « سأقرأ هذا الكتاب »

ـ حسنا ، ولكن ، لا تنس أن تطفىء النور حين تنام

وكانت لا تزال تروح وتغدو فى الغرفة ، فظل مستلقيا يراقبها ، وقد أسند رأسه الى ذراعه ٠ **وخامره شعور غير واضح بأنها لم تكن قط فى مثل جمالها فى تلك الليلة ! كان ثوبها الحريرى الأبيض اللامع ، يظهر سمرة بشرتها المشوبة بتورد وافر من أثر الشمس ٠٠ وكأنها ـ بانعاشها شخصيتها**

السابقة ، دون أن تفطن أو تتعمد ـ قد استردت ، على ماظهر ، كل ما اعتاد أن يكون لها من وقار عذب ، مهيب ٠٠ بلوأضفت عليه نفحة من هناء لا سبيل الى وصفه ! ٠٠ لقد كانت طويلة القامة ، بيد أن « اجوستينو » لم يرها من قبل فى مثل مابدت فيه اذ ذاك من تناسق ٠ وكأنما كان وجودها يملأ الحجرة،وهى تروح فيها وتغدو فى جلال ، كطيف أبيض ، وقد استوىرأسها برشاقة على عنقها البديع ، واستقرت عيناها هادئتين تحت حاجبيها الساجيين ٠٠ ثم أطفأت جميع الأضواء عدا المصباح القائم على المنضدة المجاورة للسرير ، وانحنت تقبل ابنها ٠٠ **وعب « اجوستينو » مرة أخرى عبق العطر الذى كان خبيرا به، حتى اذا مس عنقها بشفتيه لم يتمالك أن ساءل نفسه ، عما اذا كانت أولئك النسوة ٠٠ اللاتى فى « الفيلا » ٠٠ فى مثل جمال أمه ، وعبيرها ؟!**

واذ خلا الى نفسه ، تريث حوالى عشر دقائق ليستوثق من انصراف أمه ، ثم نهض عن السرير الصغير ، فأطفأ النور ، وسار الى حجرته الخاصة على أطراف أصابع قدميه ٠٠ حتىاذا بلغها راح يتحسس طريقه فى الظلام الى المنضدة المجاورة للنافذة، ففتح درجها ، وملأ جيوبه بالعملات المعدنية والورقية ، ثم تحسس بيده كل ركن فى الدرج ليتأكد من خلوه ٠٠ وغادر الحجرة !

★ ★ ★

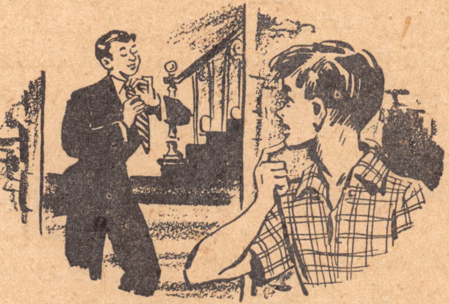
◆ **وما أن** خرج الى الطريق ، حتى شرع يجرى ٠٠ وكان « تورتيما » يقيم فى الطرف الآخر للبلدة ، فى حى العمال والملاحين ٠ ومع أن البلدة كانت صغيرة ، الا أنه قطع مسافة طويلة للوصول الى مقصده ٠ وكان يختار الدروب المعتمة التى تمتد على حواف غابات الصنوبر ، ويغذ السير أحيانا ، ويعمد الى الجرى فى أحيان أخرى ، ماضيا قدما ، حتى لاحت له ، بين دارين ، اشرعة المراكب التى كانت رهن الاصلاح فى الحوض

الجاف ٠ وكان منزل « تورتيما » بعد الحوض مباشرة ، خلف الجسر الحديدى المتحرك الذى كان يقوم على القناة المفضية الى الميناء ٠ وكانت البقعة تتراءى فى النهار ، منسية ، خربة ، تتناثر على حواف أرصفتها الواسعة المهجورة ، التى تلهبها أشعة الشمس ، مخازن ومحال متداعية ، ويعبق جوها بروائح السمك والقار ، وتبدو مياه البحر عندها خضراء ، زيتية ، راكدة ، تجثم فيها مراكب الآلات الرافعة ، ومراكب نقل الحصى ٠٠ أما فى تلك الساعة ، فقد جعلها الليل تبدو كبقية أرجاء البلدة ، لو لم تنم عن وجود مياه المرفأ خلف البيوت ، مركب شراعية كبيرة ظهرت جوانبها المنتفخة وأشرعتها فوق حافة الرصيف ٠

وعبر « اجوستينو » الجسر ، ويمم شطر صف من الدور على الجانب الآخر للقناة ٠ وكانت مصابيح الطريق المتباعدة ، تلقى أضواءها على جدران تلك البيوت الصغيرة ، على مسافات غير منتظمة ٠٠ ووقف « اجوستينو » أمام نافذة مفتوحة على مصراعيها ، ينبعث النور منها ، وتتصاعد من خلفها أصوات أفراد ، وصلصلة أطباق ، وكأن هناك قوما يتناولون الطعام ٠ ودس الغلام أصابعه فى فمه ، وأرسل صفيرا عاليامرة ، وخافتا مرتين ـ وهى الاشارة المتفق عليها بين صبية العصابة ! ـ وسرعان ماظهر شخص فى النافذة ، فقال « اجوستينو »بصوت خافت ، خجول : « انا ٠٠ بيزا » ٠ فأجاب الشخص ـ وكان « تورتيما » بالذات : « أنا قادم » ٠

وهبط « تورتيما » وهو لايزال يلوك فى فمه اللقمة الاخيرة من الطعام ، وقد احمر وجهه من النبيذ الذى كان يشربه ، فقال « اجوستينو » : « لقد جئت كى نذهب الى « الفيلا » ٠٠ ان معى النقود ٠٠ مبلغا يكفى كلينا » ٠٠ فتطلع « تورتيما » اليه وهو يبتلع بعناء مافى فمه ، وقد بدا انه لم يفهم ؟ ٠٠ فأردف اجوستينو : « الفيلا التى فى الجانب الآخر من الميدان

٠٠ حيث توجد النسوة » ٠٠ فقال « تورتيما » وقد فهم مقصده أخيرا : « آه ٠٠ لقد ظللت تفكر فى الامر ؟ ٠٠ مرحى يابيزا ٠٠ سألحق بك بعد لحظة » ٠ وهرع الى داخل البيت ، فأخذ « اجوستينو » يخطر جيئة وذهابا فى انتظاره ، وقد علقت عيناه بنافذة الدار ٠ وطال انتظاره أمدا ، بيد أن « تورتيما » ما لبث أن ظهر فى النهاية ، فلم يكد « اجوستينو » يعرفه ! ٠٠ كان قد عهده دائما « غلاما كبيرا » ، فى سروال ثنيت ساقاه الى أعلى ، أو نصف عار ، على ساحل البحر أو فى مائه ٠٠ أما الآن ، فقد رأى أمامه شابا من الطبقة العاملة فى ثياب النزهة الداكنة : سروال طويل الساقين ، وصديرى ، وقميص له ياقة وربطة عنق ٠٠ كما انه بدا أكبر سنا مما اعتاد أن يراه، بسبب « البريانتين » الذى نسق به شعره ، وقد كان فى العادة اشعث مضطربا ٠٠ وأضفت عليه الثياب العادية التى كان يختال فيها للمرة الاولى ، مظهرا يدعو للسخرية !



وقال « تورتيما » وهو ينضم الى مرافقه : « أنذهب الآن ؟» ٠٠ فقال « أجوستينو » وهو يغذ السير الى جواره ، عابرين الجسر : « هل حان وقت الزيارة ؟ » ٠٠ فأجاب « تورتيما » ضاحكا : « كل وقت ملائم للزيارة هناك ! »

★ ★ ★

◆ وسلكا طريقا غير ذاك الذى قدم منه « اجوستينو » ، ولم يكن الميدان بعيدا ٠٠ ولم يلبث « اجوستينو » أن تساءل : « لكن ٠٠ هل ذهبت الى هناك من قبل ؟ »

ـ ذهبت الى بيوت مشابهة ٠٠ ولكنى لم أذهب الى هذا البيت

ولم يكن يبدو على « تورتيما » أى تعجل ، بل راح يسير فى خطوته العادية، قائلا : « كأنى بهن الآن أوشكن على الفراغ من العشاء ، ولن يكون ثمة زائرون ٠٠ انه موعد ملائم »

فسأله اجوستينو : « ولماذا ؟ »

ـ لماذا ؟٠٠ الا ترى أن بوسعنا فى هذه الحال أن نختار من يحلو لنا اختيارها منهن ؟

ـ وكم واحدة هناك ؟

ـ أوه ٠٠ أربع أو خمس ٠٠

وتاق « اجوستينو » الى أن يسأله عما اذا كن جميلات ، ، ولكنه أحجم ٠٠ ثم قال فى تهيب : « وماذا علينا أن نفعل ؟ »

وكان « تورتيما » قد أخبره من قبل ، بيد أن الشعور بأن الامر كله بعيد عن الواقع والحقيقة ، كان قد استبد به ، وجعله يصبو الى أن يسمع من جديد مايؤكد واقعيته !٠٠ وقال « تورتيما » : « ماذا تفعل ؟ ٠٠ ليس هناك ماهو أسهل من هذا الامر : تدخل ، فتخف النسوة اليك ، ويعرضن انفسهن أمامك ٠٠ فتقول : « مساء الخير يا سيداتى » ، ثم تصطنع حديثا ما برهة من الزمن ، لتتيح لنفسك مهلة كافية لتأملهن ٠٠ ثم تختار واحدة ٠ أهذه هى المرة الأولى لك ؟ »

فشرع اجوستينو يقول : « الواقع ٠٠ » ٠ ثم اسكته الخجل ، فصاح«تورتيما» فى تحد : « تكلم !٠٠ ما أظنك تجرؤ على أن تقول لى أنها ليست المرة الاولى ٠٠ قل هذا للآخرين ان شئت ، ولكن ليس لى ! ومع ذلك ، فلا تخف ٠٠!انها ستفعل كل شىء دون أن تحيرك ٠٠ اترك الامر لها »

ولم يقل « اجوستينو » شيئا ، اذ لذت له الصورة التى أوحى اليه بهـا « تورتيما » ٠٠ صورة المرأة وهى تعلمه الحب ٠٠ وخيل اليه أن نفحة من الأمومة تمازجها !٠٠ ومع كل ذلك ، فقد ظل غير مصدق ٠ وفجأة وقف مسمرا فى مكانه ، وهو ينظر الى ساقيه العاريتين ، وتساءل : « ولكن ٠٠ولكن، هل تظن انهن سيقبلنني هناك ؟»

وحار « تورتيما » لحظة ازاء هذا السؤال ، ثم قال فى اعتداد زائف بنفسه : « هيا بنا ، وسنعمل اذ نصل هناك على ادخالك »

★ ★ ★

◆ وأفضت بهما حارة ضيقة الى الميدان ، فاذا به مظلم بأكمله ، فيما عدا ركن من أركانه قام فيه مصباح وحيد يلقى ضوءا خافتا على مساحة من الارض الخالية ، تكسوها الرمال ٠ وتجلت لهما السماء فوق الميدان ، فاذا القمر هلالا، وقد بدا ضاربا للحمرة ، وكساه الضباب بغلالة كالدخان ، انساب منها خيط رفيع لاح كأنه يشطر الهلال نصفين ٠٠ وفى أشد الاركان عتمة ، اهتدى اجوستينو الى « الفيلا » ، اذ لمح مصاريع نوافذها البيضاء ، وكانت كلها مغلقة، لا يتسرب منها ضوء ما ٠ وعبر « تورتيما » الميدان الى « الفيلا » فى غير تردد ، لكنه حين بلغ وسط الميدان ـ تحت القمر تماما ـ سأل اجوستينو : « هل معك النقود ؟٠٠ اعطنيها ، فمن الأفضل أن تكون معى »

ـ ولكن ٠٠ وأنا ٠٠ ؟

٠٠ ولم يتم « اجوستينو » عبارته ٠ انه لم يكن شديد الاطمئنان الى «تورتيما»، بيد أن هذا ألح قائلا فى خشونة : « هل ستعطينيها ؟» ٠٠ وأحس «اجوستينو» باستحياء لأن معظم المبلغ تألف من عملات صغيرة ٠٠ ولكنه انصاع لانذار « تورتيما » ، فأفرغ فى يديه ماكان فى جيوبه ، واذ ذاك قال الفتى :«والآن ، اعقل لسانك فى فمك وتعال معى »

وأخذ الظلام يخف وطأة كلما اقتربا من « الفيلا » ، فاستطاعا أن يتبينا حافتى الباب الخارجى ، والدرب الذى يمتد خلال الحديقة الى الباب الامامى لمبنى الدار ، ثم الباب ذاته والمظلة الزخرفية التى تعلوه ٠ ولم يكن الباب الخارجى موصدا ، فدفعه « تورتيما » ونفذ الى الحديقة ٠٠ وكان مصراعا الباب الخارجى مواربين ، فصعد « تورتيما » الدرجات المفضية اليهما ، ونفذ خلالهما مشيرا الى « اجوستينو » بأن لا يحدث صوتا ٠ وتلفت « اجوستينو » حوله فى فضول ، ثم نظر خلال الباب فرأى ردهة خاوية ، قام عند نهايتها باب ذو مصراعين زانهما زجاج أحمر وأزرق انعكست عليه أضواء منبعثة من خلفه ، فبدا منظره بهيجا ٠٠

★ ★ ★

◆ ووشى بدخولهما رنين أجراس ، فبادر الى النهوض خيال ضخم لشخص كان يجلس وراء الباب الزجاجى ، وبرزت لهما فى اطار الباب امرأة ٠ كان يبدو أنها خادم ، فى أوسط العمر ، مفرطة السمنة ، ذات صدر واسع ضخم ، وقد ارتدت ثوبا اسود ، وأحاطت وسطها بمرولة بيضاء ٠ وتقدمت نحوهما يسبقها بطنها المكرش ، وذراعاها يهتزان الى جانبيها ٠ وكان لها وجه منتفخ ، وعينان متجهمتا النظرات ، تتطلعان فى توجس من تحت شعر غزير

وقال تورتيما : « هاقد وصلنا »٠٠ لكن اجوستينو اشتم من صوته ومسلكه أنه هو الآخر أحس بحرج واستخذاء ، رغم ماكان يبديه من جسارة!٠٠وتأملتهما المرأة لحظة ، ثم أشارت تدعو « تورتيما » الى الدخول ، فابتسم وقد استرد اعتداده ، وأسرع نحو الباب الزجاجى ٠ واذ ذاك هم « اجوستينو » بأن يتبعه ، ولكن المرأة ألقت يدها على كتفه قائلة : « انت ٠٠ لا »

فصاح « اجوستينو » وقد نسى خوفه فى الحال : « ماذا ؟ ٠٠ لماذا يدخل هو ولا أدخل أنا ؟ » ٠٠ فقالت المرأة فى حزم : « الواقع انه ليس لكليكما نصيب هنا ، ومع ذلك فهو قد أشرف على السن المناسبة ، أما أنت ٠٠ فلا »

وقال « تورتيما » ساخرا ، وهو يفتح الباب ويختفى وراءه : « انك جد صغير يابيزا » ٠٠ وظل شبحه يبدو خلف الزجاج لحظات ، ثم تلاشى فى الضوء الباهر !٠٠ فقال « اجوستينو » فى الحاح وقد هاله غدر تورتيمـا : « وماذا سيكون من امرى ؟ » ٠٠ فقالت المرأة : « هيا اخرج ياولد ٠٠ عد الى بيتكم »٠٠ وسارت الى الباب ففتحته على سعته ، واذا بها ترى نفسها وجها لوجه أمام رجلين كانا يهمان بالدخول ٠ وكان احدهما ذا وجه أحمر ، بشوش ، وقد ابتدرها بقوله : « مساء الخير ٠٠ مساء الخير » ، ثم التفت الى زميله ـ وكان شابا نحيلا شاحبا ـ وقال : « اذن ، اتفقنا ! ٠٠ اذا كانت « بينا » غير مشغولة، فستكون من نصيبى ٠٠ فلا تدع مجالا للجدل السخيف فى هذا الصدد » فقال الآخر : « اتفقنا »

وعاد ذو الوجه البشوش يقول للمرأة مشـيرا الى اجوستينو : « ما الذى يفعله هذا الفتى الصغير هنا ؟ » ٠٠ فقالت المرأة وقد قفزت الى شفتيها ابتسامة مترددة : « لقد أراد أن يدخل ! » ٠٠ فصاح الرجل ملتفتا الى اجوستينو : « اذن فقد أردت أن تدخل ؟ ٠٠ ان البيت هو المكان اللائق بمن فى عمرك فى هذه الساعة ! » ٠٠ ثم صاح به ملوحا بذراعيه : « هيا الى البيت »

قالت المرأة : « هذا ماقلت له » ٠٠ فتدخل الشاب الآخر : « ولماذا لا ندعه يدخل ؟ ٠٠ لقد كنت فى مثل سنه اطارح الخادم الهوى ! » ٠٠ فصاح الآخر مبهوتا ، مستنكرا : « ويلى !٠٠ هيا الى البيتيا غلام ٠٠الى البيت٠٠الى البيت!» ٠٠ ثم انساب خلال الباب الزجاجى ، يتبعه الشاب المنصف ٠٠ وارتد الباب خلفهما فى قوة ٠ وألفى « اجوستينو » نفسه فى الحديقة ـ خارج الدار ـ دون أن يدرى كيف بلغها !٠٠ ألا ما أسوأ ما انتهت اليه الامور جميعا ٠ لقد غرر به « تورتيما » فأخذ كل نقوده ، ثم تركه يطرد خارج الدار !٠٠ واذ لم يدر التعس ما ينبغى أن يفعل ، سار فى الدرب المفضى الى الباب الخارجى ، وهو يلتفت طيلة الوقت نحو باب المبنى الذى كان مواربا ، والمظلة الزخرفية التى كانت تعلوه ، وواجهة المبنى بمصاريع نوافذها البيضاء ٠ وخالجه شعور من

الاستياء راح يلهبه كالسياط ، سيما بعد ماكان من ذينك الرجلين اللذين عاملاه كما لو كان طفلا !٠٠ ولاح له أن ضحك الرجل المرح ، والطيبة الباردة التى أبداها زميله - صاحب التجربة - لم يكونا أقل اذلالا له من ذلك العدوان البغيض الذى قابلته به المرأة !٠٠ واتجه الى الباب الخارجي وهو مايزال يتلفت خلفه ، وحوله ، متأملا الاشجار والشجيرات التى كانت فى الحديقة ٠ومالبث أن رأى أن الجانب الايسر من « الفيلا » كان مضاء بنور قوى بدا منبعثا من نافذة مفتوحة بالطابق الارضى ٠ وخطر له أن يحظى على الاقل بنظرة الى مافى داخل الدار خلال تلك النافذة ، فاتجه صوب الضوء ، وهو يحرص على أن لاتصدر عنه الا أقل ضجة ممكنة ٠

★ ★ ★

◆ وصح ما دار بحدسه ٠٠ كان النور ينبعث من نافذة مفتوحة على مصراعيها فى الطابق الأرضى ٠ ولم تكن حافة النافذة مرتفعة ، فسعي للوصول اليها فى هدوء ، وهو يلتزم ركنا لا يتسنى لاحد أن يراه فيه ٠٠ ثم ارسل بصره خلال النافذة الى الداخل ٠٠

كانت الغرفة صغيرة ، متألقة الأضواء ، وقد كسيت جدرانها بورق ذى زخارف أنيقة تمثل زهورا كبيرة يمتزج فيها اللونان الاخضر والاسود ٠ وفى مواجهة النافذة ، كان ثمة ستار أحمر ، يتدلى من حلقات خشبية حول قصبة نحاسية ، ويكاد يخفى باب الحجرة ٠ ولم يكن يبدو للبصر أثاث ما ، بيد ان ثمة شخصا كان يجلس فى ركن الى جوار النافذة ، اذ استطاع اجوستينو أن يلمح ساقين استندت احداهما الى الاخرى ، وقد اختفت قدماهما فى حذاءين أصفرين ٠ وأدرك الغلام من وضعهما انهما ساقا رجل استلقى فى مقعد وثير ٠ وساءه أن لا يستطيع أن يرى أكثر من هذا ، فلما هم بأن يغادر مكمنه ، انفرجت الستار ٠٠ وبرزت امرأة !

كانت فى ثوب سابغ من الحرير الازرق الباهت - ذكر « اجوستينو » بقميص نوم أمه ! - وكان شفافا ، يصل الى قدميها ٠ ومن مظهر أطرافها خلال القماش السماوى الشفاف ، كان يخيل للرائى انها تطفو فى ماء صاف نمير !٠٠ وبهت « اجوستينو » اذ رأى ياقة الثوب ، بحيلة من حيل التصميم ، قد قصت على شكل بيضاوى امتد حتى خصرها ، ولاح خلاله ثدياها الممتلئان ، المتماسكان، يجاهدان كي يفلتا من الضغط الذى احاطهما به الثوب ٠٠ وكان شعرها البنى المتموج يسترسل على كتفيها ٠٠ ووجهها الشاحب ، العريض ، يجمع بين الطفولة والاثم فى وقت واحد !٠٠ وعلى عينيها الكليلتين ، وشفتيها المكتنزتين ، المخضبتين ، بدت أسارير تنم عن أن صاحبتها متقلبة الأهواء !

واقبلت من خلف الستار ويداها خلف ظهرها ، وصدرها بارز الى الامام ، فوقفت لحظة جامدة ، دون أن تتكلم ، وكأنما كانت تترقب ماسوف يصدر عن الرجل من تصرف ، اذ بدت شاخصة الى الركن الذى كان مضطجعا فيه ٠٠ ثم تحولت فجأة ، بنفس الهدوء الذى أقبلت به ، واختفت ٠٠ تاركة طرفى الستار منفرجين ٠ وللتو ، تحركت ساقا الرجل فغابتا عن بصر « اجوستينو » ،وسمع حركة نهوض ٠٠ فابتعد عن النافذة مذعورا !

وعاد الى الدرب المؤدى الى الباب الخارجى ، فدفع هذا الباب ، وانفلت الى الميدان ٠٠ وقد خامره شعور بالاستياء الحاد لفشل محاولته ! كما أحس ـ فى الوقت ذاته ـ بجزع مما يترقبه فى الأيام التالية ٠ ان شيئا ما لم يحدث ، فهو لم يضاجع امرأة ما ، وانما استولى « تورتيما » على كل نقوده ، ولن تلبث النكات الهازئة المألوفة ان تنبعث من جـديد بين صبية العصبة فى الغد ، تصحبها تلك السخرية الواخزة التى تدور حول علاقته بأمه !٠٠ لقد كانت تفصل بينه وبين ذلك العمل من أعمال التحرر الذى خرج يسعى اليه الليلة ، أعوام وأعوام من الفراغ الخاوى ، والخيبة !٠٠ ولسوف يتحتم عليه ـ فى الوقت ذاته ـ أن يظل فيما كان فيه من حياة ٠٠ ومن ثم فقد تمردت نفسه على الفكرة المريرة التى راحت توحى اليه بأن ماكان يرجوه قد غدا مستحيلا ، استحالة قاطعة !

★ ★ ★

◆ واذ بلغ البيت ، دخل دون ما ضجة ٠٠ ورأى متـاع الزائرة فى الردهة ، وسمع أصواتا تنبعث من غرفة الجلوس ، فبادر صاعدا الى الطابق العلوى ، وألقى بنفسه على السرير الصغير فى مخدع أمه ٠٠ ثم ما لبث أن راح ينزع ثيابه عنه فى عنف ، فى الظلام ، ويطوح بها على الارض ٠٠ واندس بين أغطية الفراش ، عاريا ٠٠

وبعد برهة ، سرى التخدر الى جوارحه ، ثم استسلم فى النهاية للنوم ٠ وفجأة ، استيقظ مجفلا ، فاذا مصباح الغرفة مضاءا ، ينعكس على ظهر أمه ٠٠ وكانت فى قميص نومها ، وقد ارتكزت باحـدى ركبتيها على السرير ، تهم بالصعود اليه ٠ فقال على حين غرة ، فى صوت مرتفع الى درجة تقرب من العنف : « ماما »

فسارت أمه اليه ، وانحنت قائلة : « ماذا بك ؟ ٠٠ ماذا هناك ياحبيبى ؟ »٠٠ وكان قميصها هى الاخرى شفافا ، كقميص المرأة التى فى «الفيلا» ، تراءت خلاله خطوط جسمها وثنياته ، كما كانت تتراءى خطوط وثنيات جسم المرأة الاخرى ٠٠ فقال فى صوت عال ، مهتاج ، وهو يحاول أن يقسر بصره على أن يعلق

بوجهها ، فلا يروغ الى جسدها : « انني أريد أن أسافر غدا »

فجلست أمه على حافة السرير ، وتأملته في دهشة ، ثم تساءلت : « ولماذا ؟ .. ماذا جرى ؟.. ألست سعيدا هنا ؟ » .. لكنه ردد قوله : « أريد أن أسافر غدا » .. فمرت بيدها على جبينه في رفق ، وكأنها خشيت أن يكون محموما ، ثم قالت : « لنر ما هنالك .. ماذا بك ؟.. ألست كما ينبغي ؟ .. لماذا تريد أن تسافر ؟ » .. وكان قميص نومها يذكره بثوب تلك المرأة التي في « الفيلا » : نفس الشفافية ، واللون الباهت ، ونفس اللحم المتراخي في اذعان واستسلام .. كل ما كان هنالك من فارق ، هو ان ثوب أمه بدا مجعدا غير متسق ، مما زاد من اضفاء جو من الألفة والتكتم على هذه العورة .. وجال بفكر « اجوستينو » ان طيف تلك المرأة لم يقف حائلا بينه وبين أمه - كما كان يرجو - وانما بدا انه ، على العكس ، زاد من اظهار انوثة أمه !

وعادت تسائله : « لماذا تريد السفر ؟ .. ألا تحب أن تكون معي ؟ » .. لكنه بدلا من أن يجيبها على سؤالها ، قال فجأة ، دون أن يدري لقوله داعيا : « انك تعاملينني دائما كأنني طفل ! »

فضحكت أمه وربتت على خده قائلة : « جميل جدا .. من الآن فصاعدا سأعاملك كأنك رجل .. فهل يرضيك ذلك ؟ .. والآن يجب أن تنام ، فنحن في ساعة جد متأخرة »

وانحنت فقبلته ، ثم أطفأت النور .. وسمعها « اجوستينو » تندس في فراشها ..

ولم يتمالك أن يفكر قبل أن يستغرق في النعاس : « كأنك رجل » ! .. ولكنه لم يكن رجلا .. بل ما أطول وأتعس الوقت الذي يجب أن ينصرم قبل أن يصبح .. رجلا !

« تمت القصة »



LA PROVINCIALE

راجعها ونقحها : حلمى مراد



الفصل الأول

• **منذ** سنوات ، كانت تعيش فى احدى مدن ايطاليا الوسطى أرملة فى أوسط العمر تدعى «جاشينتا فوريزى» ، وابنتها « جيما » ٠ وكانت المدينة التى تقطنانها ، من تلك المدن المعتمة ، التى تتطاول بأبراجها فوق ربوة عالية ٠٠ وكان يخترقها من أدناها الى أقصاها شارع رئيسى يسمى (الكورسو) ، تنتصب فيه الكتدرائية وأجمل القصور ، وتنحدر منه الى اليمين والى اليسار أزقة ضيقة ، ومتاهات من السلالم المتحدرة ٠ وفى أحد هذه الأزقة ، المسمى (ألاباسيون) ـ وقد يرجع الاسم الى التمثال القديم المنحوت فى زاوية أحد المبانى ، والذى يمثل صلب المسيح ـ كانت السيدتان « فوريزى » تشغلان الطابق الأعلى من منزل منهار ، خرب ، يعود طراز بنائه الى عهد الاقطاع ٠ وكانت المدينة ـ بوصفها مركز الاقليم ـ تستمد حياتها من وجود عدد كبير من الموظفين والضباط وأصحاب المهن الحرة فيها ٠٠ **وكانت السيدتان فوريزى ، لفقرهما الذى يشاركهما**

فيه الكثيرون ، تحاولان الافادة من هؤلاء الأجانب ، فتؤجران أفضل حجرتين أو ثلاث من شقتهما ، تلك التي لا تطل على الزقاق بل تفتح على الحدائق المضيئة ، غير المعتنى بها ، التي تمتد وراء البيت ..

وكانت الام فى نحو الخمسين ، قصـيرة ، مكتنزة ، متواضعة الملبس ، منكسرة غير متعنتة فى عاداتهـا ، وان كانت يداها الرقيقتان ، البيضاوان ، الناعمتان ، وشعرها المحتفظ بسواده ، والمصفف بعناية ، يضفى عليها بعض أناقتها القديمة فى الأيام الغابرة .. كما كان وجهها الذى احتفظت قسماته برقتها ـ رغم ترهل خفيف ـ وعلى الأخص عيناها الزرقاوان زرقة منطفئة هادئة ، واللتان كانتا تسطعان فى بعض الأحيان بنظرة جريئة ضاحكة .. كلها تدعو الى الظن بأنها « كانت » منذ عشرين سنة جميلة ، مختلفة كل الاختلاف عما صارت اليه !

وكانت ترتدى الملابس الشائعة التى ترتديها ربات البيوت فى الأقاليم : مئزرة سوداء أو رمادية ، منسدلة الى القدمين ، وياقة عالية ، وحول كتفيها قطعة وشاح تلتئم على الصدر ، وما من شبهة للمساحيق على خديها .. لكن من يراها يحس أن مسحة خفيفة من الحمرة ، وثوبا أكثر أناقة ، يكفيان لتغيير مظهرها !

وكانت عاكفة على بيتها ، فاذا لم تكن مشغولة فى مطبخها أو فى أشغال ابرتها ، وضعت حـــول عنقها فراء منتوف الشعر ، وعلى رأسها قبعة صـــغيرة سوداء ، وذهبت الى الكنيسة . وهناك ـ وهى منزوية فى الظل ، خلف عمود ، وبغير حماس أو متعة ـ كانت تتلو فى خفـــوت ، بحركات شفتيها ، صلوات طويلة ، معقدة .. غير أنها لم تكن مع ذلك ربة البيت الكاملة ولا المتدينة المثلى ، بل كان يبدو أنها مذعنة لطراز من الحياة ليس هو طرازها . وكان بريق « الشقاوة »

لا يفتأ يعاود الظهور من حين الى حين في عينيها . ومن مجموع شخصيتها كان يشع طابع خبث خفيف ، لئيم !

* * *

◆ على انه اذا كان مظهر الام ، وما لها من رقة فى الملامح وهيئة توحى بحرصها على الكتمان ، لم يكن ليثير الملاحظة ، فان رؤية الابنة كانت تكفى للتنبه الى المفارقة بين حياة المرأتين المتواضعة الراهنة ، وماضيهما المجهول !

كانت « جيما » عاطلة من الجمال وخفة الروح ، لكن ملامحها الواضحة النبيلة كانت تفضح منبتا غير سوقى ، وتضفى عليها فى بعض الأحيان نوعا من الحسن العريق !.. كانت طويلة ، ممشوقة ، ذات أفخاذ طويلة نحيلة ، وصدر صغير ـ وان كان عريضا ككتفيها ـ وكان وجهها شديد النحول ، شاحبا ، باستثناء الوجنتين ، فهما دائما أميل الى الحمرة . أما عيناها فكبيرتان ، بطيئتا الحركة ، وجفناها مسترخيان يخفيان الحدقتين ، ويضفيان على نظرتها مسحة كبرياء حزينة مترفعة ! .. وكان لها أنف معقوف ، وفم واسع مطبوع بطابع الازدراء ، وشعر مجعد ، أما لون بشرتها فكان رقيقا شفافا ، وان ظهرت فيه فى بعض الأحيان بقع حمراء .. وكان الشعر الخفيف الزغبى الذى ينتشر على ذراعيها وقفاها يعلن عن جسد « مشعر » ، مفعم بالنار ! .. ولقد أخذت « جيما » من أمها الشىء القليل ، فيما عدا الأنف المعقوف .. أما من أبيها ، فلا شىء على الاطلاق ـ اذا حكمنا ، على الأقل ، بمقتضى الصورة الفوتوغرافية المعلقة على الجدار ، والتى تظهر رجلا قصيرا ، أقطش ، ممتلئا ، لين العريكة .. وكان الأب تاجرا وأفلس ، وقد مات بعد افلاسه بقليل ، تاركا امرأته بلا نقود ، وابنته طفلة صغيرة .. **ومهما يكن من شىء فان « جيما » ، بنحولها**

وشحوبها وقامتها المشرعة ، لم يكن فيها شيء من فتاة الاقاليم، بل كان من يراها يحسبها احدى النساء « الأنيميات » ـ المصابات بفقر الدم ـ من عرائس المجتمع ، ساكنات المدن ، والموهوبات لحياتها ٠٠ اللاتي يقضين يومهن مسترخيات على أريكة ، ولا يخرجن الا في ثوب السـهرة !٠٠ مخلوقات مصنوعات لحياة الليل ، قصيرات العمر ، لا حول لهن ولا قوة !

٠٠ لكن هذا المظهر ، من بين كل المظاهر ، كان أكثرها خداعا ! فما عرفت « جيما » قط غير ملابسها الفقيرة الداكنة ، تضغطها حول قوامها كي تمنح جذعها المهزول قليلا من التجسيم ٠٠ أما حياتها التى تحياها فكانت أقصى ما يمكن تصوره من الرتابة والتزمت ، حتى فى مدينة صغيرة ، فى أطراف الأقاليم ٠٠

* * *

◆ **وكانت** المرأتان ، رغم فقرهما وما تؤجرانه من حجرات بيتهما ، تتمتعان فى المدينة بقدر من الاعتبار ـ وان كان ، والحق يقال ، قدرا غير وطيد ولا مضمون ٠ كانتا معروفتين من الجميع ، تستقبلان فى كل مكان ٠٠ وكان يقال فى مدحهما أنهما لا « تفرضان » نفسيهما ، وتعرفان كيف تلزمان مكانهما ! ٠٠ وكانت أسباب هذا التقدير ـ الذى لا يظفر به من هم أغنى وأعز نفوذا منهما ـ كثيرة ومتعددة ، لكنها غير واضحة دائما ٠ ومن هذه الأسباب ، بلا ريب ، تواضعهما ، وربما طابع الاصالة والامتياز ، الذى كان يجعلهما تظهران كأنما هوت بهما الأيام من عز قديم ٠٠ مع أن أحدا فى الحقيقة لم يرهما فى درجة من السلم الاجتماعى أعلى من تلك التى تشغلانها ! ٠٠ **أما الحاسدون ـ ولكل الناس حاسدون، حتى أقلهم حظا مما يحسد عليه ـ فكانوا يزعمون**

أنهم يعرفون سر ذلك الطابع العريق ٠٠ وكانت تقولاتهم قائمة كلها على أمر واحد : علاقة « جيما » بأسرة غنية فى الريف !

وكانت « جيما » بالفعل ، تذهب فى كل صيف الى ضيعة قريبة لقضاء العطلة فيها ٠ وكانت الاسرة صاحبة الضيعة مكونة من الأب ، وابن ، وابنتين تقاربان «جيما» فى العمر ٠ وقد كانت « جيما » طفلة عندما قادتها أمها عدة مرات الى ذلك البيت ، لقضاء فترات قصيرة لا تتجاوز الأيام ٠٠ لكن هذه الزيارات البعيدة صارت ذكريات يبلغ من بعدها وانطماسها ان جيما نفسها كانت ترتاب فى أمرها ، سيما وأن أمها لم تكن تشير اليها ، أو تدعها تفهم سبب ترددها على ذلك البيت !

٠٠ ثم صارت جيما بنتا كبيرة ، فعادت الى ذلك البيت وحدها ، لتقضى فيه من كل صيف شهرين على الأقل ٠ وهكذا ارتبطت مع ابنتى البيت بصداقة ثانوية تحولت شيئا فشيئا ، مع السنين ، الى علاقة « تبعية » ٠ **كانت البنتان تخلعان عليها الفساتين التي لم تعودا ترتديانها ، وتكلفانها بالخدمات الدقيقة الصعبة التى لا يمكن طلبها من مربية ٠٠ وهكذا كانت ، بالنسبة لهما ، لا صديقة بمعنى الكلمة ، وانماشيئا وسطا بين الرفيقة والمربية ٠ وفى مقابل هذا كانت تستمتع بميزة لها قدرها عندها : أن تجد نفسها على قدم المساواة ، على الأقل فى الظاهر ، مع جميع من يترددون على البيت ، وهم فى الغالب من جيران الريف ، مع نسائهم وأطفالهم** ٠٠ وكان ذلك الريف عالما شائخا ، يجمع بين البساطة والغرور ، ويثير الرثاء والتقزز فى وقت واحد ٠٠ ولكن هذه الألقاب التى غدت بلا بريق ، وهذه الزينة المستوحاة من مقترحات صحف الأزياء الباريسية ، والمنفذة كيفما اتفق ٠٠ وهذه الأحاديث التى تشير الى

امور كانت هى تجهلها .. كانت كلها بالنسبة لجيما ذات النشأة المتواضعة ، تبدو أشياء رائعة ومرغوبة ، ومليئة بخفاء السر وروعته !

أما سيد البيت فكان يجعل دائما بينها وبينه مسافة لا تتجاوزها ، ويعاملها بطيبة عاطفية وأبوة تقليدية ، كما كان يعامل أختا فى الرضاع لاحدى ابنتيه . وما من مرة واحدة ، فى كل هذه الأعوام ، سألها عن أنباء أمها . والشهران اللذان كانت جيما تقضيهما كل سنة فى تلك الضيعة كانا ، فى نظرها ، الحدث الرئيسى والتسلية الوحيدة فى حياتها !.. لكن الاعتياد والالفة كانا قد أضفيا عليها مظهر عدم الاكتراث بذلك النعيم ! .. **فلم يكن يفوتها أن تجيب صديقاتها اللاتى كن يسألنها أين ستقضى الصيف ، بقولها : « كالمعتاد ، سأذهب الى (لاشيناى) .. » .. واذا سئلت عما تصنعه هناك ، أجابت فى فتور : « أوه ! اننا نحيا هناك حياة بسيطة جدا ، بل مملة ! »**

ولم تكن تلحظ ضحكات مكتومة تصدر من رفيقاتها الخبيثات اللاتى ما كن يلقين عليها هذه الأسئلة الا ليرينها



اذ تتخذ هيئتها المتعالية وعدم اكتراثها السأمان ! ٠٠ فقد كان بها ، فى الواقع ، ميل طبيعى لا يكبح الى الترف ، والى غرور الحياة الاجتماعية ٠٠ وخجل من وضعها الحاضر ، ومن فقرها ، ليس أقل من ميلها الأول قوة وتأصلا فى طبيعتها !

وانسياقا مع حلمها بذلك الفردوس الذى كانت تعلم أنها منبوذة منه – وكم ودت أن تدخله – كانت كثيرا ما تمزج الحقيقة بأحلامها ، وتخلط ما تملك بما تتوق اليه ، والحاضر بالمستقبل ٠٠ وتخترع ببلاهة ، وهى مندفعة على منحدر نزوتها العنيفة الواهمة ، حكايات غير معقولة تسردها دون أن تطرف : **فالملابس التى كانت تعطى لها كمنحة ، بعد استغناء صاحبتيها عنها ، كانت تتحول بقدرة قادر الى ملابس تصنعها لها ، بأمر منها ، خياطة بارعة في (فلورنسا) !٠٠** أما أمها فسليلة بيت نبيل يمت بالقرابة الى المرحومة زوجة رب تلك الاسرة التى تزورها فى عزبة (لاشيناى) ! وهى نفسها رفضت طلبا للزواج من شاب غنى جدا ، وله شهرته ! وفى الشتاء المقبل سوف تكون فى روما ، تلبية لدعوة تلقتها من « مركيزة » ! ٠٠ ومئة خرافة أخرى من وحى الغرور !

ومع أن « جيما » كانت بطبيعتها خجولا ، فقد كانت تمعن فى الجرأة وهى تردد أكاذيبها وترهاتها ، متحدية الاستهزاء والخزى ، أمام أشخاص يسعهم بسهولة أن يكذبوها ، ولكن هذه الجرأة المثيرة المجردة من كل سند كانت تدهش هؤلاء الاشخاص وتسكتهم فى النهاية ٠٠ وربما جعلتهم يرتابون فى ذاكرتهم !

والواقع أنها ما كان ليسعها هى نفسها أن تقول كيف وصلت الى الانسياق بهذا الشكل وراء تلك اللذة الشائهة ! ٠٠ لعل كذبتها الاولى كانت أدنى الى الحقيقة مما تلاها من أكاذيب ، فدفعتها الى المنحدر السىء الذى تمادت فيه بعد ذلك ٠٠ أو لعلها اعتقدت أنها تستطيع أن تخدع الآخرين كما

اعتادت أن تخدع نفسها ، فما لبثت أن غدت معروفة بين أهل البلدة جميعا ، وخاصة بين صديقاتها ، بوصفها كذابة مزمنة ، مضحكة ، ونادرة الجرأة ، وخارجة حقا عن المألوف ! ·· **كانت أولئك الصديقات يتعمدن تغذية قابليتها هـذه بالاسئلة ، وبالطعم يلقينه لها ، وبالشباك ينصبنها لها ·· فلقـد كانت تسليتهن الكبرى أن يرينها تتخذ هيئة التعالى و « التفـوق الاجتماعى » التى يعرفنها فيها ·· وكجهاز يبدأ فى العمـل عندما تدخل فيه قطعة نقود ، كانت تنطلق من فورها ـ فى ثقة رائعة ـ تسرد أكاذيبها الفادحـة الضخامة !** ·· وكانت رؤيتها وهى تكذب لعبة ممتعة تزجى بها صويحباتها الوقت ، على حد قولهن ·· سيما وقد كان هناك نوع من الاتقان المسرحى فى ذلك الولع التعس الذى أولعت به ، وفى الطريقة «الآلية» التى يعبر بها عن نفسه ! ·· وهكذا انتهت « جيما » التائهة فى أحلامها ، دون أن تلحظ ، الى أن خلقت حـولها جوا من السخرية القاسية ومن الازدراء المسلى !

ومن جهة أخرى ، كانت أمها صاحبة اليد الطولى فى دفعها الى منحدر ذلك الولع بالكذب المزهو بدلا من أن تكون أول من يمنعها ويحذرها ! ·· ذلك أن الارملة « فوريزى » ، تحت مظهر من البساطة والتواضع ، كانت تخفى جنونا معادلا لجنون ابنتها ·· مع فارق وحيد ، هوتجارب الام القديمة التىاضطرتها الى كبح المطامح التى لا تزال الابنة ، القليلة الخبرة ، تظهرها بشكل « مفتوح » ·· ولو أن الام كانت تكبتهذهالمطامحدون أن تتنازل مع ذلك عنها ! ·· وما كانت الصديقات الخبيثات اللاتى يجعلن من « جيما » لعبتهن ، لينجحن فى اسقاط أمها فى الخدعة نفسها ، اذ كانت شديدة الحذر والخوف ، تتوهج فى نفسها ذكريات هزائمها القديمة ·· وكما يرى السياسى المهزوم ـ الذى لم يستسلم ـ فى ابنه مدافعا عن سمعته ، ومنتقما لشخصه وعمله ، كانت مدام « فوريزى » تنظر الى شطحـات

ابنتها نظرة عطف ، ان لم تكن نظرة تشجيع !

* * *

◆ **وعندما** كانت « جيما » تعود من الضيعة ، كانت الأم تنفق شهرا كاملا فى حثها على سرد أضأل الوقائع التى جرت هناك ، وكان على جيما أن تروى لها أتفه ما قيل من كلام ، وتصف لها بالتفصيل الدقيق مظهر ومركز جميع الأشخاص الذين حظيت بمتعة القرب منهم ! ٠٠ وعندئذ ، كانت عيناها الزرقاوان اللتان أطفأت الايام بريقهما تلمعان لهذه « التقارير » وتستعيدان بريق الشباب الضاحك ٠٠ كانت تغدو امرأة أخرى ٠٠ **وبأنصاف كلمات ، وبايماءات من رأسها ، لم تكن تكف عن تأييد أحاديث ابنتها والتعليق عليها ٠٠ فاذا كان فى الأمر خيانة زوجية أو أى اشتباك عاطفى بين أشخاص رأتهم جيما أو سمعت عنهم كلاما ، تقبلت أمها حديث تلك الاقاويل بتهلل وفضول ، مع أنها ماكان ليفوتها أن تقسو فى حكمها على مثل هذه الأخطاء لو أنها وقعت من أناس صغار من جيرانها !٠٠ وكانت كلماتها القليلة المحبذة تنم عن ايمانها بأن مثل هذا الخروج على العرف ، عند طبقة معينة من الناس ، شىء مسموح به ! ٠٠ بل ــ أكثر من هذا ــ أن هذا الخروج «واجب» ، الى حد ما ، شأنه شأن حمل الحلى أو اقتناء سيارة !٠٠** وكانت هذه الصورة الوهمية ثابتة فى ذهن الام ، تدق وتستعصى على العلاج ، أكثر مما هى بالنسبة للابنة التى لا تزال ساذجة وصريحة ٠٠ الصورة الوهمية لعالم فيه رجال نبلاء ونساء حسان وأغنياء تتعقد بينهم خيوط اشتباكات خفية ، ويعيشون فى مساكن مفعمة بالبذخ ، ويبعثرون ثروات حسب أهواء نزواتهم ٠٠ وبالاجمال يمنحون أنفسهم كل المسرات الممكنة خارج نطاق كل قاعدة خلقية ، وفى جهل بالواجبات الاجتماعية !٠٠ وكان يتضح من كلام الأم أن تلك المسرات

محرمة فى العادة على السواد الاكبر من الناس ، وعلى من كان مثلهما قد هبط به الحال وصار من واجبه ان يعيش خاضعا لقواعد مستقرة وقاطعة فى تمشيها مع التقاليد .. وقد كانت هذه الافكار ترجع الى عهد الشباب الاول لمدام فوريزى ، الى حقبة كانت هذه الافكار فيها منتشرة على نطاق عالمى ، بحيث تسيطر على العادات وتوحى بطراز كامل من الأدب .. وقد ظلت أم جيما ، وهى التى لم تتثقف أو تعرف شيئا مما فى الكتب، وفية لروح تلك الحقبة، وفاءها للقبعة التى بطل استعمالها ومع ذلك استمرت هى تضعها على رأسها كلما قصدت الى الكنيسة ..

* * *

◆ **وكانت** « جيما » تستروح فى حنين أمها عزاء و « قوتا » لمطامحها وأكاذيبها !.. فقد كان التوافق بينهما فى هذا المضمار كاملا !.. وعندما كانتا تخوضان معا فى تلك الأحاديث ، كانتا تنسيان أنهما تسكنان فى سطح منزل ، وتنسيان أثاثهما المتواضع ، والزقاق المعتم الذى تفتح عليه نافذتهما ، وسكان « البنسيون » النائمين فى الحجرات المتلاصقة ، وكل أوجه حياة الضيق التى تعيشانها .. وتنتقلان ، كما بسحر ساحر ، الى العالم الخيالى الذى تحلمان به ، عالم رغباتهما الباطنة . وأحيانا كانت الام تطلق تنهدة أسى ، كأنها تريد أن تقول : « آه ! عندما كنت فى شبابى .. » .. لكنها كانت دائما تسيطر على نفسها، وتسكت .. **بعكس ابنتها « جيما » ، التى تجلس على الغطاء القطنى للسرير الحديدى الصغير ، وتمضى تتكلم بلا توقف ، وبتلك الحيوية الحارة وذلك الحماس المعهود فى ذوات المشاعر الساذجة !**

.. وترتفع أغنية خشنة من مخمور يمر تحت النافذة متساندا على الحائط .. و « جيما » تتكلم

وتموء قطط ويطارد بعضها بعضا فى سلالم الزقاق، و«جيما» تتكلم ..

ومن ناقوس الكاتدرائية ترن دقات انتصاف الليل ، ثقيلة وموحشة ، وجيما دائما تتكلم !

وكانت الام ، فى كل مساء تقريبا ، تنهض فى عذوبة ودون أن تقول شيئا ، وتقف أمام المرآة المائلة ، وتأخذ فى حل تصفيفة شعرها المعقدة وهى تجاوب ابنتها ، وتضع دبابيسها، واحدا بعد الآخر ، فوق الرخامة الرمادية التى تعلوها المرآة .. وعندما تصير فى قميصها ، كانت تقاطع ابنتها فى عز كلامها ، فى منتصف عبارة ، فتمنحها قبلة وتبعث بهـا الى فراشها !.. عندئذ كانت « جيما » تهوى من حالق ، لكنهاكانت تطيع وتمضى الى غرفتها فى مرارة وخيبة رجاء ..

لكنها ، هناك ، وقد أطفىء مصباحها وانكمش جسدهاالنحيل المتوقد تحت الاغطية ، لم تكن تتأخر فى استرداد نفسها .. فان هى الا لحظة أخرى حتى تتوه مع الاحلام من جديد ، ثم تنام قريرة العين !



الفصل الثانى

◆ وحدث ، ذات صيف ، أن تنبه ابن سيد العزبة فجأة الى وجود « جيما »، كما يحدث أن يكتشف المرء بعد طول السكن فى غرفة ، لون ورق الجدران .. أو رسم الأرضية !

.. كانت علاقته بصديقة أختيه ، الى ذلك الحين ، بريئة من كل خاطر دفين ، على نحو ماكانت فى صغرهم حين كانوا جميعا يلعبون معا . وكانت الألفة القديمة قد جعلت وجه جيما فى عينيه ، كوجهى أختيه ، سابحا فى جو طاهر محايد .. فما لحظها قط باهتمام وهو يعيش بالقرب منها ! ولو أنه سئل عن تكوينها لأعياه الجواب ، ولكان كل رده أنها طويلة ، وليست بالمفتقرة تماما الى الجمال . ثم ان « جيما » كانت فى نظره ، كماكانت عند جميع من يترددون على « الفيلا » التى فى العزبة ، شبه « مربية » ، وأدنى الى مرتبة الخدم منها الى مرتبة الضيفة .. كانت من أولئك الاشخاص الذين ينظر المرء اليهم دون أن يراهم !.. ولكن فجأة ، اختفت كل هذه الاستهانة ، وتغير كل شىء ..

وقد حدث هذا فى يوم من شهر أغسطس ، فى أشد أوقات السنة حرا . وكان « باولو » قد التمس النعاس عبثا فى حجرته ، حيث كان يختنق بين نوافذها المغلقة ، فخرج من البيت مع العصر يبغى العثور على ركن ظليل يهنأ له فيه النوم .. وكانت « الفيلا » القديمة الرحبة ذات الابهاء والشرفات قائمة فى حديقة ، وسط الحقول ، وواجهتها تشرف على سهل واسع مزروع ، ترتفع من ورائه أول طلائع التلال المكسوة بالاشجار .. فترك «باولو» البيت الهاجع وسعى الى التلال ، اذ كان يعرف غابة صغيرة من أشجار (القرو) تقع فى قلب أحد

الوديان ، على مسافة قريبة ـ وكان اسم العزبة « لاشيناى » قد اشتق من اسم أشجارها ـ ثم أمعن فى ممر يتلوى فى التل كالثعبان ، منكس الرأس تحت وهج الشمس ، مرهقا بالحر لا يفكر فى شىء • وكان يرى « الفيلا » عالية فوق مستواه ، بنوافذها اللامعة فى الشمس ، ومن ورائها السهل يترامى الى الأفق الذى شاع فيه اللون الابيض من بخار الصيف ، وقد تناثرت فيه أشجار الزيتون ••

فلما بلغ الغابة مشى تحت الاغصان الخفيضة باحثا عن مكان يستلقى فيه ، وكانت الارض رخوة ، سوداء ، اسفنجية ، مغطاة بالاوراق الجافة والثمار والاعواد الصغيرة المتعفنة •• ولم يكن الجو فى الغابة أروح من غيرها ، بل كان الهواء المحبوس الذى يهيم فيه الذباب الصغير يبدو ثقيلا خانقا •• وان يكن فيه مفر من الشمس الساطعة الملتهبة ، ومن انعكاس ضوئها الشديد الذى يعشى العيون •• وتلفت الشاب ، فلمح صخرة مكسوة بخضرة العفن ، قائمة بين جذعى شجرتين ، فخطر له أن وراء هذه الصخرة مكانا طيبا ، فاعتمد عليها بيديه وانحنى الى الامام •• وعند ذلك رأى « جيما » مستلقية على الارض ، نائمة ••

كانت نائمة على جنبها وذراعاها المرفوعتان تستران رأسها ، وكان ثوبها الخفيف من الحرير الاحمر يشف عن جزئيات جسمها النحيل ، المخروطة •• ولحظ رشاقة الفخذ وانسيابه ـ فلقد كان ، من الخصر الى الركبة ، مرسوما بتمامه ! ـ وكان من الطول بحيث يبدو غير متناسب مع الجسم كله •• كما لحظ التناقض الفريد بين بشرة الذراعين العاريتين ، الباردة ، الشاحبة ، وبين الشعر الغزير الرطب المشتعل الذى يظلل الابطين •• وأدهشته هذه التفصيلات ، كما لو كانت جيما لم تعد فتاة كل يوم ، بل امرأة أخرى ، مجهولة منه ، ومرغوبة ! •• وود أن يرى وجهها أيضا ، متسائلا تحت تأثير ذلك الاحساس المحير عما اذا كان سيجد فيه ما ألفه من ملامح وسمات •• فالتقط غصنا دقيقا وراح فى لطف يدغدغ به ذراعى الشابة النائمة •• وهزت جيما كتفيها قليلا ثم خفضت ذراعا ، فكشفت وجهها الملتهب المتورد وخصلاتها السوداء المتهدلة على الخدين • وظهر الوجه لباولو غريبا غير مألوف ، غرابة الجسم ذاتها •• بل لقد رأى فى وجه الفتاة مسحة من جمال مترفع لم يلحظه من قبل ! •• وكانت جيما فى نومها تقطب حاجبيها وطاقتى أنفها المعقوف ، بينما ترتسم تقطيبة خفيفة على شفتيها المنفرجتين ، وقد لحظ انهما ممتلئتان ، غضتان ، لهما لون الفاكهة الحمراء الداكنة ، وكان تنفسها الهادىء أثناء النوم قد ملأهما حياة وحيوية •• فاذا هما تشعلان فيه ، على حين غرة ، رغبة بلغ من عنفوانها أنه لولا عقبة الصخرة لانحنى فوضع عليهما شفتيه !

وأراد أن يوقظها ، فناداها مرات باسمها ، فى صوت مضطرب ، بدا

خافتا ثم أخذ يعلو .. حتى استيقظت أخيرا بحركة استولت على حواسه . حركة مليئة بالفتور الناعس .. وتلفتت برأسها وصدرها نحو مصدر الصوت :

– آه ! .. هو أنت !

قالتها بلهجتها المألوفة ، لكن عيونهما التقت فى اللحظة نفسها ، فاعتدلت جالسة فى وثبة مرتبكة ، وأردفت وهى تخفض رأسها :

– كنت نائمة ..

ثم نفضت ثوبها كى تسويه ، بضربات جافة من يديها المعروقتين .. وقد راحت تفكر من فورها فى تلك النظرة التى بغتتها فى عينى الشاب .. واندفعت بكل ما لخيالها الساذج من عنف ، نحو ذلك الطريق الذى ما خطر من قبل ببالها ، والذى بدا أنه يتفتح فجأة أمامها .. فأدارت نحو « باولو » وجها أدهشه ، يختلف عن ذاك الذى يعرفه .. وجها مفعما بالدلال العابث، غير المطمئن .. ثم قالت :

– كنت نائمة .. ولكن ما دمت قد أيقظتنى ، فتعال على الأقل كى أتتنس بصحبتك !

وبقفزة صار الى جانبها ..

★ ★ ★

◆ وقضيا العصر كله معا ، يتنزهان بين التلال ، ويقطفان أزهارا برية ، ارادت جيما ان تجمع منها باقة كبيرة . وكان حديثهما فى ذلك اليوم شبيها بما ألفا تبادله من حديث ، ولكن الجدة كانت فى النبرة والقسمات .. وكأن اتفاقا مضمرا قد عقد بينهما منذ التقى بصراهما فى تلك النظرة ، بداية لعهد جديد يحمل بذرة مستقبل خارج عن ارادتهما ! .. وكأنهما منذ تلك اللحظة اتفقا على أن من الخير ان لا يتعجلا الامور ، ولا يستحثا القدر !

.. وكانت « جيما » أسرع منه اندفاعا فى هذا الطريق ، وأكثر لهفة ، وأشد تأهبا للمزيد ! .. على حين كان لباولو ذلك الذكاء البسيط الصريح الذى ينعم به العقلاء ، والذى يتيح لصاحبه أن يرى من اللمحة الاولى كل نتائج أعماله ! .. كان وهو يسايرها يحاول قمع اضطرابه كلما عاوده ، قائلا لنفسه ان جيما هى صديقة أختيه ، وان علاقته بها – حتى ذلك الحين – كانت تشبه صلة القرابة ! .. بل انها كانت – فوق ذلك – قريبة فقيرة ، بلا معين ، تستقبل فى بيت أسرته من باب « الصدقة » ، الى حد ما .. فكان مركزها فى ذلك البيت أدنى من أن تكون له ندا ! .. لذلك كله فرض الفتى على نفسه الحرص ، كى لا ينساق الى خطأ يضعه ويضع

جيما قبله فى مركز حرج ٠٠ فكان يجاوب ايماءاتها المتـــوددة مراعيا ان لايتخطى حدود المسموح به ! ٠٠ ولم يكن هو يخفى أحاسيسه ، وانما حرص على أن لا يعبر عنها باحدى تلك الحركات التى ان صدرت منه فلا علاج لها ٠٠ والتى كانت نفسه تراوده فى بعض اللحظات على أن يستسلم لها !

كانت لعبة خطرة ، فلقد لمحت « جيما » تحفظه فأمعنت فى وخزه بحيلها الساذجة ! ٠٠ وهكذا انقضى يومهما فى ضحك ودعابة ٠٠ ثم عادا قبيل المساء الى « الفيلا » متعبين ، ولكنهما ناعما البال ٠٠

★ ★ ★

◆ ولم تأت الأيام التاليـة بجديد ، فكانا يقضيان الساعات معـا فوق التلال ، دون أن تفلح رغبة « باولو » ودلال « جيما » فى دفعه الى اعـلان عواطفه ! ٠٠ كان مركز الفتاة فى أسرته ، كشخصية تابعة تتلقى الاحسان، يمنعه من أن يستبيح معها نفس الحرية أو الصراحة التى كانت متاحة له لو أنه غازل صديقة فى مرتبة أختيه !

أما جيما فكانت من الفتيات اللواتى لا مفر للرجل معهن من ان يسلك احد طريقين : الزواج ! ٠٠ أو تركهن وشأنهن ! ٠٠ فما من سبيل معها الى غرام خفيف بين شاب وفتاة فى سن واحدة ، وانما هى المغامرة الخفيــة العنيفة ، غير الممتعة ٠٠ الشبيهة بصلة مع خادمة ! ٠٠ ورغم شغفه بها ، فقد كانت فكرة الزواج منها أبعد ما تكون عن ذهنه ٠٠ فى الوقت الذى كان يحنقه فيه ، ويخزيه ، ما يشعر به كل يوم من انزلاق نحو علاقة من تلك العلاقات المنكرة التى تقوم بين سيد شاب ووصيفة ! ٠٠ وهكذا صار يحمر خجلا ، أمام أختيه وضيوفهم ، كلما لفته ما فى حديثه معها من اهتمام يفوق المألوف ! ٠٠ فاذا انفرد معها ، لم يستطع منع نفسه من النزول الى مرتبتها ! ٠٠ وكان يلقاها دائما فى الخفاء : فى الليل ، وفى ساعات الراحة، وفى الممرات والأركان الخالية ، كما لو كان يلتقى بخادمة !

★ ★ ★

◆ وطال لومه لنفسه على عاطفته ، وتصرفاته التى كان يراها غير جديرة به ٠ ولم يكن يدرك أن لهـــا ما يبررها ، الى حد كبير ، من مسلك « جيما » نفسها ، بكل ما كان ينطوى عليه من تدبر وخضوع ٠٠ ورغم انه كان يؤثر ان تكون الفتاة ندا له ، وان ينحصر حبهما فى نوع من التسلية التى لانتائج لها ، والتى لا تؤول الى الفضيحة ، وغالبا ما تمهد للزواج ٠٠ الا انه كان على العكس من ذلك يحس بنفسه منساقا ، رغم كل جهوده ، نحو ولع خفى لا يتغذى بغير الرغبات العكرة ، بل يقوم على عواطف ليست أقل بعدا عن

الحب الحقيقى من الاشمئزاز ، والقسوة ، والاحتقار ..
وقد ظل يصارع هذه الدوافع المتناقضة ويقهرها ، حتى كانت عشية اليوم المحدد لرحيل « جيما » ، ففقد سيطرته على نفسه وغادر حجرته قاصدا حجرتها ، وهو لا يعرف ما ينوى فعله .. مطمئنا نفسه بأنه سيكتفى باعلان حبه ! .. وكانت حجرته وحجرتها يفصل بينهما صالون كبير مكتظ بالأثاث ، كان ضيوف البيت يجتمعون فيه بعد الظهر ، وكانت تسوده فى تلك الساعة من الليل ظلمة حالكة .. فتقدم نحو غرفتها ، وهو يصطدم - رغم حذره - بكرسى أو مائدة ، دون أن يفقد ادراكه بما فى هذا «الاقتحام» الليلى من نبو وغرابة .. فلما بلغ منتصف الصالون ، لمح بأسفل باب «جيما» خيطا من النور ، فعراه الاضطراب أمام فكرة يقظتها هناك - كما لو كانت تنتظر قدومه ! - لكنه تقدم على هدى النور حتى بلغ الباب ، فتوقف عنده لحظة مترددا ، قبل أن يجمع عزمه فيطرقه ! .. وارتفع صوت يدعو الطارق الى الدخول ، ولدهشته الشديدة لم يكن صوت جيما ، بل صوت احدى أختيه !

★ ★ ★

◆ كانت جيما - فى قميص من « الفوال » الأزرق محلى بورود صغيرة حمراء - جالسة عند رأس سريرها وظهرها الى الحائط ، وذراعاها النحيلتان مستلقيتان فوق الأغطية .. وقد بدت مسترخية .. عاشقة .. كما تبدو النساء فى فراشهن ! .. وقد جثمت عند قدميها « انا » ، صغرى أختيه : بنت لطيفة ظريفة لم تكد تتم أعوامها الثمانية عشرة . وكانت تبدو فريسة اضطراب مستعذب ، شأن انسان ما زال يرتاب فى حدث سعيد وجد فيه ما أرضى غروره !

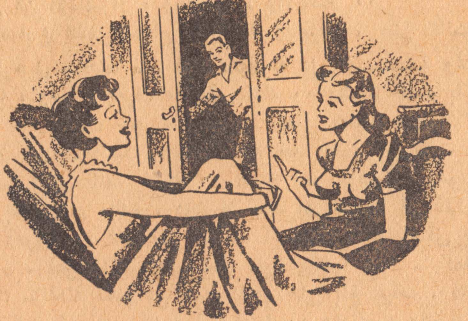
وصاحت « انا » حين رأت أخاها :

- جئت فى الوقت المناسب !

فاعتذر الشاب فى خفوت وهو لا يزال فى انفعال المفاجأة ، وسأل عما يدور ، فقالت « انا » وهى تمط شفتيها فى دلال ، وقد جلست على السرير وأخذت يد صديقتها فى يدها :

- قولى له أنت يا «جيما» .. قولى له ، انت.. فلست ادرى حقا كيف أروى له الامر !

والتفت باولو الى جيما ، فاتخذت هذه مظهر الامومة وهى تسرد الوقائع : شاب من رواد البيت سأل «انا» اليوم ان تكون زوجته .. وكانت جيما وهى تتكلم تدلى برأيها فى الخاطب ، بوصفها شخصا خبيرا ، ملما بهذا النوع من



الامور ٠٠ كانت ترى له مزايا عظيمة ، أبرزها انه ثرى ومن عائلة ممتازة ٠٠ وكانت «انا» تهز كتفيها - فهذه مزايا يسعها ان تهم جيما، الفقيرة المتواضعة ، أما هى ، فلا ! - كل ماقالته ان الطلب كان مفاجئا ، لانها لم تكن متهيئة له ، وانها لاتستطيع الآن ان تتخذ قرارها ٠٠ وهنا وجدت جيما من واجبها أن تقنعها ، بذلك الحماس المفرط المعهود عند الاشخاص ذوى الوضع الثانوى ، عندما يطلعهم شخص أعلى مقاما على مسألة لاتعنيهم فى شيء ٠٠ فقد تحمست وراحت - بايمان غريب - تصور المسرات التى يعد بها مثل هذا الزواج ، وتثنى على الشاب وأسرته ، رغم معرفتها الضئيلة بهم ٠٠ متوسلة الى « انا » أن تفكر قبل ان تقرر الرفض !٠٠ وبلغ من حماستها ماجعل صديقتها تقاطعها فجأة فى قسوة لم تخل من قصد :

- رويدك ، هدئى من روعك ! ٠٠ فانها على كل حال أشياء لاتعنيك كثيرا٠ ان من يسمعك يحسب انك انت التى ستتزوجين ، لا أنا !

كانت العبارة قاسية من جانب فتاة جاءت بنفسها قبل دقائق قليلة تتوسل الى «جيما» أن تعينها برأيها !٠٠ ولم تكن جيما تتوقع هذه الوخزة ، وهى تندفع فى تحمسها المنبعث عن مروءة ، غير المتأهب للدفاع ، فبدا عليها ان مشاعرها قد جرحت ، ولاذت بالصمت ، وقد احمر وجهها تحت وطأة المرارة والاحراج ٠٠ لكنها مالبثت أن حاولت اخفاء ضيقها تحت قناع من الحرارة المتكلفة ، فقالت : « وما شأنى ؟٠٠ انى لم أقصد غير مجرد الكلام٠ لقد سألتنى رأيى ، فقلت لك ماكنت أفعله لو كنت مكانك !»

وفتحت هذه الكلمات التى نمت عن اخلاصها ، عينى الشاب فجأة ! كان واضحا أن هذا الحماس الجميل قد انبعث عن شعور « جيما » ، وهى تسدى

النصح لصديقتها ، بأنها ترى نفسها حقا فى مكانها ! كما ان « جيما » كانت تقوم - عن وعى أو دون وعى - بعملية «استبدال» أخرى ، فتضع باولو مكان الشاب الذى يخطب ود «انا» !•• وما كان هذا الخطاب الذى ألقته غير ايماء الى باولو وشخصها •• وما كانت المزايا والطيبات التى تغنت بها سوى صورة لما فى ذهنها عن زواجها هى من فتاها !

★ ★ ★

◆ وهكذا عرف «باولو» ماكانت تفكر فيه ، وصار عليه هو أن يتخذقراره !

وهنا تمثلت له الحقيقة الواقعة بتمامها ، ووضح فى ذهنه معناها الذى غيبه عنه ولعه المبهم •• فاعتراه فجأة الخجل من نواياه ورغباته التى دفعته الى حجرة جيما !•• وعاد يراها الآن كما كان يراها دائما : فتاة بلا حول ولا طول ، تحت رحمته ورحمة كل من يريد استغلال ضعفها !

وأقسم لنفسه ان يضع منذ اليوم حدا لعبث كان - مع ذلك - بريئا •• وازداد قراره هذا سهولة امام فكرة رحيلها فى اليوم التالى !•• أما فى العام المقبل فلسوف يقضى الصيف فى مكان آخر ، حتى تعود علاقتهما الى ماكانت عليه من قبل ••

وكان الحوار اثناء ذلك قد استؤنف بين «انا» الحائرة و «جيما» المتحمسة •• وكانت جيما وهى تتكلم ترميه بين وقت وآخر بنظرات جريئة •• او تسائله رأيه ، كى تقحمه فى الحديث •• لكنه كان يمتنع عن الرد ويحول عينيه •• وأخيرا نهض فحيا الفتاتين وغادر الحجرة ••



الفصل الثالث

◆ **لم يكن** «باولو» مخطئا فيما بدا له ، فكما تكفى شرارة لاشعال قطعة من خشب يابس ، كان فى غزله البرىء الكفاية لاشعال مخيلة «جيما» بالآمال الوهمية ! .. فما عادت تحيا منذ التقيا أول مرة تحت أشجار (القرو) الا له ، وان كان ذلك منها أدنى الى الطموح والغرور منه الى الحب !.. لكن «جيما» **كانت فى تلك السن التى لا تكون العواطف فيها نقية خالصة ـ طيبة كانت ام شريرة ـ بل تمتزج فى ارادة للحياة واحدة عارمة .. ذلك ان فكرة الزواج من «باولو» لم تكن عندها منفصلة عن الرجاء فى الخروج السريع من وضعها الحاضر بكل مافيه من ضعة وبأساء .. فصارت تنتظر كل يوم ، فى قلق ، أن يصارحها بحبه ويحقق رجاءها ..** وهذه الرغبة العارمة ، الاشد قوة من شهوة الحواس ـ تلك الشهوة التى كانت ماتزال هاجعة فيها على استحياء ـ كانت تتخذ فى بعض الاحيان شكل فكرة متسلطة حقيقية ، فكان يحدث لها فى المساء ان تصلى راكعة على ركبتيها امام أية صورة دينية ، متوسلة فى ابتهال

من أجل نجاح خطتها ٠٠ أو تظل فى ساعات القيلولة الشديدة القيظ ممددة على سريرها تبنى صروح مشروعاتها ، وتتخيل حياتها عندما تغدو آخر الامر زوجة لباولو !٠٠ كانت ترى نفسها فى بيت جميل ، فى مدينة كبيرة ، يحف بها الاصدقاء، وتدعى الى كل مكان ٠٠ غنية ، ومعروفة ، ومرتفعـة فوق مستوى سواد الشعب !٠٠ انها كانت أحلاما بسيطة ورؤى بلهاء ،تجسمها لها حياة طويلةحافلة بالصعاب، والانكسارات، والرغبات ٠٠ تجسمها فى عنف خارق ، وفى دقة متهوسة ، كأنها رؤى عالم مثالى ٠٠

وفى انتظار تحقق هذه الاحلام ، وبدافع من الطموح ونفاد الصبر ، كانت تنساق بسذاجة ـ ودون ان تدرك ذلك ـ نحو تعريض نفسها للافتضاح والتورط !٠٠ صارت تسائل نفسها، وقد دنا ميعاد رحيلها دون ان تظفر بذلك الأمل المنشـود : **ألا يحسن بها أن تتخطى هى حدود الدلال المعقولة ، حتى تنال من الشاب ماتبغى ، باستفزاز اكثر توريطا !٠٠ لم يكن عندها ريب فى أن «باولو» يحبها ، فأيهما يهيج صبوته ويؤجج ناره : الاستسلام ، أم التأبى ؟!٠٠ أتراها تنجح فى الزواج منه اذا هى منحته خضوعها** ؟ ٠٠ كان هـذا هو السؤال الذى قاد عاطفتها الى التدبير وحبك الخطة ، حتى صارت تعتبر مفاتنها الشخصية أدوات نافعة يجمل بها استخدامها برباطة جأش عندما تتطلب ذلك ظروف الصراع !

وفاجأتها زيارة «باولو» ووجدانها فى هذه الحال ٠٠ وكانت الزيارة واقعـة شديدة الوضوح ، ولا سبيل الى الشك فى مغزاها : فها هو ذا مفتون بها حقا ، ولو انه وجدها وحيدة فى تلك الليلة ، لاستطاعت بقليل من اللباقة والانفعال المتقن أن تنتزع منه كل ما شاءت من وعود ، دون ان تمنحه كثيرا !٠٠ وقد غمرتها هذه الفكرة بفرح مشوب بغضب حزين : يا للمصادفة البلهاء ! لقد أفقدها وجود «انا» فى حجرتها فرصة ثمينـة ،

وربما تكون فريدة ٠٠ وقد لبثت طويلا بعد خروج صديقتها تفكر فيما تفعل ، وتلعن حظها السيء ، فتراودها فكرة الذهاب بدورها الى حجرة « باولو » ، ثم يطيب لها ان تمنى نفسها بأنه سيعود !٠٠ وتظل ترهف السمع ، راجية أن تسمعه يعبر الصالون الى مخدعها ٠٠ وكانت واثقة من شيء واحد على الاقل: انها تملكه ، وما عليها الا ان تدع للزمن اتمام الأمر !٠٠ وكان اطمئنانها الى هذه الفكرة هو الذى عدل بها آخر الامر عن الاقدام ، فاكتفت فى ليلتها بهذا النصر الجزئى ٠٠ ونامت على هذا العزاء !

★ ★ ★

◆ **ونهضت** فى اليوم التالى وملء رأسها آمال ومشروعات ٠٠ ولكن كم كانت خيبة أملها شديدة حين علمت ان «باولو» قد رحل الى روما ، « بسبب حلول موعد امتحانات الجامعة » ، كما قالت شقيقتاه !

٠٠ وانتظرته بلهفة طوال يومين ــ اليومين الباقيين لها فى ضيافة الاسرة ــ ثم يومين آخرين ، متعللة بحجة عثرت عليها لتأخير رحيلها ٠٠ وفى اليوم الثالث تلقت بطاقة بريد لاتحمل منه غير تحية !٠٠ وفى اليوم الرابع فهمت أنها لن تراه مرة أخرى فى هذه السنة ، فأذعنت للرحيل ٠٠

كان الصيف فى نهايته ، وضيوف الاسرة قد قرروا مغادرة « الفيلا » ٠٠ وكان من بينهم شابان كانا سيمران بالمدينة التى تقطنها « جيما » ، فى طريقهما الى روما ، فأخذاها معهما فى سيارتهما ٠٠ وكانت رحلة مرحة حافلة بالضحك والدعابة ، ولو ان جيما كانت فى ضحكها انما تنشد نسيان أحزانها ، والهرب من همها ٠٠ هم عودتها الى بيت أمها !٠٠ وأخيرا ظهرت فى أفق السهل الفسيح تلك القمم التى تعرفها جيما حق المعرفة ، وعلى أبعد ذروة منها ــ تلك الذروة الداكنة اللامعة

ككتلة من حديد على الضوء الخافت لسماء الخريف ـ طالعتها المدينة بأبراجها ، وسقوفها ، وجدرانها ٠٠ **وأحست بقلبها ينقبض لهذه الرؤية ، وعانت ، وهي تواصل الكلام والضحك مع رفيقيها ، نوعا من الشعور ـ سلفا ـ بشر مقبل ٠٠ كما لو كانت هذه الأبراج وهذه الواجهات الجهمة ، بنوافذها التى كانت أحيانا تتوهج تحت أشعة الشمس ، قد اتخذت أكثر مظاهرها عداوة ، كى تفزعها ، وتهددها بأشد وأتعس شتاء مر بها !**

وفجأة اقترحت فى صوت منفعل : « أوه ! لماذا لا نواصل السفر الى روما ؟ » ٠٠ فأجاب الشاب الذى كان يقود السيارة قائلا فى شهامة انه يرحب بها اذا شاءت أن تقيم فى بيته !٠٠ فخجلت جيما وتوعدته وهى تضحك بأن تأخذه بكلمته !

وحاول الشاب كى يستثيرها الى اللعبة أن يقنعها بأنه يتكلم جادا ، فاذا قبلت فهو عند كلمته ٠٠ وفى جو هذا العبث بلغوا مع مهبط الليل مدينة جيما ، فافترقوا فى ميدان الكاتدرائية ٠٠ واستأنف الشابان السفر الى روما ، بينما آبت جيما الى بيتها ٠٠

★ ★ ★

◆ **وكانت** الكآبة دائما طابع كل عودة لجيما من الريف ، فبعد ما تكون قد نعمت به خلال شهرين من ترف ورخاء ، كان المبنى القديم فى قلب الزقاق ، بسلمه الخشن الضيق وحجراته النابية ، يملأ نفس جيما باحساس قوى بالانهيار والبؤس **٠٠ فهى تقبل أمها فى فتور وتهرع من فورها الى دورة المياه ـ المكان الوحيد الذى يستطيع من بداخله أن يوصد على نفسه بالمفتاح ـ وهناك ، فى ذلك المنعزل السيىء الرائحة ، وأمام النافذة الصغيرة المطلة على الحدائق المشمسة ، كانت تتوه نظراتها وهى تبكى ما طاب لها البكاء ، قبل أن تلطف بالماء**



البارد عينيها المحمرتين وتعود الى أمها ٠٠ وهذه المرأة التى كانت تشارك فى هوى ابنتها ، كان يبدو عليها أنها تخمن مرارة هذه العودة ، فلم تكن ـ على حبها لجيما وسعادتها برؤيتها ـ تستقبلها بما قد يثقل عليها من مظاهر الحنان ، بل كانت تبزها فى البرود وقلة الكلام ٠٠ مكتفية ببضعة أسئلة عادية عن رحلتها ومقامها ، تعود بعدها الى مطبخها أو الى مايشغلها من حياكة ٠٠

أما فى هذه السنة فقد كان يلطف من مرارة جيما المعتادة رجاء عذب : فلئن عادت مرة أخرى الى بيتها الفقير ، فما ذلك الا لأمد قريب !٠٠ وكانت مفعمة النفس بهذا اليقين الى حد جعلها تتعجل الكلام عنه ، فنسيت اظهار امتعاضها التقليدى الذى كانت تختم به فى كل مرة موسم الصيف ، واندفعت تقبل أمها فى توثب خارق حقا للمألوف ٠٠ وقالت أمها ان خدودها أكثر توردا ونظرتها ألمع مما كانت يوم رحيلها !

وقالت جيما : « ليس هذا بغير سبب ! »

والتقت عند هذه الكلمات نظرتا المرأتين ، وفهمت احداهما الاخرى ، فعادتا الى تبادل القبلات !٠٠ وبعد فتح الحقائب

جلستا الى المائدة ، فألقت الام على الابنة السؤال التقليدى : « من يكون ؟٠٠ وكيف حدث الامر ؟ »

وحكت جيما تفصيلات هنائها دون أن تسمى « باولو » ، وصرحت بيقينها من أن كل شىء كان حريا أن يتم ، لو لم تكن صديقتها موجودة فى حجرتها عندما طرق الشـــاب بابها !

وبدت الام أقل اقتناعا ، لكنها رأت ابنتها فى أوج حلمها فلم تشأ أن تجردها من أوهامها ، واكتفت بأن تسألها من جديد عن اسم الشاب ؟٠٠ فقالت جيما فى مرح : « خمنى ! »

وبدأت الام تلقى أسئلة وتجرب افتراضات ، وكما يحدث فى لعبة البحث عن اسم شىء مخبوء ، كانت جيما تقول لها : « دنوت ! » أو « بعدت ! » كلما شارفت الحقيقة أو نأت عنها ٠٠ وكانت الأم تستطلع وتسأل وتقترح أسماء ، ثم لا تبلغ الحقيقة ، كأنما يطيب لها أن تبدى شيئا من العناد الغريب فى اخراج باولو من حقل بحثها !٠٠ وأخيرا صاحت جيما بنفاد صبر :

ـ كيف يسعك أن لا تفهمى ، مع انه استنتاج بسيط ؟! ٠٠ انه أول من كان يجدر بك أن تسمى ، دون أن تشطحى هكذا بعيدا فى بحثك !

ـ فمن يكون اذن ؟

ـ « باولو » طبعا ! كيف لم تفكرى فيه فى الحال ؟

وكانت تتوقع تهنئة ، أو على الاقل أسئلة ، فاذا بأمها صامتة تحدق فيها بعينين محا القلق نظرتهما الضاحكة الشابة !٠٠ فسألتها جيما مندهشة من هذا الأثر العجيب :

ـ لماذا تنظرين الى هكذا ؟ ألست راضية عن الأمر ؟

فأجابت الأم ببطء ، وفى صوت خفيض :

ـ طبعا ٠ ان كان ماتقولينه حقا ، فأنا به سعيدة ٠٠

لكن النبرة لم تكن مع ذلك نبرة من وقف لساعته على نبأ طيب !٠٠ بل لقد كان جفناها يخفقان وهى تهز رأسها وتعض شفتيها ، وتفرك منديلها بين أصابعها ٠٠ ثم سألت ابنتها فى

فضول خجول ، مختلس ومتوجس ، كما لو كانت تخشى الجواب : أى نوع من العلاقات كان لها مع الشاب !٠٠ وفكرت جيما فى سرها : « هو هذا اذن ! » ، ثم سارعت تطمئن أمها : فما كان بينها وبين باولو غير الكلام ، وما ورطت نفسها !

ولكن لم يبد أن هذه التأكيدات قد أحدثت أثرا كبيرا عند مدام « فوريزى » ، فقد تنهدت من جديد وتأملت ابنتها طويلا دون أن تكف عن لف منديلها واعادة لفه ، ويداها على ركبتيها ! **٠٠ وكان وجهها الابيض المكتنز قد اكتسى بسحابة تعبير أليم لم تستطع جيما فهمه أو تحديده : أهو حزن ، قلق ، خوف ، خزى ، شفقة ؟ ما من واحدة من هذه العواطف بدت لها كافية لوصف ماتشقى به أمها !٠٠ انه نوع من الكآبة الجنائزية كالذى يعترى شخصا عند وسادة مريض جاهل بحالته ولا علاج له ٠٠ ولا شجاعة عند زائره على أن يقول له الحقيقة !**

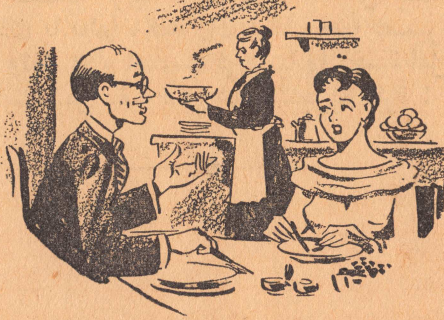
★ ★ ★

◆ **على أن** الأم لم تلبث أن نفضت عنها حالها وسيطرت على نفسها ، وأعلنت بحرارة مغتصبة أن لامطمع لها فوق أن تكون جيما راضية ٠٠ فسألتها جيما فى دهشة : لم تتكلم هكذا ؟

وأجابت الأم بأنها ليست واثقة تماما من ان نوايا الشاب جادة ، فهى تجد صلتهما طائشة ، وعلى جيمـا أن تتصرف بأقصى مايسعها من تحفظ ٠٠ وردت جيما فى حرارة قائلة ان شرف « باولو » لا يمكن أن يوضع موضع الشك !٠٠ لكن الأم كانت تنطوى على ارادة واضحة وراسخة للتهوين من شأن هـذا الزواج ، ولاعداد ابنتها لخيبة أمل متوقعة !

وصارت جيما ، فى ذلك اليوم والأيام التى تلته ، كلما تكلمت عن « باولو » ، لم تدع أمها الفرصة تفلت منها دون

أن تنتهزها للتلميح بريبة أو شبهة !‌‌.. **لكن جيما لم تحفل بذلك بل لاذت بآمالها ، فقد رأت لموقف أمها تفسيره فى الحب الأموى .. ولعل الأم أصيبت فى شبابها بخيبة أمل ، جعلتها تخشى على ابنتها من مغبة مثل هذه التجربة المرة !**



الفصل الرابع

◆ كأنما لم يكف المرأتين هم القلق الذى كان ينغصهما كلما تناقشتا بشأن « باولو » .. فجاء الشتاء هو الآخر قاسيا عليهما ، اذ زاد عبء فقرهما وطأة وتفاقما ، سيما وانهما لم تنجحا خلاله فى غير تأجير حجرة واحدة من الحجرات الثلاث التى اعتادتا تأجيرها كل شتاء ! .. وهكذا اضطرت « جيما » الى النزول عن ملابس كانت فى حاجة اليها ، واختصرت أمها نفقات البيت الى أقصى حد ممكن .. ثم توجت هذه الظروف الاليمة مضايقة من نوع آخر : فان نزيلهما الوحيد ، وهو أستاذ شاب لعلم الطبيعة اسمه « فاجنوتسى » ، وقع فى هوى جيما ،

وكان هذا « الفاجنوتسى » رجلا ضئيل الجسم ، يابسا ، خجولا ، كله انتفاضات عصبية مستعصية على القمع .. كما كان متزمتا فى نظامه ،متحرجا، متعالما ، لا يعرف شيئا ولا يهتم بشىء خارج نطاق عمله الذى كان يتكلم عنه باستمرار ، ويلون حديثه عنه بضحكات صغيرة و « قفشات مهنية » وانتفاضات عصبية ، وقد بدا عليه الرضى واللذة ! .. وكان رغم شبابه أصلع ، أصفر ، جافا كالشيخ المسن .. ولكن خلف نظارته الضخمة كانت تبرق وتطرف عينان صغيرتان ، غريبتان فى قوتهما ! .. وكان زملاوه متفقين فى الرأى على ان له مستقبلا .. بل كانوا يعتبرونه « استاذا » قبل أن يحصل على كرسى الاستاذية ! .. لكن « جيما » لم تكن تعرف من ذلك شيئا ـ ولو عرفته لما كانتله عندها أية قيمة ! ـ فانها كانت ترى فى «فاجنوتسى» رجلا مسكينا ، مأمون الجانب ، فاقد الاتزان ـ وعلى شىء من البلاهة ! ـ سيما وان كل ما يمت

للحياة الفكرية كان نصيبه منها الاحتقار الحاسم المطلق ، الذى لا ينبع من جهلها وحده ، بل من ايمانها الاعمى بصحة فهمها للقيم الانسانية .. الفهم الذى يهبط بهذا « البروفسور » الخامل الاصل الى أسفل درجة من السلم الاجتماعى ، فى حين تضع جيما فوق الذروة الشبان ذوى الالقاب ، الاغنياء ، المتبطلين ، الذين كانت تلقاهم كل صيف فى تلك الضيعة بالريف !

* * *

◆ لكن « فاجنوتسى » مع ذلك عاشق لها ، يغازلها فى غير خبرة - أسوأ غزل ! - على نحو « غشيم » مضحك ، مسرف فى التحبب والاهتمام المتكلف ، بلهجة « الاستاذية » .. وكان هذا يحدث على وجه العموم أثناء الوجبات ، وبشكل أندر فى المساء ، حين تقنع جيما بصحبة عاشقها المستهام « الغشيم » ، هربا من التبكير بالنوم ، ولعدم وجود « ما » هو أفضل منه فى جعبتها !

وكانت حجرة الطعام صغيرة ، طويلة فى غير سعة ، ذات سقف خشن البياض ، تشغلها بأكملها مائدة ضخمة . ولم يكن يجلس اليها فى هذا الشتاء غير جيما وفاجنوتسى ، أما مدام فوريزى فكانت دائما على قدميها تسعى بالاطباق .. وكانت جيما تأكل قليلا ، وبغير شهية ، ولا تكاد تتكلم .. وقد شردت نظراتها التائهة الى المصباح المدلى من السقف فوق مفرش المائدة - بسلك بسيط ، يستقر عليه الذباب ! - والذى تستره ظلة (أباجور) من حديد مطلى ، وتحركه ثقالة كبيرة من النحاس .. ولم يكن « فاجنوتسى » يكف عن الثرثرة : كان يطرف بعينيه ويدعك يديه وهو يحدثها عما يدور فى الجامعة ، ويتكلم برضى عميق عن أبحاثه فى المعمل ، وقد يجازف فى بعض الاحيان بطرفة من الطرائف التى يكررها الاساتذة كل سنة فى قاعات الدرس كى يروحوا عن تلاميذهم جدية العلوم الصعبة !

وكان فى وسع أى فتاة غير جيما أن تخمن ما لهذا الرجل من امتياز وذكاء ، وأن تفهم أن هذا الترنح فى الحديث مرجعه الى خجله وافتقاره الى التجربة ، وان توجهه هى الى ما تألف من موضوعات الحديث .. لكنها وهى مستغرقة فى أحلام الغرور والعظمة لم تكن ترى فيه الا نزيلا مملا ، فضوليا ، تتحمله مرغمة تحت ضغط حاجتها الى العيش ! .. وكان واجب مخاطبته والاستماع اليه يثير نقمتها ، حتى ليتحول احتقارها له أحيانا الى بغضاء متمكنة .. فكانت عذابا لها هذه الوجبات حول المائدة الكبيرة ، مع أمها الغادية الرائحة فى صمت وبطء تحمل الصحاف والأطباق من المطبخ الى صالة الأكل ومن صالة الأكل الى المطبخ ، و « فاجنوتسى » المتضرم جوى يطاردها هى بثرثرته وحركاته التى تثير حنقها !

وكان الشتاء رهيبا : اذا توقف المطر وسكتت قرقرة الماء المندفع

فى البالوعات الشرهة ، عصفت فى الزقاق ريح معولة تنطلق من تلك الجبال الغارقة فى المطر ، لترتفع الى السماء فى زوابع ودوامات ولهى ، أو تنقض فى بعض الاحيان كملاءات ثقيلة مبتلة تئن لها النوافذ وترتج الابواب داخل البيت !·· وكانت جيما تصغى الى ضجيج العاصفة ، وقرقعة الاوانى اذ ترتبها أمها فى المطبخ ، وصوت «فاجنوتسى» العصبى الذى تقطعه شهقات وضحكات قصيرة ·· فيبدو لها أن كل هذا الذى تسمعه غير حقيقى ، وكأنه آت من عالم قصى ناء تفصلها عنه منطقة سكون مهيب لا يمكن اقتحامها ! ·· وكانت هى ، فى هذا السكون ، أشبه بصورة مقدسة على حائط كنيسة ، لا تسمع الصلوات ولا الخطى والهمسات ، وانما تدير عينيها نحو السماء ·· وسماؤها هى كانت تلك « الفيلا » التى تجد فيها كل صيف حياة سهلة ومجتمعا لطيفا ! ·· وسواء عندها بعد ذلك أن يتكلم فاجنوتسى أو تصفر الريح أو ينقر المطر النافذة ، أو تنزلق الاطباق من يدى أمها ! ·· انها تستطيع دائما ، بالفكر ، أن تلوذ بعالم أحلامها ، ولا تترك على الارض الا شبيهة لها ، جامدة ، خاوية ، خرساء !

وهكذا مر الشتاء ، كئيبا !

★ ★ ★

◆ لكن جيما تلقت فى شهر مارس رسالة من « باولو » ! ·· كان وهو فى روما ـ حيث تضطره دراسته الى البقاء ـ قد تذكر جيما ، والميل الذى أحسه نحوها ·· وكما وقع له فى تلك الليلة التى دفعه هواه فيها الى بابها ، لم يقو على مقاومة عضة الذكرى ، واغراء تجديد علاقتهما القديمة ·· وربما ساوره أيضا أمل ، لا يعترف به حتى لنفسه ، فى أن يمهد للقائهما القريب فى الصيف ! ·· وكانت بداية الرسالة اعتذارا ، ثم استرجاعا لذكرى نزهاتهما ·· واختتمت بعبارات تفصح بغير التواء عن الحنين والرغبة !

وفى ذروة الرضى ردت جيما عليه من فورها برسالة أطول من رسالته مرتين ! ·· فكتب اليها مرة أخرى ·· وهكذا بدأت بينهما سلسلة متصلة من المراسلات · وأتاح لهما البعد جرأة على التخلى عن الكتمان القديم ، فتصارحا فى حرية وثقة ··

وزينت فرحة « جيما » لها أنها حقا ·· عاشقة ! ·· وكانت تخفى رسائل « باولو » فى أحد الأدراج ، تحت ملابسها الداخلية · وكلما وصلت رسالة منه راحت تقبلها بعد قراءتها ، فى شوق ملهوف ! وكان باولو قد كتب تلك الرسائل العاطفية خلال جو العمل ، والسأم ، والوحدة ·· فبدأ تحت تأثيرها يحب جيما حبا حقيقيا ·· أما هى فلم تكن تتحدث فى رسائلها الا عن نفسها وعن حياتها · كانت تصف الحزن والضيق والسأم من الريف ، وتعبر عن رغبتها فى تغيير حياتها ومغادرة بلدتها الصغيرة ·· كانت تفتح نفسها وتفضى

بمكنونها فى استسلام هائم مضطرب ، ملء بالسذاجة المصطنعة أو غير المقصودة ، وتودع رسائلها قليلا من كل شىء : عبارات طالعتها فى روايات ، أو سمعتها فى السينما ، ومقتطفات من محادثات اجتماعية ، وملاحظات مستعارة من كتبها المدرسية - وهى الكتب الوحيدة التى قرأتها فى حياتها قراءة جدية ! - ثم شذرات شتى من كل مكان ، غير صادرة منها ولا هى فكرت فيها أو أحستها ، لكنها كانت تثملها الى درجة انها تستدر دموعها !

كانت رسائل مجردة من الاخلاص ، من أول كلمة فيها الى آخر كلمة ، لكنها مكتوبة بمضاء الثقة ، بذلك الاتقان الملعون الذى ينفرد به الكذب اذا طال احتضانه قبل تفريخه ! ٠٠ ولم يكن باولو يعرف كل هذا ، فوجد فى رسائلها كنزا من الجمال ، وان أخذ عليها تنميقها وطابعها الادبى ٠٠ أما جيما فكانت متى ملأت ثمانى أو عشر صفحات من الاعترافات الوهمية والتقليدية ، تحس انها قد تحررت من وطأة الآلام الخفية غير المحتملة ! ٠٠ وقد أثر هذا الوهم على شخصها ذاته : فصارت لها هيئة أقل تعاليا وأقل اكتئابا ، وصار فتورها القديم هدوءا واثقا ، وتنبه الكثيرون من أهل البلدة الى أنها قد اكتسبت حسنا وتألقا !

★ ★ ★

◆ وكان أول من لحظ هذا الحسن ، ودار منه رأسه ، البروفيسور «فاجنوتسى» ٠٠ فبدا ذات مساء ، حول المائدة ، أكثر اغرابا وعصبية من المعتاد ٠ صار كل شىء يضحكه ، فيدعك يديه ويهمهم بكلمات مبهمة ، كما لو كان يكلم نفسه ، أو يرشق جيما فى جرأة بعينيه البراقتين الحادتين !٠٠ ثم لم تكد تنتهى الوجبة حتى مال على مدام فوريزى فأمسكها بقوة عنيفة من ذراعها وهمس فى أذنها بانه يريد أن يحدثها على انفراد !

وكانت همسته خفيضة ، ولكن ليس الى الحد الذى يمنع « جيما » من سماعها ٠٠ ففهمت على الفور ما سيحدث ، ونطق وجهها - فى انفعال - بتعبير التعالى والاحتقار ٠٠ ثم دفعت كرسيها ونهضت خارجة من الغرفة !

وعلل فاجنوتسى الغافل خروجها بأنه ناتج عن « الحياء » ٠٠ فلم يجرحه فعلها بل دغدغ زهوه !

وما أن صار وحيدا مع الام حتى ابتدرته هى : « خيرا ! ماذا هناك ؟ » ٠٠ فتلوى فاجنوتسى فى كرسيه بعصبية ، ويداه بين ساقيه ، وقال متلعثما : « مدام ٠٠ مدام ٠٠ هناك أشياء يصعب جدا قولها ! »

فقالت الارملة وقد كونت فكرتها واستخلصت ما عنده : « أى أشياء ؟ » ٠٠ ثم أضافت بهدوء وهى تشد الخيط من كرة الصوف وتبدأ فى تحريك ابرة التريكو : « ألعلك غير راض عن الطعام ؟ »

فاحتج فاجنوتسى كما لو كان قد مسه رعب : « عفوا ! ٠٠ بل انى أجد هنا كل راحة ، وما أكلت فى حياتى طعاما أشهى من هذا ٠٠ لا تظنى ، أرجوك ٠٠ »

ـ لعلها اذن الحجرة التى لا تعجبك ؟! هل ترغب فى تغيير الحجرة ؟

فأخذ رأسه بين يديه الاثنتين ، وهتف تائها ، يائسا : « كلا ، يا مدام ٠٠ كلا ، مطلقا ! »

لكن الام التى كانت تتسلى ، استمرت : « اذن فلا بد أنك ستعلن لى نبأ قرب رحيلك ، ولسوف يضايقنا ذلك ، أنا وجيما ٠٠ فلقد ألفناك ! »

فقال متوسلا ، مناشدا : « بل ان الامر يتعلق بشىء سعيد ٠٠ لى على الأقل ! »

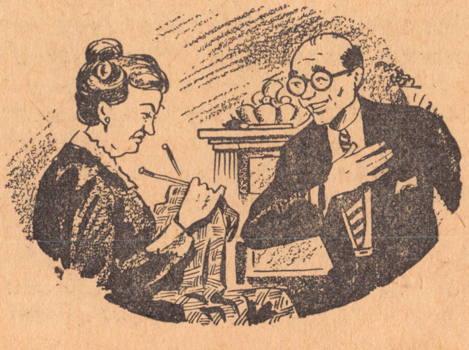
وقالت الام دون أن ترفع عينيها عن شغل ابرتها : « فى هذه الحالة سوف أسر من أجلك ٠٠ تشجع اذن وقص الامر على »

وعندئذ ضحك فاجنوتسى ضحكة عصبية وصاح وهو غير مستقر فى مقعده ، كأنما لم يعد يقوى على أن يظل مستريحا : « ليته لم يكن يلزمنى غير الشجاعة ! »

كان يبدو عليه أنه محموم ٠٠ لكنه ، فجأة ، حزم أمره ، فقبض بيد صلبة على ذراع الارملة وهو يقول لها بصوت شديد الخفوت : « ما قولك اذا سألتك يد ابنتك ؟ سترفضين ، هيه ! ٠٠ ستهزئين بى ؟! »

وضعت مدام فوريزى شغلها جانبا ، وألقت برأسها الى الوراء ٠٠ ثم تفرست فى الرجل القلق المنحنى نحوها ، وقالت بهدوء : « لست أملك أن أقول شيئا ، أنا ٠٠ اذ يلتزم أن نعرف رأى ابنتى ٠٠ »

وملأت هذه « الانابة » أعطاف فاجنوتسى فرحا ٠٠ فهتف ، كغير المصدق : « اذن فليس لديك ، شخصيا ، أى اعتراض ؟! ٠٠ هل أنت مستعدة أن تحدثى ابنتك فى الامر ؟ »



- ولم لا ؟
- فى الحال ؟
- فى الحال

فنهض فاجنوتسى مضطربا ، وان يكن راضيا ، ودار حول المائدة وهو يقفز ويدعك يديه ٠٠ صائحا : « مدام ! مدام ! ٠٠ لن تصدقينى ، لكن القلق يصيبنى بالحمى ٠٠ فالمرء لا يتخذ زوجة فى كل يوم ! »

وكانت هذه الكلمات مصحوبة بضحكة صغيرة ، جافة ، عصبية ٠٠ ثم استطرد الاستاذ : « أنا شاعر بخطورة خطوتى ٠٠ فما فكرت قط من قبل فى تأسيس أسرة ٠٠ انها فكرة خطرت لى على حين غرة ! ٠٠ هل تستطيعين تصورى متزوجا، ولى أطفال ؟ »

٠٠ وضحك من جديد ، ثم توقف لينظر الى مدام فوريزى : « هل تتصورينني هكذا حقا ؟ ٠٠ لا شىء يدفعنى الى الضحك مثل هذه الفكرة ! ٠٠ وابنتك ، ماذا هى قائلة ؟ »

فأجابت الارملة ، التى كانت تتأمله طيلة الوقت وقد بدا عليها التفكير : « هدىء من روعك ٠٠ ان ابنتى سوف تجيبك ب « نعم » أو « لا » ! »

فوثب فاجنوتسى وقد تقلص وجهه فى تقطيبة غريبة : « بلا شك : « نعم » أو « لا » ٠٠ كلمتان صغيرتان : « نعم » و « لا » ٠٠ هذا فى نظرك شىء بسيط ٠٠ ولكن ما العمل اذا لاذت بالصمت عن لا و نعم ؟! »

غير أن الام الجادة الحائرة لم تبتسم ، وانما أجابته : « فى الانتظار ٠٠ لست أعرف شيئا عنك يا بروفسور ٠٠ لست أعرف شيئا عن عائلتك ، ولا عن مركزك ٠٠ اجلس بالقرب منى وحدثنى عن نفسك قليلا »

فاندفع فاجنوتسى : « وكيف لا يا مدام فوريزى العزيزة جدا ؟ معذرة ٠٠ »

وجلس فى مواجهتها وبدأ يؤدى « واجب » تزويدها بجميع التفصيلات المنشودة : انه يتيم الاب والام ، وابن وحيد ، ميسور الحال - ان لم يقل انه غنى - يملك فى روما عدة عمارات ذات ايراد طيب ٠٠ ثم بدأ يسهب فى بند الوظيفة ، فدخل فى تفصيلات لانهائية ، مشوشة ، لبعض المؤامرات الجامعية المدبرة ضده ، والتى لن يتأخر طويلا انتصاره عليها بفضل كتاب يعكف عليه منذ سنوات ، وسوف يحدث ضجة عند نشره فى القريب العاجل ! ٠٠ وأوغل « الاستاذ » فى هذا الموضوع ، حتى لقد أحضر للمرأة من حجرته حزمة من أصول الطبع مليئة بالارقام والمعادلات والرسوم ! ٠٠ وهو يؤكد لها ، فى غير تواضع - ولا زهو ! - وانما ببساطة تامة ، كأمر جلى ، أنه كتاب مقدر له أن يحدث ثورة فى دنيا علم الطبيعة الحديث ، وأن يضمن له كرسيا فى جامعة روما !

.. وكان يتفزز وهو يتكلم ، عاجزا عن قمع حركاته العصبية ، رغم أن واجبه كان يقتضيه - كى يظفر بالثقة - أن يبدو جادا ، هادئا .. ورغم أن مدام فوريزى لم يكن فى وسعها فهم «الاستراتيجية» الجامعية ، أو تقدير قيمة الاوراق المطبوعة التى كان البروفسور يعرضها تحت أنفها .. الا أنها لمست بالبداهة أن وراء هذه العصبية وهذه الاطوار الغريبة شيئا حقيقيا ، جديا ، له أهمية من الصعب تقديرها .. وبينما كان هو مسترسلا فى اهتياجه المتزايد ، يائسا من اقناعها بقيمته الشخصية ، كانت هى قد تم اقتناعها بأن هذه « الصفقة » تفوق كل ما جرؤت على أن تؤمله !

ولكن بقى أن فاجنوتسى - الى جانب مظهره الزرى وضآلة حظه من وسامة الشباب - لم يكن ينتمى الى ذلك العالم المتألق النبيل الذى طمحت اليه هى وابنتها طوال حياتهما ! .. ذلك هو العائق الشديد الخطورة الذى وهنت أمامه كل حكمة المرأة المجربة ، بل الذى اعتبرته عقبة يكاد يكون من المستحيل تخطيها ! .. على أنها لم تكن ، رغم ذلك الولع الجنونى الهادىء بالعظمة ، من البلاهة بحيث لا ترى أن هذا الطلب من « فاجنوتسى » فى مثل ظروفها هى وابنتها لا يمكن أن يزدرى أو يهمل ، فان الخاطبين الذين تقدموا حتى الآن الى «جيما» كانوا رجالا متقدمين فى السن من أصحاب الحوانيت المعروفين فى المدينة ، ممن أرادوا فى بيوتهم فتاة فقيرة منكسرة ، ألفت انفاق القليل ، وان كانت فى الوقت نفسه حسنة التربية ، ترفع من قدرهم فى نظر مواطنيهم .. فاذا قورن فاجنوتسى بهؤلاء ، فان الاعمى يسعه أن يرى فيه « صفقة » طيبة !

ووجدت الام من واجبها ان تجيب الاستاذ بكلمات حذرة غير قاطعة ، دون ان تعد بشىء - ولكن دون ان تجزم أيضا بالرفض ! - ثم نصحته فى النهاية بأن يذهب لينام ، فلسوف تتحدث فى الأمر مع ابنتها .. وسيعرف الجواب فى الغد !



الفصـــل الخامس

◆ **عندما** انسحب « فاجنوتسى » ، بعد الكثير من التوسلات والتوصيات ، لبثت الأرملة فى مجلسها الى المائدة الخاليـــة ، ويداها على ركبتيها ، وعيناها ثابتتان على نور المصباح كانت تفكر !

تفكر فى حياتها الخاصة ـ المنتهية منذ الآن ـ وفى حياة ابنتها التى تكاد تبدأ ..

ولم يكن تفكيرها من قبيل الندم على أخطائها ـ التى التمعت فى ذاكرتها الآن على ضوء جديد ، واضح المغزى ـ ولا كان هذا التفكير منصبا على وجوب منع ابنتها من ارتكاب أخطاء مشابهة .. وانما كان تفكيرها بمثابة « رثاء » لآمال ابنتها البلهاء !

انها ماندمت قط على أخطائها ، بل كانت دائما متعلقة بها ، كما لو كانت هى وقود حياتها الفريد !.. فى شبابها كان الباعث على ندمها أنها لم تكن قادرة على ارتكاب أخطاء معينة .. واليوم كان مبعث مرارتها القاسية اكتشافها أن ابنتها

بدورها ستضطر لأن تتنازل عن تلك الأخطاء !٠٠ وملأها هذا الاكتشاف احساسا بالأسى ، والعجز ، والذهول ٠٠ كما يحدث حين يجد المرء نفسه وجها لوجه أمام ظلم صارخ ، غير مفهوم ، يلقى فى روعه أنه عاش حياته عبثا ، وعانى ماعانى ٠٠ بغير جدوى !٠٠ كانت الأم قد عاشت ، وأذعنت ، وضحت الى اليوم ، مسوقة بأمل واحد ـ يشبه مايتمناه الشخص لابنه من أمجاد عسكرية أو سياسية ـ ذلك هو أن ترى ابنتهــا عروسا نابهة فى المجتمــع ، دمية اجتماعية ، عابدة مال ، مزهوة ، أنانية ، وفاسدة حتى نخاعها !٠٠ **لذلك فهى اليوم حزينة لأن « جيما » لن تتزوج الا رجلا من طراز فاجنوتسى !٠٠ بل انها لتكاد تحس بالحاجة الى أن تستغفر ابنتها ، فقد نشأتها على أمان ووعود !٠٠ ومن ثم وجــدت مدام فوريزى نفسها ـ لأول مرة فى حياتها ـ تفكر فى الموت بمرارة ، كما تفكر فيه العقول « الضريرة » التافهة التى ترى فيه آخــر شقاواتها التى لا تستحقها ٠٠ وأشدها سوادا !**

وأخيرا نهضت الأم ، فأطفأت المصباح ٠٠ وقصدت الى جيما فى حجرتها !

* * *

• **جلست** مدام فوريزى عند قدم السرير ، وبدأت تقص أمر حديثها مع البروفيسور ٠٠ فأصغت اليها « جيما » وهى راقدة ، فى جمــود وتقزز ، وعينها الى أظافرها ٠٠ حتى اذا ما انتهت الأم من قصتها قالت الابنة :

ـ انه مجنون !٠٠ ولأهون على أن أدخــل الدير من أن أتزوجه !

فأطالت أمها النظر اليها ، دون أن تفتــح فمها ٠ كانت مضطربة ، لا تقوى على منع نفسها من مشاركة جيما فى ازدرائها لخاطبها ، لكنها فى الوقت نفسه كانت ترى أن هذا الطلب

ينبغى أن لا يرفض تماما ٠٠ ومن هنا غامرت بمعارضة ابنتها، ومحاولة تزيين الأمر لها ، فالرجل غنى ٠٠ و ٠٠

لكن جيما هزت كتفيها بازدراء ، واجابتها : « ذلك المهووس الهزيل !؟ ٠٠ لن أتزوجه ولو وزن بالذهب !»

٠٠ كانت تتكلم فى هدوء ، وبغير ضغينة ، ولكن كان من الواضح أنها ترفض مجرد بحث الموضوع !٠٠ ولقد أدهش هذا الهدوء أمها أكثر مما لو كانت قد ثارت ثورة عنيفة ٠٠ فحاولت الام ـ بكل حيطة ـ أن تقترح عليها أن تلاطف فاجنوتسى بعض الملاطفة ، فهو المرشح الوحيد في الوقت الحاضر ، على كل حال !٠٠ لكن جيما ابتسمت ابتسامة مترفعة، وقالت : « أما عن المرشحين ، فعندى من هو أحسن ! »

وبحركة متعالية أخرجت من درج منضدتها الليلية أربعة خطابات أو خمسة من بريد « باولو » ، وألقت بها فوق السرير ٠٠ فى وجه أمها !

وكأنما صعقت الأرملة التى لم تكن تعرف شيئا عن تلك الرسائل ، فلم تجرؤ على لمسها ـ لأن رؤيتها كانت فى ذاتها حدثا كبيرا ! ـ وعادت تلح من جديد ، مكررة أن من الخطأ رفض « فاجنوتسى » رفضا باتا ! ٠٠ وكانت تلح بنشاط فريد وغير معهود منها ، هى التى كانت دائما مذعنة لارادة ابنتها !٠٠ فماذا يكلف جيما أن تقول انها تريد أن تفكر ؟ لا شيء ٠٠ وهكذا تحتفظ بفاجنوتسى فى متناول يدها ، كما تحتفظ بطبق من الطعام ساخنا !

واكتفت جيما ، فى عدم اكتراثها المطلق بخاطبها السيىء الحظ ، بأن تجيب أمها : « لا مانع عندى ، فتصرفى كما تشائين ! »

وكانت قد استردت الرسائل فى يدها وجعلت تعيد قراءة فقرات منها باهتمام ، راض ، واضح ٠٠ فنظرت اليها أمها وهى تقرأ ، ثم نهضت متنهدة وتمنت لها نوما طيبا ٠٠وغادرت

الحجرة . أما الفتاة فلم تكد ترد تحية أمها !

★ ★ ★

♦ **وفى اليوم** التالى أقبل فاجنوتسى مرتجفا يطلب الرد الموعود !.. فأجابته مدام فوريزى ، كما قررت بالاتفاق مع جيما ، برد مبهم غير محدد : فابنتها تريد أن تفكر فى الأمر، وهى تشكره كثيرا .. لكنها تسأله ، فى الوقت الحاضر ، أن ينتظر ..!

وكان يخشى رفضا باتا ، فرحب بهذا الاتجاه ، بحرارة .. فلتفكرا على مهل ، فلتفكرا أطول مدة تريدانها .. فلا غضاضة عليهما فى الحيطة ، فى مثل هذا الأمر الدقيق !.. وأوصته مدام فوريزى ـ كى تجنب جيما الحاح عواطفه المتدفقة ، الذى قد يثير فيها صراحة خطرة ـ أن يتجنب أى تلميح الى هذا الموضوع فى كلامه مع جيما ، وأن يدع الوقت يفعل فعله ، فبعض الأمور يحسن عدم التعجل فيها .. وذات يوم جميل، عندما تكون جيما قد ألفت فكرة الزواج منه ، سيتلقى الرد الذى يتمناه !.. ووافق فاجنوتسى على هذه النصيحة أيضا ، بنفس الحماسة العصبية .. بل انه أراق على جيما بعد ذلك احتراما مليئا بالتحفظ ، ان لم يكن بالبرود .. ولو انه كان فى غيابها يمعن فى التهافت على أمها ، وتوصيتها بنفسه ، والتوسل اليها !.. وكانت مدام فوريزى تشجعه مرة ،وتثبط همته مرة أخرى ، كى تحتفظ به ـ كما قالت لابنتها ـ رهن اشارتها وفى متناول يدها ، يتلظى على نار الرجاء الخجول والقلق المفضوح !

وبين هذه المناورات وهذه الخدع .. مر الشتاء !



الفصل السادس

♦ ظل الطقس قارس البرد فى تلك البلدة المرتفعة طيلة شهر مارس ، ثم هطل المطر خلال شهر ابريل .. وأخيرا أقبل مايو تهب من أعطافه نسمات الربيع المنعشة .. واذا الريح التى كانت تصفر حول جدران المدينة قد فقدت صقيعها واكتسبت دفئا ، فاندفعت فى وفرة عبر السماء تطرد سحبا كبيرة بيضاء ، وتنفخ ستائر النوافذ المفتوحة الى أقصى مداها .. وقد ملأت الفضاء ، لا بصرخات وأنات ممزقة ، بل بصفير طويل واهن ، كما لو كانت مضناة مهزومة ، قد اعياها فتور الفصل الجديد الوافد فى أعقاب الشتاء ..

وكانت هذه الفترة من أسعد الفترات فى حياة جيما . كانت كل يوم – قرب الظهر ، وفى المساء ، ساعة النزهة – تذهب الى أقصى المدينة حتى تبلغ مرتفعا يشرف البصر منه على السهل المترامى حتى القمم الزرقاء التى ينطبق عندها الافق ، وهناك كانت تتملى من المنظر الفسيح وتتأمل

المنطقة التي تضم ضيعة أصدقائها .. وكان مرتفع من الأرض يخفي غابة القرو التي التقت فيها بباولو ، وعلى سفوح التلال كانت أشجار الزيتون السمراء تخفي الطرقات التي طالما تنزها فيها معا ! .. وكانت ، في وقفتها تلك ، تسند يديها على حاجز المرتفع وتتظاهر - كي لا تجذب اليها اهتمام من يعرفها - بأنها تتأمل قطاعا من تفصيلات المنظر ، كالدخان الأبيض لقطار عابر وراء صف من الأشجار ، أو أشكال السحب المتغيرة ، أو سيارة ركاب ترقى طريق الخندق **.. لكن نظرها كان يتجه برغمها الى موضع « الفيلا » التي في الضيعة ، فتمضي تحدث نفسها بأن حياتها ستتقرر بعد نحو شهر ، وأنها بعد أن ذاقت الفاقة والضنى كل ذلك الزمن سوف « تعيش » أخيرا ! .. فقد أخذ الحظ يبتسم لها ويلاطفها ، كما تبتسم لها هذه السماء ، والشمس ، وهذا السهل الجميل الخصب !**

★ ★ ★

◆ **وفي** تلك الأيام استمتعت لأول مرة بأشياء كان ذهنها المتكبر الساخط قد عاقها عن أن تقدرها حق قدرها ، بل عن أن تراها : من ذلك مفاتن الطبيعة ، ومسرات الحياة اليومية - التي ما عرفتها يوما ! - كما استطاع الرجاء في ان تنعم بأيام أسعد من أيامها الماضية ، أن يلطف من جفوتها البلهاء الفظة التي يتصف بها الطموح المغرور دائما ، فتنزل هذه الجفوة عن مكانها لحالة مختلفة من التهيؤ النفسي ، وتتفتح نفس الفتاة للمشاعر الهنيئة .. ولأول مرة أحست «جيما» انها تعيش في استسلام ، بغير تفكير ولا تدبير .. ولا أكاذيب !

لكنها ، ذات يوم - قرب نهاية الشهر - عادت من نزهتها المسائية المعتادة ، فوجدت أمها تدور في البيت في اضطراب

وقلق ، وقد برز من جيب مرولتها طرف مظروف ممزق ٠٠ وما ان رأت ابنتها حتى أشارت اليها أن تتبعها ٠٠ وذهبتا الى حجرة جيما ، وهناك أجلست مدام فوريزى ابنتها على السرير وتناولت يديها ، وهى تنظر اليها طويلا فى سكون ، وفى مواساة متألمة ، وأخيرا قالت :

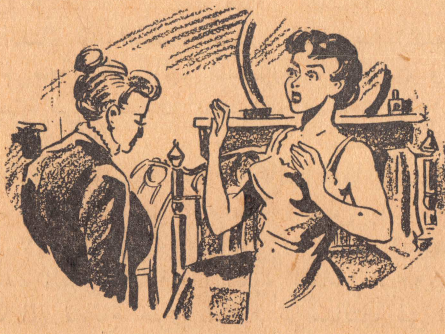
ـ يا صغيرتى جيما ، هيئى نفسك لنبأ سىء !

فلهثت دقات قلب جيما لهذه الكلمات ، وفكرت فى باولو، فشحب لونها ، وأحست أنها على وشك الاغمـــاء ٠٠ لكنها تحاملت على نفسها فسألت : « أى نبأ ؟ »

ـ تلقيت رسالة من ن ـ (اسم صاحب العزبة) ـ يقول فيها انه يأسف لانه لن يستطيع استقبالك فى هذا الصيف ٠٠ سيكون فى وسعك ان ترى « آنا » و « لويز » ، وتريانك، ولكن ذلك لن يكون فى العزبة بعد الآن !

وصاحت جيما : « كيف ! ٠٠ وهل لن يقتصر ذلك أيضا على هذه السنة وحدها ؟ ٠٠ هل سيسرى على الســـنوات القادمة كذلك ؟ »

ـ أجل ٠ يقول انه يحسن أن لا تعودى الى هناك مرة أخرى !



وكانت الأرملة تتوقع أن ترى ابنتها تنهار باكيــة تحت وطأة هذا الاقصاء ، بل كانت تكاد تتمنى ذلك ـ فان الألم الشاكى المذعن كان يلائم خططها خيرا من سواه ـ لكن جيما لم تكن ذات طبع ضعيف ، وكانت قوتها العاطفيــة تستبعد الدموع وتجنح بها الى الاستنكار والغضب ٠٠ فلم تلبث طويلا مصعوقة بدهشتها وانما انتزعت نفسها فجأة من قبلات أمها المواسية وقفزت على قدميها ، صائحة فى غضبة هادرة :

ـ أنا أعرف تفسير كل هذا ، انه بسبب باولو ! ٠٠ قولى الحقيقة ٠٠ انهم بسبب باولو لم يعودوا يريدون رؤيتى !

ـ أجل يا جيما ، كل ذلك بسببه ٠٠ ولكن ما جدوى أن تضيقى بالأمر ؟ ٠٠ أليس أولى من هذا أن ٠٠

فلم تدعها ابنتها تتم قولهـــا ، بل قاطعتها : « **ان الأب لا يعتبرنى جديرة بأن أدخل فى أسرته !٠٠ بأن أغدو زوجة ابنــه ! ٠٠ طبعا ! من دواعى شـــقائى انى أحمل اسم فوريزى ، فوق انى بلا مال ، فلو كنت ابنة رجل من رجال الصناعة فى (ميلانو) ، لاختفت قصة أصلى ومحتدى هذه ، كأنما بسحر ساحر ! ٠٠ لكن كل جريمتى اننى لست غنية ، ولا نبيلة !** »

كانت الفتاة قد أطلقت العنان لمشاعرها المنبعثـــة من كرامتها الجريحة وكبريائها المدحورة ، وكانت وهى تتــكلم تروح وتجىء فى حجرتها بخطوات عصبية ، من ســاقيها الطويلتين الرشيقتين ، ثم تتوقف وقــد ضمت قبضتيها وضربت الأرض بكعبيها ! ٠٠ وكانت أمها تتأملها فى سكون وهى جالسة على السرير ، مفعمة النفس بالشـفقة عليها ، وبشىء من الارتياح مبعثه أملها فى ان تنفس ابنتها عن كربها وحنقها بهذه الصرخات وهذا اللوم العاجز ، دون ان يتعدى الأمر ذلك الى نتائج أخرى ! ٠٠ ثم سألتها فى النهاية :

ـ وماذا أنت فاعلة الآن يا جيما ؟ لا مفر من ٠٠

ـ هراء !

قالتها البنت وانتصبت أمام أمها صائحة : « انى أهزأ بهم وبدارهم ومدعويهم ! ٠٠ ولكن « باولو » شيء آخر ٠ ليفعلوا ما بدا لهم ، ولكن ليبتعدوا عن باولو ٠٠ فنحن راشدان ، هو وأنا ، وسنتزوج رغم أنف كل من يريدون بنا سوءا ٠٠ أقسم لك على هذا !

ـ ولكن يا صغيرتى المسكينة ، ماذا فى وسعك ان تفعلى ؟

وهنا لم تعد جيما تتكلم ، بل تصرخ : « ماذا أفعل ؟ سأفعل أبسط شيء يمكن تصوره ٠٠ سأكتب الى باولو أن يحضر فى الحال ، وأطلعه على ما بلغته الامور ، وسيرى هو ان الحق فى جانبى ، وبذلك لن تمضى خمسة عشر يوما على الأكثر حتى نكون قد تزوجنا ! »

وثب الى قلب مدام فوريزى خوف مفاجيء ، فلقد كان فى الرسالة التى تلقتها تلميح واضح من الأب الى رغبة ابنه فى الزواج من جيما ، اذ جاءه فأنبأه بأنه يحبها وانه قد قرر الزواج منها ٠٠ فما من وسيلة شريفة تسمح له أن يختص بها نفسه غير الزواج ٠٠ وكانت جيما تجهل قرار « باولو » هذا ، فهى قد تحدثت عنه بهذه اللهجة من قبيل التحدى ، وليس عن علم ٠ لكن أمها كانت بدورها تجهل هذا ، فتولاها الرعب من أن تكون ابنتها قادرة على تنفيذ مشروعها الجريء ٠٠ وقالت فجأة : « عدينى أنك لن تفعلى شيئا من هذا القبيل ، وانك ستكفين عن الكتابة اليه ٠٠ »

فقالت جيما بصراحة : « أنا ؟ هـذا لن يكون أبدا ٠٠ أأرضى بالهزيمة ، كى لا ألوث اسمهم السامى ؟٠٠ وأعامل كخادمة ؟ ٠٠ لست مجنونة ٠٠ واعلمى أنى سأكتب له هـذا المساء ! »

ـ وماذا تقولين له ؟

ـ أنني أرغب فى أن أكلمه ، وأن يحضر فى الحال !

والتقت أعينهما لحظة فى سكون ، وكانت الام تهز رأسها فى هدوء حزين ، وتوسل صامت ٠٠ ثم تنهدت وجذبت ابنتها الى جانبها قائلة : «صغيرتى جيما ،تعالى‌هنا واسمعينى ٠٠ هناك دوافع جدية ، غير هذه التى تفترضينها ، تجعل هذا الزواج مستحيلا ! ٠٠ فان كنت تضمرين لى حبا فتنازلى عن سؤالى عنها وافعلى ما أقوله لك ٠٠ »

ولم تفت جيما لهجة أمها الخطيرة ، لكنها فى عنادها استروحت شركا ، فلم تشأ أن تستسلم : « لست أرى مانعا غير الذى قلته ، والليلة سأكتب له ! »

وحاولت الام ، دون ان تتمسك باهداب أمل واهم ، أن تناشد عاطفة البنوة فى الفتاة ، فقالت : « جيما ! هذا الذى تعتزمينه يسبب لى حزنا شديدا ٠٠ »

لكن جيما قاطعتها فى حدة : « **انى أفضل أن أسبب لك حزنا شديدا كما تقولين ، على أن أذعن دون أن أعرف لذلك سببا !**

ـ هناك سبب !

ـ اذن فاذكريه !

لم تدر الام كيف تتنصل من هذا الاحراج القاطع ، فسكتت ونكست رأسها ٠٠ واذ ذاك أردفت جيما فى رقة مواسية : « **أترين يا أماه ، انك أنت التى تتراجعين ، فى اللحظة التى تتطلب منك على العكس تشددا وصلابة ! ٠٠ فلنرهم اننا أنداد لهم !** »

لم يبد على الام أنها فهمت ، أو حتى انها كانت تصغى !٠٠ فان نظرتها الى ابنتها كانت نظرة مواربة مترددة ٠٠ لكن هذه الكلمات الأخيرة جعلتها تحزم أمرها : فرفعت رأسها ، وقد لمعت عيناها الجريئتان كما تلمعان فى أسعد لحظاتها ، وقالت بغتة :

ـ أنت على الأقل ند لهم ، ما دام دمهم يجرى فى عروقك !

فسألت جيما فى ذهول : « ماذا تعنين ؟ »

فبدت على الام هيئة من تفشى سرا ، فى زهو وتفاخر ـ كما لو كان افضاؤها بسرها يبرر عندها خروجها على حياء الامومة ـ وشرعت تقول : « **عندما كنت بنتا ـ قبل زواجى من « فوريزى » ـ تبادلنا الحب أنا ووالد « باولو » .. وقد ولدت أنت كثمرة لهذا الحب .. فأنت ابنة ذلك الثرى ، شأنك شأن « انا » و « لويز » ! .. وما تصورت أن يعشقك باولو ، والا كنت نبهتك .. والآن ، هل فهمت لماذا لا يمكن اتمام هذا الزواج ؟** »

كان غضب جيما قد زايلها .. لكن دهشتها جعلتها ترتاب فى أنها أحسنت السمع .. فهتفت منكرة :

ـ باولو وأنا .. أخ وأخت ؟

ـ هو هذا !

وكما روت الأم قصتها دون خزى ولا أسى ، وانما بلهجة الرضى عن الماضى ! .. كذلك عجزت جيما عن ان تحس الفاجعة فى تلك السقطة التى جعلتها تنظر الى أخيها بعين « الخطيبة » ! .. ولو انها كانت عاشقة حقا لهالها الأمر .. لكنها ، فى طموحها الوصولى ، لم تكن العاطفة التى تملكتها الا من قبيل زهو الغرور ! .. فلقد تمثل لها باولو كأداة تحقق لها حلم الحياة المترفة ، فكان ذلك ما أنقذها اليوم من عذاب الصدمة التى كان مفروضا ان تصيب عاطفتها العارمة اليائسة لو انها كانت عاطفة صادقة ! .. بل ولم يصدم احساسها ما انطوى عليه اعتراف أمها من تجاوز لمشاعر الأمومة .. ولا خطر لها ان شقاءها لم يكن راجعا الى القدر المحتوم ، وانما كانت هى التى استثارته بأفانين المرأة اللعوب ! .. كل الذى بقى فى نفسها بعد انقضاء لحظة الدهشة الاولى كان الاحساس الغامر بالظلم ، والأسف

العنيد المر ! ٠٠ **بل انها – دون ان تعترف بذلك لنفسها – كادت تأسف على ان ذلك الزواج لم يتم قبل ان تقف على أمر تلك القرابة غير المتوقعة ٠٠ فانها وباولو كانا قمينين عندئذ ان ينفصلا – بعد عشرتهما القصيرة – نزولا على حكم الأخوة ٠٠ لكنها كانت ستظل فى نظر العالم امرأته ، وهذا هو ما يهمها !** ٠٠ وبينما كانت فتاة غيرها تتنفس الصعداء ، فى ارتياح مذعور ، لنجاتها من الخطر البشع الذى تعرضت له ، وأفلتت منه ٠٠ لم تكن هى – جيما – ترى فى هــذا الافلات الا « كارثة » اجتماعية ، أفقدتها كل شىء : الدار التى فى الضيعة ، والضيوف المترفين ، والصداقات التى تشبع الزهو ، والحفلات ، والحياة الناعمة السهلة ٠٠ فان كل ذلك قد ضاع منها !

واغرورقت عيناها بالدموع ، واذ حاولت امها ان تعزيها ، أشارت اليها كى تصمت ، ثم نكست رأسها طويلا وهى تبكى فى منديلها ٠٠ وأحيانا كانت تند عنهــا تنهدة عميقة ، وكأن شيئا فيها يتمزق ، ثم تعود فتصعد الى عينيها دموع جديدة غزيرة ٠٠ دموع كان ينساب فيها كل قلقها ، وغرورها ، ومطامحها ، ورغباتها – كل ما تمنته فى هذا العهد الاخير أو كبتته ! – كما تندفع الرياح العاتية عندما تهب العاصفة ٠٠

وأخيرا رفعت رأسها ، فاذا وجهها النحيل المتوقد قد جفت عيناه ٠٠ وقالت أمها ، التى كانت قد انتظرت هذه اللحظة بصبر نافد : « ليست هذه بأشياء محببة الى السمع ، ولكن ما الحيــلة يا صغيرتى جيما ؟ ٠٠ أنا أيضــا ، فى زمانى ٠٠ »

وكانت تبغى الاستمرار فى تضمين مواساتها المتعلقــة لابنتها ، مزيدا من الاعترافات والذكريات المتخلفـة عن حبها الغابر ٠٠ لو لم تقاطعها جيما ، مدفوعة بالسأم أكثر منهــا بالاحساس بالكرامة :

ـ لنكف عن هذا الحديث يا أماه !

وما كان هذا النهى القاطع ليروق مدام فوريزى ، فلقد عاشت ثلاثين عاما فى انتظار هذه اللحظة العذبة التى تسترجع فيها ، بصوت مسموع ، وبعد طول الصمت ، أعز أخطائها ٠٠ فلما حلت هذه اللحظة أخيرا ، سئلت ان تنزل عنها ٠٠ وتعود الى الصمت ! ٠٠ اذن فمتى ـ بعد تفويت هذه الفرصة ـ تستطيع أن تتكلم ، ولمن ، اذا كانت ابنتها تأبى الاستماع اليها ؟! ٠٠ وما جدوى الحياة اذن بعد هذا ؟!

ومع ذلك فقد أذعنت ، فلاذت بالصمت ٠٠ مخفية ارتباكها بالتظاهر بترتيب بضعة أشياء دقيقة على منضدة ابنتها ٠٠ ولكن لم تمض لحظات حتى عاودها ، فغلبها ، الحنين الى قصة حياتها من جديد ٠٠ فاذا بها تقول ، كالحالمة :

ـ كان يحبنى ، ويبغى الزواج منى ٠٠ لكن اسرته أصرت على الرفض !

وظلت جيما جامدة لا تجيب !

٠٠ واستمرت الأم وقد شجعها هذا السكوت : « ليس فى الأمر ما يخزيك ، فدمهم يجرى فى عروقك ، وكان من حقك ان تحملى اسمهم ٠٠ ولكن ، سترين ، سوف يدعونك فى السنة القادمة ! »

٠٠ وكان ذلك فوق ما تحتمل جيما ، فقد كان الموقف ـ فيما أحست ـ مفعما بالسخرية ٠٠ فصاحت غاضبة وهى تقفز من سريرها :

ـ اصمتى ! ٠٠ لقد رجوتك ان لا تعودى الى هذا الحديث ٠٠ ليتك تدعيننى بمفردى !

وفى ارتباك ، ومذلة ، واذعان لواجب الصمت النهائى ٠٠ طبعت الأم قبلة على خد ابنتها المتشنجة ، النافدة الصبر ٠٠ وخرجت مندفعة من الغرفة !



الفصـــل السابع

◆ لم يحمل الليل الى « جيما » نصحا ، كما يقول المثل العامى ٠٠ بل ان النوم استعصى عليها وقتا طويلا ، فظلت مفتـــوحة العينين ، تحدق فى الظلام ، وتفكر ٠٠ وكلما خطر لها المستقبل ، انقبض قلبها فى ذعر كالذى يداخل المرء اذا مست يده جسدا ميتا !

لقد مات الطموح الذى اعتاد من قبل ان يضفى على أيامها المقبـــلة ـ فى خيالها ـ ألوانا ضـاحكة ٠ وما عاد الزمن يبشرها بغير صـــور جرداء ، لا تستشعر ازاءها شيئا من الفضول الباعث على الاهتمام ، ولا رغبـــة فى المضى الى الامام ، فكانت كأولئك المرضى الذين اذا ما أبصروا مكانا أو فضـاء فسيحا أمامهم ، أحسوا بركبهم تتخاذل تحتهم ! ٠٠ بل انها أحست اشمئزازا لا قبل لها به ، ورغبة مخبولة فى الفرار ٠٠ فى الرجوع الى الوراء ٠٠ لا الى السنوات القريبة ـ على ما فيها من شقاء ـ وانما الى تلك السنين الأبعد منالا ٠٠ سنى الطفولة ٠٠ تلك الحقبة التى لم تكن قد وعت فيها بعد نفســها ، ولا دنياها !

ولقد أدركت هزيمتها واعترفت بها ، بيد انها تاهت عن تفهم سر تعاستها ، والاهتداء الى القوى التى خلقت هذه التعاسة ! ٠٠ بل لقد عز عليها ان تفهم حياتها نفسها ، فكرهت هذه الحياة ونبذتها طواعية !

وعلى هذا اليأس نامت ٠٠ وعليه صحت فى اليوم التالى ، حين جاءت أمها توقظها كعادتها ، قائلة بلطف وهى تتقدم فى ظلمة الحجرة : « هيا ، انهضى ٠٠ فان « فاجنوتسى » فى انتظارك ، ليصحبك فى نزهة »

لكنها لم تتحرك ٠٠ وتذكرت وهى تدس أنفها فى الوسادة ان اليوم (الأحد) ، وانها كانت قد وعدت « فاجنوتسى » و أحد أصدقائه بأن تصحبهما فى جولة فى الضواحى ٠٠ وذكرها اسم « فاجنوتسى » بطائفة من امور أخرى غامضة ، وكما تفعل المريضة اذ تعاودها عند اليقظة آلام الأمس ، فتمد يدها الى الدواء الذى يسكن ألمها ويردها الى النوم ، عمدت « جيما » الى قرار حاسم دون ما تردد ، فقالت لامها فى بطء وصوت مثقل : « اذهبى فقولى له اننى متعبة ، ولن أخرج للنزهة اليوم ٠٠ وقولى له أيضا اننى أقبل عرضه ، واننى مستعدة لان أغدو زوجته ، فى أقرب وقت ممكن ! »

فقالت الأم مشدوهة : « كيف ؟ »

فرددت جيما قولها : « قولى له اننى مستعدة للزواج منه » ٠٠ ثم أغمضت عينيها !

ـ أجادة فى حديثك ؟

فأجابت فى تنهد : « كل الجد ! » ٠٠ ثم أضافت متسائلة بصوت أقوى ، بادى الانفعال : « أفهمت ؟ »

ـ حسن ! حسن ! سأقول له هذا فى الحال

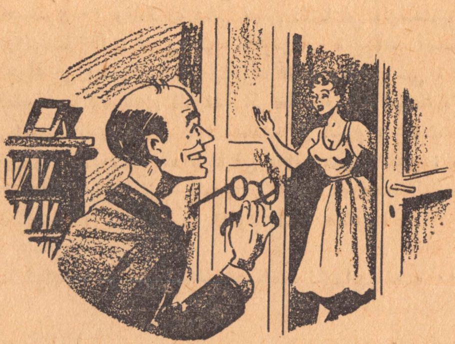
ـ اذهبى اذن ودعينى أنام

واستدارت نحو الحائط ، وما لبثت ان راحت فى سبات عميق !

★ ★ ★

◆ وعندما استيقظت ثانية ، كان الوقت ظهرا ٠ واذ تذكرت الأمر الذى ألقته الى أمها ، ارتاحت الى انها اتخذت قرارها هذا دون ما تفكير ، وهى نصف نائمة ! فلقد أصبح « فاجنوتسى » يعادل أى شخص آخر سواه ، ما دامت قد فقدت الأمل ولم يعد لها رجاء فى شىء ٠٠ واذ رسخت هذه الفكرة فى رأسها ، نهضت متأهبة للقاء الأول مع خطيبها !

ووجدت فاجنوتسى فى قاعة الطعام ٠٠ وقد عدل عن نزهته اذ علم بالنبأ العظيم ، فظل جالسا الى المائدة ثلاث ساعات لا يحير حراكا ، ولا يحول بصره عن باب حجرتها ! ٠٠ فلما رآها ، نهض ، ونزع نظارته عن عينيه ، وسألها متلعثما عما اذا كانت قد قبلت حقا ان تكون زوجته ؟ ٠٠ وكأنما كانت « جيما » تبصره للمرة الاولى ، فأحست لفورها باشمئزاز اذ رأته أمامها : أصفر ، أصلع ، مهزولا ! ٠٠ أهذا اذن هو الرجل الذى سيغدو رفيق حياتها ، طوال العمر ؟ ٠٠ ولم تتمالك ان فكرت فى مغزى ذلك ، مستنكرة ، مستبشعة ، بيد انها سرعان ما سيطرت على نفسها ، وفرضت على ملامحها هدوءا ما كان أبعدها عن الاحساس به ! ٠٠ ثم ردت عن سؤاله بالايجاب ، فأفاض



فاجنوتسى ، فى ارتباك ، يشرح المشاعر التى أوحتها اليه تلك الدقيقة المباركة : كان سعيدا ، بل انه ما كان ليصدق وجود مثل هذه السعادة ، فقد كان يدرك انه غير اهل للفتاة ٠٠ كان من العسير عليه ان يصدق انهما سيرتبطان عما قريب برباط الزواج !٠٠ وكان مظهره المعتاد ـ بما فيه من غرابة ومن اصطناع ـ ينهار تحت وطأة انفعاله ، فيكشف عن دنيا مفعمة بالعواطف ، شاعرية ، عتيقة ، كانت كامنة فى نفسه ! ٠٠ كان يبدو انه لم يكن على علاقة قط بالنساء ، وانه ورث عن وسط عائلى متخلف ، آراء عصر آخر عفا عليه التطور ، وراح فى ادراج النسيان ٠ فلقد ظل « فاجنوتسى » ، من الناحية العاطفية ، متخلفا عن زمنه قرنا ، بل وأكثر من قرن ، اذ بقى محتفظا بتلك الخلة الساذجة التى تعمر القلوب البسيطة : خلة اكبار المرأة التى تكون موضع الحب ، ورفعها الى مرتبة المثل العليا !

على ان « جيما » لم تحتفظ من الهدوء الا بمظهره ، وبقيت خلف القناع الذى اسبغته على نفسها ، تغذى احتقارها للرجل الطيب ٠٠ الأمر الذى ضاعف من شعورها بالخيبة التى منيت بها أخيرا ! ٠٠ فلم تعد ترى فى فاجنوتسى سوى ما كانت تراه فيه من قبل : رجلا مسكينا ، أبله ، مضحكا ، مجردا من كل الميزات التى تعتبرها مغرية ومرغوبة !

٠٠ على انها أصغت مع ذلك اليه ، باذلة جهدها كى تحتفظ بلطفها وصبرها ٠ ثم قالت له : « اننى أؤثر ان أقول الحق ٠٠ فأنا لا أحبك ٠٠ فى الوقت الحاضر ، على الأقل ٠٠ غير اننى أعتقد ان الحب يتولد مع الزمن ٠ وهذا يتوقف عليك ! »

يا للكلمات ٠٠ ويا للأكاذيب ! كانت قد عقدت العزم على ان لا تحبه أبدا ،

ومع ذلك فقد نطقت بهذه العبارة ، بلهجة اصطنعت فيها طيب النية والصراحة، فكان لها وقع رائع على فاجنوتسى . وخطر له ما خطر لكثير من العشاق المنكودين فى مثل هذه الظروف ، من ان الزمن والرعاية لا يلبثان ان يحولا هذا الفتور الى حب مشبوب .. ومن ثم شكرها فى حماس بالغ ، وكأنها جادت عليه بسخاء غير مأمول ! .. وان هى الا لحظة حتى بدت الأم فى ملابس الخروج ، والقبعة فوق رأسها ، والفراء حول عنقها ، فأقبلت على فاجنوتسى تهنئه فى ود زائف .. لكنه أخذ يشير الى « جيما » ، منكرا ذاته ما وسعه ، كما يفعل الممثلون الذين يتوارون ليدعوا لمؤلف المسرحية الحظ الاوفر من تصفيق الجماهير !

وما لبثت المرأتان ان خرجتا الى القداس ، وتركتاه ينعم وحده بهنائه الجديد!

★ ★ ★

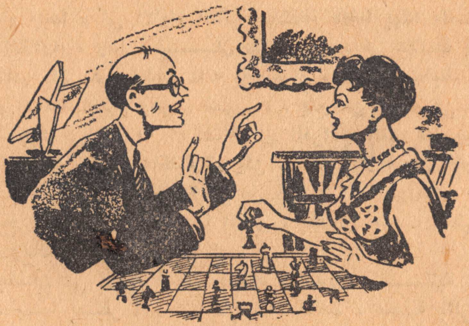
◆ وظلت « جيما » فى الأيام التالية محتفظة دائما بهذا المسلك الهادىء الخالى من الازدراء ، ومن الحنان على السواء ، فى علاقتها بخطيبها .. فانه لأفضل للمرء ان يكرر اللحن ذاته باستمرار ، من ان يتخبط فى عزفه ! اما « فاجنوتسى » فقد أصبح وهو « خطيب » ، يثير من السأم فى نفسها أكثر مما كان وهو مجرد نزيل ! .. اذ أضاف الى الغرائب التى كان يبديها فى الماضى ، غزلا متهافتا ، ورقة عاطفية لم يكن لها من آثار سوى اثارة أعصاب « جيما » الى أبعد الحدود ! .. والانكى من ذلك ، انه تحول عن سهراته فى المقهى ، وأصبح يلازم البيت ليطارحها الهوى ، بعد ان حرمت الخطبة عليها ان تلوذ بحجرتها وتخلفه وحيدا مع أمها !

وأصبحا يجلسان على أريكة قديمة خضراء ، شديدة الصلابة ، فى أقصى قاعة الطعام ، بينما تستقر الام عند طرف المائدة ، متعللة بالرغبة فى ان تكون على مقربة من النور لتخيط أو تقرأ .. ويتناول « فاجنوتسى » احدى راحتى « جيما » بين يديه ، وهو يميل على الأريكة فى اضطجاع غير مكتمل ، ليتخذ وضعا غراميا غير مريح ! .. ثم يمضى فى الحديث بصوت خفيض ، فيحدث خطيبته عن الزواج ، ويصف لها حياتهما المقبلة ، ويبصرها بأذواقه وأهوائه ورغباته ، ويسعى الى ان يعرفها ، ويعرفها بنفسه .. كان يبذل جهدا كبيرا كى يؤدى دوره كخطيب ، وقد وفق فى ذلك فوق ما ينبغى ! .. وكانت « جيما » فى جلستها الجامدة ، الساهمة ، لا تكاد ترد عليه الا لماما ، ولكن فى غير ضيق ولا احتداد ، رغم انها كثيرا ما كانت تحس بالسام والغيظ يخنقانها !

وكان « فاجنوتسى » بين وقت وآخر يقبل جبينها أو خدها فى احترام .. وجرؤ مرة واحدة خلال خطبتهما على ان يمس شفتيها ! .. فكانت « جيما » ،

تدعه يفعل فى اذعان .. بل لقد كانت اللمسات البدنية أقل ايلاما لها من حديثه ! .. وكانت تستمد قدرتها على الاحتمال واصطناع المظهر ، من أملها فى هجر هذه المدينة بعد زواجها ، والاستقرار فى العاصمة (روما) .. فما عادت تقوى على البقاء حيث كانت ، فى الاقاليم .. وكانت تتعزى عن حرمانها من ابهة الحيـاة فى المجتمع الراقى ، بسراب العاصمة الذى يلوح فى افق حياتها .. وكالنملة التى ما يكاد عشها ينهار حتى تنهمك فى بنائه من جديد ، راحت مخيلتها تبنى فى اصرار ودأب ، صروحا خيالية - بعضها فوق بعض - من نجاح وثراء ليس اليهما من سبيل ظاهر !

★ ★ ★



◆ وكانت الامسـيات طويلة ، فتعلمت « جيما » الشطرنج - لعبـة « فاجنوتسى » المفضلة - كى تقسم الوقت بين الحديث ، وبين مباريات هـذه اللعبة البـارعة ، الحاميـة .. غير ان « فاجنوتسى » اللاعب كان أفظع من « فاجنوتسى » الثرثار ، فلم يكن يخسر عن طواعية . وكان فرحه السـاذج بالكسب يثير أعصابها ، فلا تتمالك اذ ذاك ان ترميه بعبارة لاذعة ، يتلقاها فى بساطة وكأنها دعابة بريئة ! .. وثمة أمر آخر كان يخرجها عن طورها : ذاك هو التهكم المتهور الذى كان « فاجنوتسى » يعمد اليـه اذا عرض ذكر المجتمع الأنيق الراقى ، فكان يتكلم عنـه فى سخرية وازدراء ، وبلهجـة « الاستاذ » المترفع ! - ولو انه ما كان فى الحق يضمر لذلك المجتمع ما كانت تضمره هى من احتقار - متأصل متغلغل - لمهنته ، ولكل عمل فكرى - ولم

يكن يحس ، وهو مستغرق فى دراساته ، بميل الى الاختلاط بذلك العالم ٠٠ اذ لم يكن يفهم كيف يقضى أشخاص - يشبهونه ويشبهون زملاءه فى المظهر - حياتهم فى الرقص واللعب والغـزل والجرى وراء الملاذ التافهـة ! ٠٠ كان هؤلاء القوم يبدون له كأنما أصابهم خبل ، فهم مشغولون بالحماقات ، وهم دائما فى سخف وقلق لا طائل من ورائهما !

ولم يكن - اذا تكلم عن هؤلاء - يملك ان يكبح ضحكته العصبية الغريبة ، أو ان يحبس كلمة لاذعة يكون قد تصيدها من احدى الصحف الهزليـة التى كان يهواها !٠٠ ولكن « جيما » كانت تعتبر السخرية من هذا العالم - الذى كانت تعجب به وتتجه اليـه بكل رغباتها - سخفا مضجرا ، بل « تجديفا » وكفرا ! ٠٠ فهى لم تكف قط عن الأمل فى ان تلج ذلك العالم يوما ، ولو باسم « فاجنوتسى » الهزيل ، الخامل ٠٠ بل ان ما حدث مصادفة ، من كشف سر قرابتها المستترة لأهل المزرعة ، لم يحطم غرورها ، وانما زاده ضراما ٠٠ فان للكبرياء أساليب غريبة تعرف كيف تستغل كل شىء ، ولو كان مخزيا !٠٠ وهل كان يقلل من نبـل دمائها وعراقة محتـدها ، ان تكون ابنة غير شرعية ؟ ٠٠ انها ما كانت لتحجم عن ان تعلن فى الملأ أصلها ، لولا اشفاقها على أمها ! ٠٠ ولقد كان ظلما فوق كل ظلم - عنـدها - ان تظل منبوذة مبعدة عن عالم لها كل الحق فى ان تنتمى اليه ٠٠ ومن ثم فقد كانت سخريات خطيبها المسرفة من هذا المجتمع ، اهانة ما بعدها اهانة !

ولقد حاولت فى أول مرة ان تفهمه انها لا تستسيغ ان يتناول احد هذا الموضوع بالهزل ٠ ٠ ثم سكتت فى المرة الثانية - ولو أنها عانت فى سـبيل السكوت مشـقة كبيرة ! - حتى اذا كانت المرة الثالثـة ، انفجرت فى « فاجنوتسى » بعنف أدهش أمها ، رغم انها كانت تقرها على آرائها فى هذا الصدد ، وتؤيدها ٠٠ وكانت العبارات التى انبعثت فى انفجارها ، تتردد متوالية كالنغم الرئيسى المتكرر الذى يسود لحن « سمفونية » ما ٠٠ قالت ان « ظفر » الواحد من أولئك الذين اعتاد فاجنوتسى ان يسخر منهم ، كان يفوق فى قيمته « فاجنوتسى » نفسه ، بأكمله ، وبعلمه واستاذيته ! ٠٠ وقالت انه يصدر فيما يقول عن حسد وحقد لا يقوى على سترهما ٠٠ حسد وحقد مبعثهما انه يعرف ان أبواب ذلك العـالم - عالم المجتمع الراقى - ستظل دائما موصدة فى وجهه ، فلن يظفر بشرف القاء نظرة واحدة خلالها !

واستبدت بفاجنوتسى دهشة بالغة ازاء هذا المشهد ، فما خطر له قط ان يكون فى الدنيا من يفضل الشخص الذى يدرس الطبيعة ويعلمها للناس ! على ان « جيما » لم تدع له فرصة ليحتج على أقوالها أو يبرر أقواله ، وانما نهضت وغادرت قاعة الطعام ، ثم صفقت الباب خلفها !

وكان ذلك هو الشقاق الوحيد الذى شجر بينهما ٠ وقد استطاعت أمها أن توفق الى اصلاح ذات البين بينهما فى اليوم التالى ، بعد عناء ٠ ٠

★ ★ ★

◆ وفى نهاية شهر يوليو ، وبعد خطبة لم تستمر أكثر من شهر ، تزوج الخطيبان فى شبه خلسة ، فى كنيسة صغيرة بضاحية ريفية ٠٠ وكتبت جيما الى صديقاتها فى مزرعة (لاشيناى) رسالة اعتذار عن عدم دعوتها اياهن ، لكنها خضعت لغريزة الكذب القديمة فلم تقو على منع نفسها من ان تزعم فى النهاية ان زوجها رجل غنى ، يملك فى روما قصرا سيقضيان فيه الشتاء !

وبعد ان ودع العروسان مدام فوريزى ، سافرا الى (فينيسيا) فى رحلة شهر العسل



الفصل الثامن

◆ تعلقت جيما بفكرة مغادرة مدينتها للاستقرار فى روما ، بمثل الرغبة المتحرقة التى كانت تتعلق بها قديما بأمل الزواج من باولو !٠٠ وكان زوجها قد وعدها بذلك دون ان يكون فى وعده اليقين الذى أبدته هى فى رسالتها الى صديقتيها ، فلما عادا من الرحلة فى نحو منتصف سبتمبر ، قال لهاان لاأمل فى الوقت الحاضر فى أن يعين فى روما ، وانه لامحل على كل حال للتفكير فى تغيير اقامتهما فى هذا الشتاء !

وكانت هذه خيبة أمل جديدة أضيفت الى سابقاتها ، وهوت بجيما مرة أخرى الى هاوية السأم واليأس ! ٠٠ اذن فسواء أكانت زوجة أو بنتا ، فهى محكوم عليها بأن تقضى حياتها فى هذه المدينة التى يذكرها كل حجر فيها وكل انسان من أهلها ببؤسها وخيباتها ومذلاتها القاسية !٠٠ وليس ينفعها اذن فى شىء أنها أذعنت ورضيت أن تكون امرأة فاجنوتسى !!

٠٠ وازدادت سيطرة هذه الافكار المثقلة بالغضب ونفاد الصبر على جيما ، وصارت شبيهة بشحنة مكدسة فى غير نظام فى أعماق سفينة ، متى ساء الجو أخذت تصطدم بجدران السفينة لتغرقها فى النهاية !٠٠ وانتهى بالعروس الحال، من فرط مااضطربت هذه الافكار فى ذهنها الخاوى، الى ان دار رأسها ٠٠وتهيأت لأسوأ القرارات والنتائج !

وكانا قد تركا مدام فوريزى فى مسكنها العتيق وأقاما فى بيت جديد خارج المدينة ، ذى جدران حجرية رمادية وسقف من القرميد ونوافذ خضراء ، يقوم

فوق ربوة محصنة يكشف الرائى منها الى مدى البصر مسارب وسفوحا تترامى الى حدود الجبال الرابضة عند الافق البعيد ٠٠ منظر برى موحش ، مجرد من المراعى والحقول المزروعة ، تكسوه الى مرمى البصر غابات مشذبة ونباتات ضئيلة ، وتتردد فيه فى موسم الصيد أصداء طلقات البنادق ، ويرتفع فىأدغاله الصفراء ، هنا وهناك ، الدخان الاسود المنبعث من نار الفحامين الموقدة ٠٠ ثم لاأثر آخر للحياة بعد ذلك غير بضعة بيوت نادرة فى الجهة المؤدية الى المدينة ، شبيهة كلها ببيتهما ، موزعة فى غير انتظام على أرض تناثرت فيها الصخور ٠٠ وليس وراء ذلك الا كتل الجدران السامقة المتعالية الى السماء ، التى تزدوج بأبراجها وتحصيناتها مخارج التل الصخرى ومداخله ٠٠ ولما كان باب المدينة مستورا وراء أحد تلك الابراج ، فان التحصينات كانت تبدو من بيت فاجنوتسى مسدودة تماما ، لاتتخللها ثغرات ولا فتحات ٠٠ وفى مثل هذا المكان الموحش يتولى المرء احساس بالغ بالعزلة ، وبالنفى فى أقصى العالم !

وكان البيت جديدا كل الجدة ، فخشب الابواب غض يطقطق وتتنزى منه عصارته ، وللحجرات اصداء الكهف ورطوبته ، وعلى زجاج النوافذ لطخ البياض لاتزال ، والحديقة المربعة جدباء لاطين فيها ، يملؤها حصى أبيض مدبب ، تنشر عليه قضبان البوابة الحديدية ـ فى الساعات المشمسة ـ ظلالها النحيلة الحزينة ٠٠ وما ان وضعت جيما قدميها أول مرة فى بيتها هذا الجديد حتى حسبت أنها تدخل عنبرا فى مستشفى ، أو سجنا !٠٠ ولم تتردد فى الافضاء لزوجها بهذا الشعور ، الذى اعترته منه دهشة بالغة ، وهو المفتون بالطبيعة ومشاهدها غير المصنوعة ، والذى كان يعتقد انه سيدخل على زوجته السرور باختياره بيتا يشرف على مساحة نصف الاقليم !٠٠ اما ماينطوى عليه المنظر من كآبة،ورتابة، وعتمة ، وأدخنة ، فانه لم يكن فى الحق قد تنبه اليه ٠٠ بل ولا يرى فيهالآن ـ وقد نبهته اليه ـ أى غضاضة أو سوء ، فالبيت جميل ، وموقعه حسن ٠٠ ومع ذلك فاذا انقضى الشتاء دون ان يكون قد حصل على الوظيفة التى يرجوها، فانه يعدها وعدا مؤكدا بالعودة الى السكنى فى بيت آخر فى قلب المدينة ٠٠

وهكذا كان بيتهما موضوع أول خلاف نشب بينهما بعد الزواج !٠٠ وقد اكتشفت جيما عند ذاك ، فى مقت ومفاجأة ، ان فاجنوتسى كان يخفى تحتمظهر الرجل المسكين الطيب طباعا أقوى وأشد سطوة مما تصورت !

★ ★ ★

◆ وفى ذلك البيت المنعزل عانت جيما الضيق والسأم ٠٠ فى حين كانزوجها منهمكا فى تدريس علوم الطبيعة أو فى اجراء تجاربه فى معمل الكلية ٠٠

لم تكن القراءة تستهويها ، فيما عدا صحف السينما والروايات البوليسية !٠٠ وكذلك لم تكن تميل الى عمل البيت ، الذى عهدت به الى الخادمات ، فكانت النتيجة ان ظل البيت مهملا قذرا كما كان يوم دخلته !٠٠ اما الشواغل الاخرى التى كانت لها قبل الزواج ، كالحياكة وشغل الابرة والبيانو ، فقد باتت تثير اشمئزازها ، ربما لانها كانت تذكرها بذلك العهد الجحود !٠٠ بل انها لم تتنازل حتى بالقاء نظرة على الحديقة ، فلبثت جدباء لايزينها غير الحصى ، وغير «خصلات» من العشب المصفر ، وتلك البوابة السوداء التى تحاكى حقا بوابة السجن !

أما بصدد عنايتها بشخصها ، والتسليات النادرة التى يسع المدينة أن تقدمها لها ، فقد تعودت جيما ان تنهض من نومها قرب الظهر ، وأن تقضى نصف العصر فى تصفيف شعرها ، وتمويجه ، وتلميع اظافرها وتهذيبها ٠٠ ثم تلبس ثيابها فى بطء شديد ـ كما لو كانت تقصد حفلة ! ـ وتذهب للنزهة مع صديقاتها فى شارع الكورسو ٠٠ وهناك ، فى زحمة الجماهير التى تملأ الشارع السىء الاضاءة ، كانت تحرص على أن تحيى القوم الذين تعرفهم منذ سنوات ٠٠ وقد تدخل محلا للحلوى مما يتخذ ملتقى للمجتمع المحلى ، فيستقبلها على عتبته شباب المدينة الانيق بعبارة غزل ، أو يتلفتون كى ينظروا اليها !

وكانت جيما تتردد أيضا على دار السينما التى تغير برنامجها مرة كل اسبوع. وكانت الدار قبل ذلك مقرا للمسرح البلدى القديم ، فكانت تتألف من قاعة واسعة ، معتمة ، تحف بها أربعة طوابق من الشرفات الحمراء المذهبة ، وتعلوها قبة منقوشة ملونة . ولم يكن يقدم فى الدار فى الزمن الخالى غير «الاوبرات». لكن الانهيار بدأ مع مطلع القرن ، فتخلت «الاوبرا» عن مكانها للمسرح التمثيلى٠٠ ثم جاءت «الاوبريت» ، فالاستعراضات الراقصة ، وأخيرا الحفلات الخيرية ٠ ٠ قبل ان تنقذ «السينما» الدار من الاغلاق النهائى ، أو تثبت انهيارها وتدشنه !

وكانت النقوش المذهبة فى القاعة تتشقق عن الجير الابيض ، والعرائس المرسومة فى القبة الوردية قد طمستها بقع كبيرة من الرطوبة ٠٠ والمقاعد المخملية الحمراء كانت قد استبدلت بها مقاعد معدنية تهبط وتعلو محدثة ضجة فظيعة !٠٠ وكانت تملأ الجو رائحة أحذية مبتلة ، ودخان ، ونشارة رطبة ٠٠ وخلال فترات الراحة كان يكتفى باضاءة مصابيح الشرفة الاولى ، فيظل سائر الصالة مغمورا فى ظل داكن يشبه عتمة «سيرك» خال . والشاشة البيضاء المعلقة على ستارة من القطيفة الحمراء الداكنة كانت تثير فى الذهن ، فى تلك العتمة ، صورة جهاز جنائزى رهيب !٠٠ لكن جيما التى لم تكن قد رأت مدينة غير مدينتها، لم تحس لهذا كله أثرا كبيرا فى نفسها ، فلقد أوتيت ـ الى أقصى درجة ـ ماهو معهود فى أهل الاقاليم من عدم حساسية بالقبح الزرى ٠٠ ولوانها كانت ، على

العكس ، مرهفة الحساسية بتلك الاصوات المدوية التى تنبعث من الستار ، وتلك الرؤوس الكبيرة المعتمة التى كانت ترى على الشاشة ، وقد ضمت شفاهها البراقة فى قبلات طويلة لاهثة !٠٠ وقد بلغ من ولع جيما بالسينما ان لم يكن يفوتها فيلم من أفلامها ، فاذا لم تجد من يصحبها ، لم تكن تتردد فى الذهاب وحدها ٠

★ ★ ★

◆ والصداقات لاتتخير بالمصادفة ، بل وفقا لما يسيطر علينا من هوى ، ومن هنا ارتبطت جيما فى نهاية الخريف برومانية تدعى «الفير كوسيانو» ٠

ولم يكن أحد يدرى على وجه التحديد ماالذى رمى بهذه المرأة الى تلك المدينة الصغيرة ، كما لم يكن احد يعرف شيئا عن ماضيها ٠٠ لكن البعض كان يؤكد أنها تحمل لقب «كونتة» ، وانها من عائلة بارزة ٠٠ ولو ان أحدا كلف نفسه جهد الرجوع الى مصدر هذه الشائعة ، لاكتشف ان المصدر الذى نشرها هو مدام كوسيانو نفسها !٠٠ على أن كل ماكان فى الامكان تأكيده هو انها هبطت المدينة منذ بضع سنوات ، فأعانها على الدخول فى المجتمع هذا الاسم الاجنبى الذى يخلع عليها نوعا من الامتياز ، وهذه الشائعات التى عرفت كيف تذيعها ببراعة ، وجرأتها المدبرة ، وحيويتها الخارقة ٠٠ ونجحت فى وقت وجيز فى أن تفتح لنفسها أبواب المجتمع الرفيع فى الاقليم ٠٠ وبسبب تحررها« وتجاربها العالمية» ، شملها بالود بعض أثرياء الشباب ممن كانت أسرهم تقسرهم على العيش فى الاقليم ، فلم يكونوا يجدون ابوابا لارواء تعطشهم الى الاسراف والمغامرات ، سوى المقامرة ٠٠ والرحلات الى العاصمة بين الحين والحين ٠

وكانت مدام كوسيانو تقول انها عاشت سنوات فى باريس ، وكانت فى الواقع تجيد الفرنسية خيرا من الايطالية ، التى كانت تنطقها بلكنة مضحكة ٠٠ بل انها كانت تزعم انها عبرت أوربا كلها ، وانه لاتوجد مدينة ذات صيت من مدن المياه المعدنية الا وقد أقامت فيها فترة ما ٠٠ وكانت تلغط بلا توقف بأسماء شخصيات المجتمع الرفيع ، أولئك الذين ترى صورهم تتكرر فى المجلات ، ويبلغ صيت الكثيرين منهم فى العالم أضعاف صيت علماء البلاد وفنانيها !٠٠ ولم تكن مدام كوسيانو تشير الى افراد الطبقة الارستقراطية المحلية بألقابهم أو اسماء عائلاتهم ، بل بأسمائهم الشخصية التى لاكلفة فيها ، مثل : «بيير» ، « بول » ، «جاك» ، «أندريه» !٠٠ اما الشخصيات البارزة فى مدن ايطاليا الاخرى ، فكانت تسميهم بأسماء التدليل التى لايجرؤ على مناداتهم بها غير الصديق الحميم !٠٠ وهكذاكانت «الرومانية» تنشر حولها الجو الذى يوحى بأن لها مع أولئك الاعلام علاقات حميمة ، ان لم تكن فاضحة !

وكان من عادتها ايضا ، عندمايرد فى الحديث اسم شخص من بيت نبيل ، ان تقاطع المتكلم كى تسأل او تستعرض معلوماتها عن نسب ذلك الشخص وقراباته ، موحية بذلك بمعرفتها العميقة الاكيدة بجميع تقلبات احوال العائلات الايطالية النبيلة ، السابقة والحالية !٠٠ كانت ، كالعسكريين الذى يعرفون - عن ظهر قلب - خريطة تحركات الجيش كلها ، تمسك على أطراف أناملها بكل أنباء الفضائح ، والزيجات الجديدة ، والولادات ، والوفيات ، والاقاويل ، والاسرار الخاصة بذلك الجيش المقاتل الذى يتمثل عندها فى : المجتمع ! ٠٠ وكانت قد جعلت من نفسها «سلطة عليا» فى هذه الموضوعات ، غير مستندة الى علم مكتسب ، وظلت تحتفظ بهذه المكانة على الدوام ، وتنجح - بطريقة لايدرى كنهها أحد - فى تجديد معلوماتها ، وانعاشها بالتصويبات والتعديلات التى تحتمها الظروف ٠

ولم يكن احد ليستطيع تحديد عمر مدام كوسيانو على وجه الدقة ، وان بدا أنها تتراوح بين الثلاثين والاربعين ، ولكن بلا نضرة ٠٠ فقد كانت امرأة ذابلة مضناة ، مستهلكة فى الرحلات والمغامرات ، مبتذلة القوام ، مكتنزة قليلا ، ذات وجه دهنى صقيل بارد ، لزج وشره !٠٠ وكان التناقض ملحوظا فى هذا الوجه بين العينين الرماديتين الصغيرتين - القويتين الساحرتين - والابتسامة المعسولة الباهتة التى يفتر عنها ثغر معتم بلا شفتين، يعلوه انف غريب مقوس ومستدير ، كأنه منخار سلحفاة !٠٠ وبرغم تلك الابتسامة التى تسيل عذوبة ، وبرغم «الماكياج» البارع ، كان وجهها - بما يزدحم فيه من التجعدات الصغيرة المتنزية بالدهن - يشى بنضج خبيث ، مثل جسمها الذى لم يكن ضغط ثيابها و «مشدها» عليه يمنع ترجرج خاصرتيه ، أو تأرجح مشيته التى تذكر بمشية أخرى ترى فى بيوت الدجاج ، ومأثورة عن بعض الدجاجات العجوز الثرثارة !

وكانت تسخو بلمحات عينيها وغنات صوتها ، وبضحكاتها اللينة وايماءاتها ، وغير ذلك من أفانين البنت الصغيرة٠٠ فاذا سئلت عن عمرها ، أجابت دون تردد بانها أكبر «قليلا» من الثمانية والعشرين !

٠٠ بهذه المرأة ارتبطت جيما بالصداقة ٠٠ او بالاحرى ان مدام كوسيانو هى التى « استولت» بفنونها على جيما ٠٠ حتى صارتا تلتقيان كثيرا ، تدنى احداهما من الاخرى آراء وأذواق مشتركة !



الفصل التاسع

◆ كانت مدام « كوسيانو » ـ كي تحظى برضاء « جيما » ـ قد وجدت وسيلتين أو ثلاثا مضمونة الأثر : كانت تصف لها العالم اللامع الذى يفهم من يسمعها انها عاشت فيه دائما خلال رحلاتها الاوربية ! ٠٠ ثم كانت تندد بالحياة فى مدن الاقاليم فى سخرية مرة ٠٠ واخيرا كانت بدهائها الشرير المستتر توحى الى « جيما » ـ بكلمة تلقيها اليوم اعتباطا ، ثم تتبعها بأخرى فى الغد ـ ان لها زوجا غبيا « غير جدير بها » !

ولم يكن ثمة داع لهذا الجهد الاخير ، فان « جيما » نفسها كانت مقتنعة بذلك سلفا ، بيد ان ايحاء صديقتها قد لذ لها ، اذ وجدت فيه اقرارا ـ من امرأة عليمة خبيرة ـ بأنها محقة فى ضيقها وتقززها ! ٠٠ وهكذا اخذت مدام « كوسيانو » تسلق سيرة فاجنوتسي بسخرياتها !٠٠ أقدمت على ذلك فى بادىء الامر باحتياط وحذر ، كالرحالة المغامر اذ تلقى به الاقدار فى أرض لا يطمئن اليها كثيرا ٠٠ ثم أسرفت فى خطتها حين لمست ما كانت ترجوه من ترحيب ورضى ٠٠ وفى النهاية أوغلت فى هذا المسلك فى قسوة سافرة ، مستعذبة ! ٠٠ وكان لها بعض موهبة فى التقليد ، فكانت تحاكى صوت زوج « جيما » ، وحركاته ، وعبوسه ، و « جيما » تجد فى هذه السخرية التى تضحكها متعة خبيثة ٠٠

كذلك كانت مدام « كوسيانو » تعرف كيف تفيد صديقتها ، اذ كانت تزودها بمشورتها فى اختيار فساتينها وقبعاتها ، وكثيرا ما كانت تصنعها

لها بنفسها ـ فقد كانت فى فقرها الشديد تتسول وجبة غداء هنا ، ووجبة عشاء هناك ٠٠ فلما لم يف ذلك بمعاشها ، صارت تفصل الملابس وتصنع القبعات ، لا كحائكة ، أو صانعة قبعات بالطبع ، وانما كسيدة رفيعة المقام تنشد « التسلية » ، وتتفضل على صديقاتها باسرار اناقتها !

وكانت تزهو بما اكتسبته من خبرة « باريسية » ـ وان بعد بها العهد وخبا بريقها فى ذاكرتها ـ كما كانت تعتز بمعرفتها اللغة الفرنسية ، وتجد دائما بين نساء الاقليم سيدة طيبة على استعداد لان تدفع لها ثمن نصائحها ! ٠٠ وفضلا عن ذلك فقد كانت لها اختصاصات أخرى : فهى تصنع من الادهنة والعطور مركبات شاذة ، طبقا لوصفات من ابتكارها ٠٠ كما تصنع «الاباجورات» الرومانية من حرير براق وتجعل لها حواف من لؤلؤ ، بأشكال ممجوجة ، سقيمة الذوق ، ثم تبيعها مع ذلك بثمن غال !

★ ★ ★

◆ وهكذا لم ينقض وقت قصير ، حتى بلغت الالفة بين المرأتين حدا حمل « جيما » على أن تقص على الرومانية ما كانت تدعوه « سر حياتها » ، فقد كانت ـ بدافع من غرورها ـ تتحرق الى الافضاء الى انسان ما بسر مولدها ، وزواجها الذى لم يتم !٠٠ واستغلت مدام «كوسيانو» الفرصة لتحيط « جيما » المسكينة بشباكها ٠٠ فاستمعت اليها فى البداية بصمت يشوبه الاستبشاع والدهشة ، دون ان تقطع عليها حديثها الا لتطلق صيحات الاستنكار والفضول والرثاء ٠٠ثم راحت تضيف ـ حين انتهت القصة ـ تعليقات بدت لجيما مليئة بعمق الفهم ، وبالمودة : هذا ظلم ، وعار ٠٠ فقد كان ينبغى على صاحب الضيعة ـ ازاء الانقلاب الذى ألم بحياة « جيما » حين اكتشفت أصلها ـ أن يعوضها بمنحها مبلغا تجعل منه صداقا لزواجها ـ « دوطة » ـ ثم أن يبحث لها عن زوج يليق بها ٠٠ أما ان يدعها تتزوج رجلا مثل « فاجنوتسى » ، فهذا دليل جديد ـ ان كانت ثمة حاجة الى دليل ـ على انعدام احساسه ، وعلى أنانيته ! ٠٠ ثم تردف مدام «كوسيانو» ذاكرة ان قصة كهذه حدثت فى المجتمع الراقى بمدينة بوخارست ، لم تختلف عنها الا فى أن الحقيقة عرفت هناك بعد الاوان ، بعد أن كان الاخ والاخت قد تزوجا منذ زمن وانجبا طائفة من الاطفال اللطاف !٠٠ ثم تختم حديثها قائلة بالفرنسية وهى تتظاهر بالاستغراق فى التفكير : « هذه هى الحياة ! ٠٠ لا ينبغى ان يطمئن المرء فيها الى شىء أبدا ، فهى كلعبة الروليت ، يكفى تغير رقم واحد فيها لافلاس المرء أو لاثرائه ! ٠٠ ومن ثم فخليق بالمرء أن يستمتع بالحياة ويغنمها فى حينها ، دون أن يشغل نفسه بالمستقبل »

★ ★ ★

◆ واقتنعت «جيما» فى ذلك اليوم بأنها ما حظيت فى حياتها بصديقة أفضل من الرومانية ٠ وكانتا فى بيت الاولى ، فختمتا حديثهما الطويل عن

هذه الاوضاع الغريبة بالخروج من البيت، وذهبتا عبرتيه من الازقة والسلالم الى شارع « الكورسو » ٠٠ وكان الوقت أصيلا ، والشارع الكبير الممتد بين صفين من القصور ، يزخر بالمتنزهين ٠٠ وقالت مدام كوسيانو وهى تومىء بازدراء الى ذلك الحشد الحافل : « هذه هى حياة الاقاليم : النزهة ٠٠ دائما النزهة ، بلا توقف حتى لاحتساء كوب ماء ٠٠ وفى المساء العشاء ، ثم الى السرير من الساعة التاسعة ! ٠٠ ما لم يجد المرء لعبة ساذجة لقضاء الوقت »

واقرت « جيما » صديقتها على رأيها ، فهى بهذه الحياة عليمة ! ٠٠ وبينما هما تتناجيان وهما متجهتان بخطى هادئة نحو الميدان ، انبعث من وسط القوم صوت ينادى : « جيما ! يا لها من مصادفة ! » ٠ فالتفتت ، واذا بها ترى « فيتونى » ٠٠ الشاب الذى حملها بالسيارة الى مدينتها فى الخريف الماضى ، واقترح عليها بين الجد والهزل أن تذهب معه الى روما وتقيم فى بيته !

وقال « فيتونى » وهو يأخذ بذراعها فى غير كلفة : « كم يسرنى أن أراك ٠٠ ان سرورى لعظيم حقا ٠٠ لقد علمت أنك تزوجت ، من البروفسور « لاجنوتسى » أو «باجنوتسى» ! ٠٠ تهانى المخلصة ٠٠ لماذا لم تأتى الى (لاشيناى) كى ترينا « راجنوتسى » هذا ؟ »

فأجابت جيما عن سؤاله هذا فى لهجة امتزج فيها الجد بالغموض ، قائلة :انها لن تعود أبدا الى الضيعة ٠ ولكن « فيتونى » لم يبد أى فضول ، وتحول يسألها ان كانت وحدها ، وان كانت تحب أن تتناول « الابريتيف » معه ؟ ٠٠ والتفتت « جيما » ـ فى استياء لعدم اكتراثه بسر حياتها ـ فقدمت اليه مدام «كوسيانو» التى بادرت تسأله ان كان هو « لوتشانو فيتونى » الذى يقطن فى روما ؟ ٠٠٠ وأجاب « فيتونى » بعدم اكتراث بأنه هو حقا ، فراحت مدام كوسيانو ـ بلباقتها المألوفة ـ تحصى قائمة طويلة من اسماء أصدقائهما المشتركين ٠ غير انه أعرض عن هذه المرأة الناضجة ، المتكلفة ، وعن ولعها بعرض علاقاتها الاجتماعية ، لينصرف باهتمامه الى « جيما » التى لم تكن تحيد عنها عيناه !

كان « فيتونى » طائشا غشوما ، وكان ولعه بالنساء أكبر من طموحه الاجتماعى ، وقد بدت له « جيما » متغيرة عن ذى قبل ، ولعلها ازدادت جمالا ٠٠ بل انه رأى فيها جمالا جامحا لم يعرف الرضى ٠ وتذكر انها كانت قد اعجبته منذ سنة ، فأحس بانها الآن اكثر استئثارا باعجابه !٠٠ ولم يفته انها كانت تتجنب الكلام عن زوجها ، ولا تستجيب للدعابات التى تشير اليه ، بل اقتصرت على بضع عبارات تقليدية فاترة ، لا تنم عن حب مشبوب !

★ ★ ★

◆ وكان الثلاثة قد واصلوا السير فى اتجاه الكاتدرائية ٠ واخذ « فيتونى » يروى لجيما تفصيلات ما حدث فى « الفيلا » فى ذلك العام ، قائلا انهم أسفوا

لغيابها • فاجابت وقد استخفها الطرب ، ان هذا لم يكن ممكنا ، فهناك كثير من الفتيات يفقنها صبا وجمالا ! •• وهكذا مضى الحديث بينهما يشوبه الود ويتخلله الغزل • أما مدام « كوسيانو » فانها اخذت بذراع « فيتونى » وقد بدا عليهما كأنهما صديقان قديمان ، وراحا يتبادلان النظرات ـ فى تواطؤ ابناء المجتمع ومكرهم ـ ويضحكان من « جيما » ويلمزانها بالفكاهات !•• وكان « فاجنوتسى» الطيب هدفهما الاول • ومع ان « فيتونى » لم يكن قد رأى الزوج من قبل ، الا انه وفق الى تكوين فكرة دقيقة الى حد كبير عنه : فما هو ـ على أية حال ـ سوى نموذج من النماذج العديدة للزوج •• الزوج الازلى الابدى الذى لا يتطور ولا يتغير ! •• وراحت مدام « كوسيانو » تتظاهر بأن « فيتونى » كان يستدرجها ويضطرها رغم مقاومتها الى ان تتفوه بملاحظات غير مستملحة عن «البروفسور» التعس ، ينطلق ازاءها « فيتونى » ضاحكا ، ويلتفت الى « جيما » ـ التى لم يفلت ذراعها ـ ليسألها ان كانت هذه الملاحظات صحيحة ؟ •• وتظاهرت «جيما» فى البداية بالاستياء ، ثم انساقت الى ما فى هجاء زوجها وانتقاده من موافقة لميولها ، فتقبلت فى صمت ورضى اجرأ دعابات مرافقيها •• بينما أخذ «فيتونى» يضغط ذراعها بحركة ذات مغزى ، كانت تضطرب لها دون أن تجرؤ على مصارحة نفسها بهذا المغزى !

وانقضت ساعة النزهة فى هذه الاحاديث المرحة ، ثم وجد الثلاثة أنفسهم ـ قبل أن يتفقوا على مقصد يتجهون اليه ـ فى ميدان الكتدرائية ، حيث ينتهى شارع « الكورسو » الذى كان قد خلا من رواده ، وحيث يبدأ الشارع الصغير المتعرج الذى كان على « جيما » أن تسلكه فى عودتها الى دارها • ولكن « فيتونى » لم يشأ ان يدعها تمضى ، قائلا ان من القسوة ان تتركاه بمفرده بعد هذه الفترة البهيجة ، واقترح على المرأتين ان تتناولا العشاء معه فى فندقه

ورحبت مدام « كوسيانو » بالدعوة ، قائلة انها فرصة رائعة ، وان « فاجنوتسى » لن يفطن الى شىء ، لانه لا يفكر فى غير علوم الطبيعة ! أما « جيما » فقد عارضت وفى نفسها نذير مبهم • على ان الآخرين لم يلبثا أن تغلبا على معارضتها ، فأبلغت زوجها تليفونيا أنها ستتناول العشاء فى المدينة !

★ ★ ★

◆ وقصد ثلاثتهم الى « فندق اسبانيا » ـ حيث كان « فيتونى » يقيم ـ واتخذوا مجلسهم فى أقصى قاعة الطعام العتيقة ، التى بدا جوها راكدا حبيسا ، يسوده سكون لا تبدده سوى ضحكات « فيتونى » والمرأتين •• أما سائر الموجودين ـ من التجار الرحل وضباط الحامية ـ فقد ألفوا تناول الوجبات ذات الاسعار المحدودة ، فى صمت ممض ، مشبع بالتفكير • ومن ثم راحوا يحدقون فى « فيتونى » والمرأتين فى حسد واستنكار ! •• حتى الخدم الذين بلغ منهم الكبر



مبلغه فانحنت ظهورهم وهم فى ثيابهم البيضاء البالية ، حتى هـؤلاء بدا فى حركتهم المتباطئة ، ووجوههم المتجهمة ، انهم كانوا يستهجنون هذا الصخب الشاذ !

وكان « فيتونى » بالذات هو الصارخ الصاخب • فى حين حاولت المرأتان أن تتخذا مظهر سيدتين رقيقتين ، رفيعتى القدر ، ألقت بهما المصادفة الى ذلك المكان الذى لم يعد يلائم طابع العصر •• ومع ان « فيتونى » لم يكن آية فى الذكاء ، الا انه أوتى القدرة على ادراك ما فى نفوس الغير ، فى خشونة وسخرية ، وقد أدرك موطن الضعف من نفسى زميلتيه ، فأخذ يبالغ فى اضفاء جو من المرح المتهوس الصاخب ، على ذلك العشاء •• اذ خيل اليه ان هذا سبيله الى استهواء مدام « كوسيانو » و « جيما » معا •• الاولى لأنها عاشت دواما فى هذا الجو ، والثانية لانها كانت تصبو الى العيش فيه !

وطلب نبيذا فرنسيا لم يسبق لجيما ان ذاقته ، ففحصته الرومانية بعين الخبيرة المستريبة ، قبل ان تمتدحه فى ثقة العارفة •• ثم أخذ يروى نوادر مستهجنة ، اظهرت مدام « كوسيانو » انها تستمرئها ـ كما استمرأت النبيذ ـ فى حين كانت «جيما» لاتفقه لها معنى ، وتسمعها على مضض •• وكان بين حين وآخر يصيح : «فى صحة بياجنوتسى!» ـ متعمدا تحريف الاسم التعس ـ « فى صحة الغائب العظيم» •• ويحمل «جيما» الحائرة المترددة على أن تقارعه الكأس بالكأس ، بينما تسعى قدمه تحت المائدة لتضغط قدمها ، فى تلك المغازلات السمجة التى

بدت له مناسبة للمقام ٠٠ ولم تقو « جيما » فى ذعرها واضطرابها على التملص منه ، او مقاومته ٠٠ وزادها ارتباكا وشرودا ان بدأ النبيذ الذى اسرف فى حملها على تناوله ، يفعل مفعوله ! ٠٠ أحست انها منغمسة فى جو رائع ، لاتكاد تصدق انه حقيقى !٠٠ كأنما هو حلم لاتنجم عن أخطر التصرفات فيه نتائج ما ٠٠ فاستعذبت أن تعيش فيه ، وان تنساق فى تياره !

★ ★ ★

◆ وفى ذلك الجو من الحقيقة الحالمة ، الذى عاشت فيه مشدوهة ، سمعت مدام «كوسيانو» تقترح ان يذهبوا فيتناولوا عندها زجاجة شراب ٠٠ وأذهل «جيما» من نفسها انها تحمست فى قبول الاقتراح بمرح !

ومنذ تلك اللحظة ، كان الشراب قد فعل مفعوله السىء ، فغدا فى كيانها شخصان ، احدهما يتصرف كما لو كان مجردا من الوعى ، فهو كالآلة ! ٠٠ والثانى يراقب الاول بذهن صاف ، وان كان عاجزا تماما عن التصرف ٠٠

وبهذا الازدواج فى الشخصية ، رأت نفسها تخرج من الفندق بين مدام « كوسيانو » و « فيتونى » ـ الذى كان يطوقها بذراعه متعللا بانه يقيلها من الترنح ! ـ وبدا لها شارع « كورسو » خاليا ، وقد أظلمت واجهات البيوت على جانبيه ، حتى كادت لاتعرفه ٠٠ ولمحت على بعد ، رجلا يدور نصف دورة حول نفسه وهو يولج مفتاحا فى باب ، ثم يختفى فى بيت خيل اليها انه نموذج مصغر من الورق المقوى ، فى شارع صيغت بيوته من خشب منقوش !٠٠

كان الثلاثة وحدهم فى الشارع الواسع ٠٠ وكلما مروا بأحد مصابيح الطريق ، استطالت ظلالهم بشكل غريب على الاسفلت !٠٠ حتى اذا بلغوا الكاتدرائية دقت الساعة ، فكان لثقل وقع أولى رنات الناقوس ولرهبتها أثر فى نفوسهم جعلهم يقفون لحظة جامدين ، يصغون الى تلك الدقات البرونزية التى تنتشر موجاتها الصوتية حتى تبلغ اقصى الآفاق ٠ وعند الدقة الثانية استأنفوا السير ٠٠

ودخلت بهم مدام « كوسيانو » ـ التى تقدمتهم لترشدهم الى الطريق ـ تيها من الشوارع الصغيرة ، والازقة الرطبة ، والسلالم الزلقة ، والممرات المنحنية، حتى توقفت أخيرا أمام باب صغير أخضر ، وقالت وهى تخرج من حقيبة يدها مفتاحا من الحديد كبير الحجم : «هاقد وصلنا !» ٠٠ ثم فتحت الباب بجهد وسبقتهما فى الظلمة ، وهى توصيهما بأن لايحدثا صوتا ٠ وكان السلم صعب المرتقى ، يكاد يكون عموديا ، وقد بلغ من الضيق ان لم يكن يتسع لغير شخص واحد !٠٠ ولم تصعد جيما ، بل تركت نفسها لفيتونى يدفعها ، ويستغل الظلام فيتحسس بشفتيه عنقها !

* * *

◆ وعلى اطراف الاقدام ، دخلوا شقة صغيرة ، متواضعة ، قليلة الاثاث ، قدمتها مدام كوسيانو – بتفخيم متهكم – على انها : « قصرها ! »

والقى الشاب بنفسه على أريكة ، وهو يتنهد بارتياح ، وجذب « جيما » اليه .. فقالت مدام «كوسيانو» : «ماأبدعكما معا!» .. ثم اختفت لتبحث عن أداة لنزع سدادة الزجاجة التى جاءوا بها من الفندق ..

وما كادت تخرج حتى تناول «فيتونى» جيما بين ذراعيه ، وحاول ان يقبلها ! فدفعته لفورها ونهضت معلنة بلهجة جافة انها تريد أن تعود الى بيتها ! .. لكن الشاب والمرأة – التى كانت قد عادت بالزجاجة مفتوحة – توسلا اليها ، ساخرين ، بما جعلها تعدل عن الرحيل !

وعادوا الى الشراب ، فلم تتمالك « جيما » – وهى تشرب ، رغم ثملها – ان تقارن بين «فيتونى»، الشاب القوى المتورد الخدين ، وزوجها الهزيل الاصفر!.. وأعجبها فى «فيتونى» أيضا طباعه الخشنة المجردة من المسكنة والتكلف ، الواضحين فى زوجها «البروفسور» . كان واضحا أن «فيتونى» قد عاش عمره بين أهل المجتمع الراقى ، وهل أدل على ذلك من ازدرائه لقواعد العرف ، ومن لهجة السيادة فى كلامه ؟

وداخلت ذهن «جيما» الثمل ، رغبة جديدة فى أن تكف عن مقاومة كل اغراء، وعن حرمان نفسها من أية تجربة !.. وزين لها شعورها الطارىء ان تحنى رأسها للمخاطر ، ثم تغوص فيها بفضول يائس !.. ففيم الصراع وكبح النفس عن هواها ؟.. ومن اجل من ؟.. ولماذا ؟.. أخذت تحدث نفسها بهذا ، وقد غشيها مايغشى الكثيرين ممن سئموا الاصطناع وكتمان حقيقة عواطفهم ، من فرط ما يمر بهم من فترات يعجزون فيها عن أن يفرقوا بين فكرة الفضيلة ، وفكرة الافادة المباشرة والجزاء المحتوم ، حتى لتعمى بصائرهم عن أن يميزوا بين الفضيلة وبين منفعة تنطوى على رذيلة ؟.. لقد عاشت شريفة ، فما الذى جنته من ذلك؟.. جنت زواجا وضيعا تعسا ، وحياة ضحت فيها بنفسها ، وقليلا من الرجاء فى المستقبل ، بل لا رجاء !.. أليس الاجدر بها اذن ان تستمتع بالحياة ، كما توصيها مدام « كوسيانو » دائما ، فى غير حرج ولا اكتراث ؟

وكانت وهى تقلب هذه الافكار فى رأسها ، لا تكف عن محادثة « فيتونى » ومنادمته ، حتى غادرت صديقتها الحجرة مرة اخرى لتحضر بعض البسكويت . واذ ذاك ، استسلمت « جيما » للقبلات ، دون ما مقاومة !

* * *

◆ وظلا على حالهما لحظات ، فى الحجرة الصغيرة المعتمة ، العارية الا من مقاعد

صغيرة ووسائد • ثم اعلنت مدام « كوسيانو » ـ فى لهجة الام الحانية المشفقة ـ انها توشك ان تهوى لفرط مهاجمة النوم لها ، وان الوقت قد حان كى يصحب « فيتونى » « جيما » الى بيتها • وقبل الشاب ان يصدع لهذا الامر اللطيف فى ابتهاج •• بل انجيما لم تتمالكان أحست بالغيرة، خشية أن تصحبهما صديقتها ثم تعود الى المدينة مع « فيتونى » ، وحدها !

لكن مدام « كوسيانو » دفعتهما الى خارج مسكنها ، بعد تبادل تمنيات طويلة لليلة طيبة ، ووعود بتجديد هذا الحفل الصغير فى اليوم التالى !

ووجدا نفسيهما وحيدين فى الشارع •• فسلكا طريق الخندق ، بمحاذاة الجدران العالية التى تتوجها الثغرات •• وكان الجو فى تلك الفترة من شهر نوفمبر عليلا ، والقمر يتوسط سماء صافية بلا سحاب ، مرسلا ضوءه الزاهى •• وأفق التلال الفسيح الذى يتبدى من خلال ثغرات الجدران ، يسبح فى ذلك الضياء الباهر • وكانت النوافذ النادرة المضاءة فى البيوت المتناثرة فى الريف تبدو متطفلة على مثل ذلك الجلال •• كان قمرا كاملا يسطع وسط السماء ، وعن يمينه كوكب (المشترى) البهى الابيض •• وقد ارتفع من داخل المدينة نباح كلب انتشى بذلك البهاء القمرى الخارق فرفع عقيرته يثلم ذلك السكون •• وجاوبه من أحد تلك البيوت المتناثرة فوق التلال كلب آخر ، تناهى نباحه من بعد وهو يتلاشى ويضيع عبر ذلك الفضاء الفسيح •• ووقع من نفس « جيما » هذا النباح المنفرد الواهن من الحيوان الملهوف على صحبة جنسه ، كأنه دعوة الى الوقوف ، والاصغاء ، وتأمل الليل •• فجلست فى ثغرة تتخلل سور المدينة المنخفض ، وقفز « فيتونى » فصار بجانبها • وكان جلال الليل الساكن قد أبعد عن نفسها كل رغبة من رغبات الحواس ، وملأها شعورا بالحاجة العاطفية الى ان تحيط بقوامها ذراع ، وهى تتأمل المشهد ، وراسها مسند الى كتف جارها •• الم يكن هذا هو الحب ؟ هكذا خطر لها : أن الحب هو لمسة يد الحبيب وهو بجوار حبيبته •• والاعجاب المشترك بالاشياء الجميلة •• والسكوت فى لحظة واحدة •• ومن ثم تيقظت فيها ـ تحت مطامح الغرور والمظهر السطحى المصطنع ـ نزعة عاطفية « اقليمية » ، عفا عليها الزمن !

وهمست : « انى لأحب هذا النباح ينبعث عن بعد ، وهذا القمر الرائع •• ويطيب لى أن اظل الساعات ناظرة اليه •• » •• وابتسم مرافقها لهذه العبارة،فما كان القمر عنده الا موضعا للاستهزاء ، وما كان يرى فيه سوى وسيلة منالوسائل العديدة المسخرة لتحقيق غاياته !•• لكنه سكت عن التعليق ، فقد علمته التجارب ان من الافضل « تـرك الماء الجارى يسترسل فى منحدره » ، وان مثل هـذا الاستسلام من المرأة يمهد لاذعان من نوع آخر !

★ ★ ★

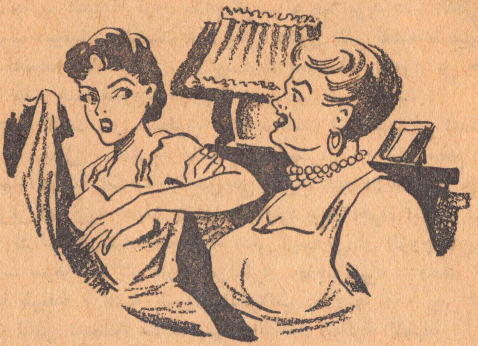
◆ ولبثا على هذه الحال لحظات ، جالسين جنبا الى جنب فى مواجهة المنظر الطبيعى الليلى الصامت ٠٠ وبين وقت وآخر ، كانت جيما تدير وجهها اليه ، وتلصق خدها بخده ، وهى تغمغم له ببضع كلمات الاعجاب ، والمسارة ، والخواطر ، والذكريات ٠٠ كانت تقول انها تحس فى ضوء القمر وامام تلك التلال السوداء ، نفس الاحساس الذى يعتريها فى الكنيسة ، فى بعض أمسيات الشتاء ، عندما لا يتبدى فى الظل غير المذبح باضواء شموعه الصغيرة التى تحترق وسط الازهار ، امام صورة العذراء المذهبة التى تحوطها الظلال ٠٠ وحاولت أن تفسر له هذه العاطفة البالغة العذوبة ٠٠ عاطفة النسيان ، والاذعان المطمئن ، والفناء فى الايمان !

وأجابها « فيتونى » فى ثقة انه هو أيضا أحس بهذا الاحساس ، وان كان فى الوقت نفسه قد خاطر بتقبيلها ، فما لقى منها ـ كما قدر ـ ادنى مقاومة !٠٠ ذلك انها كان قد داخلها الايمان بانها وجدت الروح الرقيق الذى طالما بحثت عنه، سيما وقد كان زميلها ينصت اليها بوجه يبين فيه الجد ، وعينين مفعمتين بالفهم والعطف ٠٠ ولو كان من يصغى اليها زوجها ، لسخر منها ، أو لاجابها باحدى تلك الكلمات الرعناء التى تبدد سحر الموقف وتجعلها تخجل اذ كشفت له عن نفسها !

وغدا « فيتونى » ـ فى عينيها ـ هو الانسان الكامل ، واقتنعت بانها ٠٠ قد أحبته !

٠٠ وكم من اعترافات همست بها له فى تلك الليلة ، وهما جالسان على الجدار تحت ضوء القمر !٠٠ ولقد اصغى هو اليها باهتمام كله خشوع ، قبل أن يعقب على اعترافاتها بالقبلات !٠٠ وما عاد امرهما سوى لون من عبث الاطفال، فلو أن « فيتونى » أوتى دقة فى الملاحظة لأعجب بالانتظام الآلى الذى يربط الاسباب بالنتائج ٠٠

وأخيرا نهضا وعادا الى الطريق ، حتى بلغا بيت « جيما » ٠٠ وهناك قبلها « فيتونى » مرة اخيرة ، قبل أن يعود الى فندقه بخطى نشيطة ، وهو يصفر بين شفتيه لحنا خفيفا مرحا ٠٠



الفصل العاشر

◆ فكرت جيما فى اليوم التالى فيما حدث ، فلم تشعر فى نفسها بروع أو ندم ، بل رأت ان ما تذوقته فى تلك النزهة كان كافيا لتبرير المغامرة !٠٠ لكن حالتها الذهنية كانت حالة شخص يشرع فى طريق مجهولة ، يجدها ملائمة ، لكنه لايعرف ماقد تفضى اليه فيما بعد من اخطار ، ومن ثم يتراجع باحثا عن ضمان ، وعن مشجع !٠٠ وهكذا كانت جيما فى حيرتها تبغى ، قبل ان تندفع الى أبعد ، أن تستمد تأييدا من سلطة ما !٠٠ ولا حاجة الى القول بأنها وجدت هذا العون عند مدام كوسيانو ، فقد قصدت اليها فى الصباح كى تفضى اليها بذات نفسها ، فوجدت منها تأييدا حارا ٠٠ فقد استبعدت الرومانية فى الحال من نطاق البحث ـ دون أدنى تردد أو تحرج ـ الاعتبار الاخلاقى المضحك ، واندفعت من فورها الى الخطة العملية « الاستراتيجية » ، خطة الاقدام على العمل ، على حد قولها ، لا الجمود والشكوك العقيمة !

ولم تكن جيما تأمل غير نصيحة خالصة ، تصدر دون تحيز ، فاذا بها تجد « تشجيعا » حماسيا : فان « فيتونى » يتحلى بجميع الصفات المرغوب فيها فى مثل هذا الموقف ، فهو «رجل مجتمع» وهو يحب جيما ، كما ان جيما تحبه ٠٠ فليس السؤال اذن هو : أيمضيان بهذا الحب الى غايته ؟ ـ اذ ما من مجال للريب فى هذه النتيجة ـ وانما المهم الآن هو تنمية هذه العلاقة البازغة التى عقدت الآن أواصرها ، بما يرضى الطرفين ٠٠ من وراء ظهر الزوج !

وكانت التجارب الطويلة تزود مدام كوسيانو بما يؤيد هذه النظرية من حجج بليغة لا ينضب معينها : فليست هذه بالمرة الاولى التى تقصدها فيها امرأة قلقة .. وما من نصيحة لها اتبعت ، الا وسارت بمقتضاها الامور على خير ما يرجى .. وها هى تقدم لجيما مشروعا مدروسا لا ينقصه غير التنفيذ !

ولو أن جيما كانت اقل اضطرابا ، لاستطاعت ان تتبين فى اعماق نفسها عاطفة يشوبها الخجل ، ممتزجة بالندم والاشمئزاز .. لكن مدام كوسيانو لم تكن لتدع لها الفرصة الكافية للتعمق فى تقليب هذه الاحاسيس على وجوهها ، بل راحت تزين لها جوا جديدا يشملها .. جوا تبدو الجرأة الخطرة فيه عملا هينا مشروعا !.. اذ لم يكن عند تلك المرأة ادنى ريب فى أن الزوجات يجب ان يخن أزواجهن ! ـ سيما اذا كان هؤلاء من طراز «فاجنوتسى» ـ فقد كان ذلك فى نظرها قانونا طبيعيا ، أشبه بشروق الكواكب وغروبها !.. ومن ثم فمن العار على جيما ان تخلق استثناء مناقضا لهذه القاعدة العالمية اللطيفة !

.. وتعود المرأة بعد ذلك الى الثناء على « فيتونى » ، فهو عندها الرجل المنشود لاسعاد صديقتها .. ثم تقترح فى النهاية على جيما ان تكون مقابلتها له فى بيتها هى ـ الصديقة ـ تحاشيا لكل ريبة !

★ ★ ★

◆ لكن هذا الاقتراح ظل معلقا فى الهواء برهة ، ذلك أن جيما التى أدارت رأسها الغواية ، لم تأنس من نفسها ـ مع ذلك ـ الشجاعة على القبول . ورأت مدام كوسيانو ألا تلح عليها فى هذا الصدد ، بل حولت دفة الحديث من فورها الى موضوع آخر ، وعنيت بتفادى العودة الى ذلك الاقتراح ، حتى لقد خشيت جيما ان تكون قد أهانت صديقتها ، وحرمت نفسها ـ بحيائها الزائف ـ من عون جزيل النفع !.. وعذبتها هذه الفكرة ساعات ، فعادت بعد ظهر اليوم نفسه الى بيت صديقتها ، كى تذكرها باقتراحها وتعرفها بأنها تقبله !

ودخلت البيت ، فلم تجد غير فيتونى ! .. كان جالسا وامامه فنجانا قهوة فارغان . وقال لها ان مدام كوسيانو قد ذهبت تحمل «أباجورة» صنعتها الى بيت عميلة ، لكنها ستعود قبل المساء .. وتبينت جيما الشرك ، وخطر لها ـ بعد أن أيدت ظنها تلك الابتسامة الساخرة التى بدت على وجه الشاب ـ أن تنسحب فى الحال .. لكنه أمعن فى التوسل اليها ، واقسم أن يلزم حدود التعقل ، فوافقت على البقاء ..

وكان يغدو ويروح فى الشقة كما لو كان فى بيته ، واجبرها على ان تخلع قبعتها .. بل انه وجد فى المطبخ زجاجة شراب خفيف لم تفض سدادتها بعد ،

كأنما قد اشتريت فى اليوم نفسه ، فجاء بها وجلس بالقرب منها ٠٠ ثم نسى قسمه ، فقبلها !

وهنا ادركت جيما ما سيحدث ٠٠ فزايلها فجأة كل تحفظ ، ولم تعد تفكر فى غير الاخلاص لنفسها ! وعاودها الاحساس الذى تملكها ليلة أمس فى ضوء القمر ، فبدا لها انها تستطيع أن تقدم لفيتونى دليلا على صدق عاطفتها أقوى من هبة الجسد ، وهى ليست سوى هبة ضئيلة اذا قورنت بهبة القلب ، التى قد تنم عنها ايماءة او كلمة ٠٠ ولكن ، وأسفاه !٠٠ لقد شاء سوء طالعها ألا تكون كلمات الحب التى جادت بها قريحتها سوى كلمات جوفاء ، معادة ، زائفة ، وان خيل لها انها كانت عنوان الاخلاص !٠٠ لم تكن روحها هى التى تتحدث الى فيتونى ، بل روح أخرى مستعارة من السينما ، والمجلات الشعبية ، والروايات الرخيصة !٠٠ وهكذا انتقم لنفسه الذكاء المحتقر !٠٠ واذا الاخلاص ، ووقدة الدم ، والحماس المنبعث من اعماق نفس مجربة ، تترجم عنها كلمات رخيصة مستهلكة ، شبيهة بتلك الملاليم التى ترن فى جيب ذلك الفقير الذى تسولها !

★ ★ ★

◆ وفى الايام التالية، هنأ فيتونى ومدام كوسيانو نفسيهما على بعد نظرهما٠٠ فكان الاول يشبع رغبته التى أثارتها فيه جيما منذ زمن ، وكانت الثانية تشهد نصائحها تتبع ، وخدماتها المريبة تقبل !٠٠ اما المخلوقة الوحيدة التى لم تكن راضية عن نفسها ولا عن الاخرين ، فهى جيما !٠٠ فانها لم تكن قد عرفت عنفوان الشهوة الحسية ، وانما كانت فى مشاعرها نحو فيتونى أقرب الى الحنان والعاطفة الباردة ٠٠ فلم يكد ينقضى اسبوع حتى تبدى لها الطابع «السطحى» لعلاقتهما الفاترة !٠٠ كما أن فيتونى ـ الذى لم يكن بطبيعته رقيق الحاشية ـ لم يكد يطمئن الى «غزوته» حتى سئم ماكان قد تكلفه نحو جيما فى البداية من تلطف وزلفى ، ولم يعد يتحرج من الاعتراف ـ فى صراحة وفظاظة ـ بخيبة أمله ! لقد ظن انه واجد عندها نشوة الحواس والوجد المفرط ، فاذا هو مغلول الى امرأة من نساء الاقاليم ، تنقصها التجربة ، فوق انها باردة العواطف، ساذجتها ، تكثر من الحديث عن الحب ، وبلهجة من وحى الخيال الواهم لم تعجبه ٠٠ فكان ذلك يخيفه من أن تتعلق به ، وتغار عليه !٠٠ فى حين ان كل ماأراده انما كان «مغامرة» قصيرة ممتعة ، وليس هذا المأزق «الجدى» الذى زج بنفسه فيه !

وقد كان لمخاوفه ما يبررها فى الواقع ، فان جيما ـ مع وعيها ببرودة علاقتها ـ كانت مهيأة بطبيعتها للتعلق به والتوهم انها تحبه ، جبنا منها وفرارا من

عزلة حياتها !٠٠ وما كانت لتقوى على فصم علاقتها معه بعد ان اندفعت فى ذلك الطريق الاثيم ، اندفاع اليائسة المحرومة من الرجاء ٠٠ ومع ذلك ، فهى لم تكن أقل ادراكا من فيتونى لخلق مدام كوسيانو ٠٠ واذا كان قد وسعها ـ حتى ذلك الحين ـ أن تعتبر خشونة الشاب وقسوته ، بساطة وصراحة ، الا انها لم تستطع ان تنظر بنفس هذه النية الطيبة الى الرومانية ٠٠ فما ان زالت اللهفة الاولى حتى لم يبق بينهما سوى علاقة التواطؤ المريب !٠٠ بل بدأت جيما تكتشف كل عيوب تلك المرأة بجلاء مروع، كما لو كانت تراها خلال عدسة تكبر المرئيات وتشوهها!٠٠ وعندئذ استبدت بها الدهشة لكونها لم تر «صديقتها» منذ الوهلة الاولى على حقيقتها !٠٠ وصارت لا تخلو بها الا وتحس بمشاعر متزايدة من الخزى لا تقوى على احتمالها ٠ لقد كان فيتونى مخلصا ، بطريقته الخاصة ، وكان خطأ استسلامها له يقع على عاتقها هى ٠٠اما تلك المرأة كوسيانو، تلك الناعمة المعسولة الكلمات، فلم تكن سوى الخديعة البشعة مجسمة ! كانت تحس بانها زائفة ، مخاتلة ، قادرة على اقتراف كل الشرور٠٠ بل كانت شريرة بكل معنى هذه الكلمة!٠٠وكان فيتونى يشاركها نفورها من الرومانية ، فلقد اصدر حكمه عليها منذ النظرة الاولى ! لكنه اضطر الى مسايرة جيما فى آرائها وميولها ، لان مصلحته كانت تقتضى ألا يبوح برأيه الخاص !٠٠ أما الان ، فقد اصبح يعتبر مدام كوسيانو من أكبر منغصات مغامرته السيئة ٠٠ ولم يكن يدخر وسعا فى ايضاح هذه الحقيقة لجيما كلما شكا لها صديقتها !

★ ★ ★

◆ وكانت جيما تؤثر ألا تتحدث عن علاقتها بفيتونى ، لكن مدام كوسيانو كانت ـ بفضولها الذى لا يعرف الحياء ـ تريد أن تعرف كل شىء ، فكانت تستجوبها ، وتوصيها ، وتفسر لها ، وتنصحها ، وتحذرها ٠٠ تفعل ذلك كله دون أن تسألها جيما منه شيئا ، متخذة لنفسها مركز الحامية المخلصة «المحايدة»، المجردة من كل مصلحة ـ بل مركز الام ! ـ وان كانت حمايتها فى الواقع من قبيل الحماية المنطوية على التهديد والابتزاز !

وحدث ذات يوم أن ثارت جيما على هذا الفضول ، لكن ثورتها كانت قصيرة العمر ، لم تلبث ان انطفأت بمجرد ان تخلت مدام كوسيانو فى الحال عن رقتها المعسولة، وكشرت عن وجه فاس فظ يخيف حقا من يراه ٠٠ وهى تجيبها : «آه!٠٠ أهكذا تكلمينني !؟ »

قالت ذلك بهدوء ، ويدها الممتلئة ، التى كانت فى العادة رخوة طرية ، تقبض بصلابة على ذراع جيما ، كمخلب النسر : «أهكذا تجاوبينني ٠٠ انا التى ساعدتك ولم تفعل لك الا الخير ؟!٠٠ انك لجاحدة للجميل ، لكن حذار ! فانا اعرف عنك أكثر مما ينبغى !»

وادركت «جيما» ماوراء تلك الكلمات من تهديد بالغ الوضوح ، بارد التدبير، فأحست انها توشك أن تفقد وعيها رعبا ٠٠ ومن ثم فقد غيرت لهجتها على الفور، معتذرة بتوتر أعصابها ، وتلطفت مع المرأة كي تهدىء من ثائرتها !

وتفاقم طغيان مدام كوسيانو في الايام التالية ، فصارت تفرض على جيما شراء «أباجوراتها» القبيحة المنظر بثمن مرتفع ، وتقترض منها نقودا ، وتظل تبدى اعجابهاببعض ثياب جيما او قبعاتها ، بلهجة ايحائية ذات مغزى ، كي تنزل لها عنها !٠٠ كما خصت فيتوني أيضا بثناء من نوع آخر ، فيه تظرف ودلال ، وبأسلوب الفتيات الصغيرات ٠٠ وكان الشاب قد منحها في البداية هدايا كثيرة ، اما الان ، وبعد ان خيبت جيما رجاءه ، فما عاد يجد لديه رغبة في انفاق شيء ٠٠ فصار يجيب الرومانية بلذعات قاسية جعلتها تخشى بأسه ، فبدأت تكرهه وتحمل عليه ، وتظهره لجيما في صورة شائهة ، واصفة اياه بأنه «حيوان غاشم» !٠٠ وبأن واجب جيما يحتم عليها أن تهجره ، سيما وانه يعيش من موارد غير مشروعة : اما عالة على النساء ، أو من الغش في القمار !٠٠ وبلغ من ضيق فيتوني بما ترميه به أنه قبض ذات يوم - في حضور جيما ، المشمئزة، المذهولة - على معصمي الرومانية ، وهددها بالانتقام منها ان هي استمرت في تشويه سمعته ! ثم قرن تهديده بأشد صفعتين تلقتهما في حياتها ، قائلا انه هو أيضا يعرف الكفاية عنها ، وان له من النفوذ مايكفي لاعادتها الى وطنها ، وبغير امهال ! ٠٠ فما كان من المرأة الا أن اذعنت، وقد شحب وجهها ٠٠ بعدأن أسقط في يدها !

وهكذا ران على هؤلاء المتواطئين الثلاثة ذلك الجو المحتوم الذى يظلل مثل هذه الروابط : جو المحاذرة ، والتهديد ، والحقد ! لكن جيما - أكثر الثلاثة تجردا من السلاح ، وأشدهم حساسية - كانت صاحبة النصيب الاكبر من الالم!

* * *

◆ وذات يوم ، أعلن فيتوني انه قد انجز مهمته في المدينة وباع أرضه التي كان يملكها في ضواحيها ، وابلغ جيما انه قرر الرحيل !٠٠ فتلقت هي هذا النبأ في سكون ، مجرد من الدهشة ، الامر الذى ضايق فيتوني ، اذ كان يتوقع - بدافع من غروره - مشهدا روائيا ، تسيل فيه الدموع !٠٠ واذ ذاك أحس أسفا ينبثق فجأة في نفسه ، كما لو كان قد تنبه ساعتئذ فقط الى مزايا جيما !
وتم الوداع في احدى حجرات مدام كوسيانو الصغيرة ، وكانت الرومانية - التي لم توجه كلمة واحدة الى فيتوني منذ هددها وصفعها - قد لاذت بحجرة

اخرى ، وظلت تصرخ بأعلى صوتها ، تسأل جيما أن تخبرها ، بمجرد رحيل هذا الشخص !

ولم يكن فيتونى راضيا عن الصورة التى تم بها قطع علاقته بجيما ، ولم يعد يدرى ان كان محقا فى هجرها أم لا ؟!٠٠ بات يخشى - اذ بدت له فى هذه اللحظة بمظهر جديد ، محير ومرغوب ! - ان يكون قد أساء فهمها ، وألا يكون قد استمتع منها بما فيه الكفاية !٠٠ وساورته فكرة : الا يقطع الخيط الموصول بينهما كل القطع ، بل يحتفظ بها على سبيل الاحتياط ، ليوم تراوده فيه الرغبة فى استردادها !٠٠ ومن ثم اقترح عليها أن يتراسلا ! وكان اقتراحا يستغرب صدوره من رجل حيوانى النزعة ، ناقص الثقافة والتهذيب مثله !٠٠ غير انجيما اجابته ، فى برود ، بأنها لاترى ضرورة لمثل هذا التراسل ، فما عاد عندهما - كعاشقين - مايقوله أحدهما للاخر ٠٠ وماذا عساهما يكتبان فى رسائلهما ؟!

وامام هذا الجفاء الحاسم ، أدرك فيتونى ان مغامرته «الريفية» قد انتهت الى غير رجعة !٠٠ وحدث نفسه وهو يهبط السلم : «ياللخسارة ٠٠ كانت على كل حال أفضل من كثيرات غيرها !»

وكان ذلك آخر خاطر وجهه ذهنه الى جيما !

★ ★ ★

◆ وسعت جيما بعد رحيل فيتونى الى حجرة الرومانية فى أقصى البيت ، فوجدتها جالسة على سريرها ، وسط كومة من الخرق المتناثرة ، وشعرها ملء برقائق الورق التى تحفظ له تموجاته ، أثناء النوم ، وصدرها مضغوط فى درع قذر ممزق ، ملفوف فى قميص من الحرير المصفر ، وهى مشغولة فى«لضم» لآلىء احدى «أباجوراتها الخالدة» !٠٠ وكانت بادية الشحوب، وهى تضمشفتيها الرفيعتين المتقلصتين على لؤلؤتين ، وقد بدا وجهها أشبه بوجه وحش شرير !٠٠ فارتجفت جيما لهذا المشهد ، وناجت نفسها : « لقد رحل فيتونى ، وبقيت انا وحدى مع هذه المرأة !»

وفى تلك اللحظة ٠٠ نهضت مدام كوسيانو ، كما لو كانت قد حدست هذه الفكرة ، ونظرت الى جيما بعينين يتطاير منهما الشرر ، وقالتبصوت جافكصوت ببغاء ، واسنانها مطبقة فى غيظ : «أخيرا رحل ٠٠ رحل هذا الوغد ٠٠ وبات فى وسعى أن أتنفس ! »

ولم تجب جيما ، اذ لم تكن تضمر حقدا لفيتونى رغم خشونته ، ورغم انها لم تحبه قط ٠ ولم تجد من نفسها استعدادا للحديث عنه مع مدام كوسيانو ، فاجتازت الحجرة دون ان تتفوه بكلمة واحدة،ثم أسندت جبينها الى زجاج النافذة٠ وكان الجو السيىء قد عاد يثقل على الزقاق ، وأخذت الاحجار السوداء فى البيت

المواجه تلمع من فرط الرطوبة ، وان ظل المطر يتساقط رذاذا خفيفـــا حتى ليصعب تمييز قطراته ٠٠ وما لبثت مدام كوسيانو ان قالتدون ان تقطع عملها : « لست احب كثيرا موقفك منى فى المدة الاخيرة ٠٠ واحب ان انذرك يا عزيزتى باننى لن أدع احدا يمر فوقى ! »

وبدا صوتها ، وهى تتحدث ، اشبه بنسمة من ريح الشتاء نفذت من خلال ثقب الباب فأصابت ظهر جيما بوخزتها الباردة !٠٠ والتفتت جيما ، ثم قالت وهى تسند ظهرها الى النافذة ، وتنظر الى الرومانية فى اعتداد هادىء ، وان يكن حزينا : « اما كفاك ان جعلتنى أقدم على ذلك الجنون ؟٠٠ لقـد جعلتنى أخـون زوجى ، وهو أنبل رجل فى العالم !٠٠ فماذا تريدين أيضا منى ؟! »

وكانت هذه اللهجة جديدة عليها ـ حتى لقددهشت هى نفسهامنها ـ كماكانت العاطفة التى تعبر عنهاجديدة هى الاخرى ، فما حدث لها من قبل أن تكلمت عن زوجها بهذه اللهجة !

وقذفتها مدام كوسيانو بنظرة مذهولة ، وهى تحاكى صوت الببغاء : « تش ! تش ! تش ! » ٠٠ ساخرة منها ، قبل ان تقول لها فى لهجة أرق : « فيم شطح فكرك ؟ ٠٠ ان هى الا ليلة تنعمين فيها بنوم طيب ، ثم يعاودك هدوء نفسك !» ٠٠ وكانت قد فرغت من لضم لآلئها فوضعتها جانبا ، ثم دنت من جيمافطوقتها بذراعيها ، قائلة : « تعالى هنا ٠٠ اجلسى بالقرب منى وحدثينى عما بك ٠ لم أنت حزينة هكذا ؟ أيكون ذلك بسبب رحيل هذا الرجل الفظيع ؟ »

وتولى جيما نفور شديد يكاد يبلغ مبلغ الاشمئزاز، من ملمس تلكالذراع، ومن لفح تلك الانفاس ، فأجابت دون أن تتحرك ، وعيناها ثابتتان فى اتجاه مستقيم أمامها : « كل ما بى انى محزونة ! » ٠٠ فهزت مدام كوسيانو رأسها قائلة : « انه تأثير الوحدة ! ـ واسمحى لى أن أقولها لك ـ فالوحدة هى التى تبعث فى نفسك هذه الكآبة والحزن ! »

٠٠ ثم اضافت بعد صمت قصير ، كما لو كانت قد تذكرت شـيئا بمحض المصادفة : «أتعرفين فيم كنت أفكر ؟٠٠ انها فكرة رائعة ٠٠ فلـكى لاتحسى بالوحدة ولا تضيقى بسأمك ، سأجىء فأقيم فى بيتك ، لتأتنس احدانا بالاخرى، ونسخر معا من كل «فيتونى» فى العالم! »

صعقت جيما !٠٠ واستقر بصرها على الارض فى رعب ، قبل ان يسعها أن تقول فى صوت مهزول : «لن يرضى زوجى ! » ٠٠ فهزت مدام كوسـيانو كتفيها فى استخفاف ، وقالت : «هراء ! ٠٠ ماعدت أفهمك ياجيما ! ان زوجك يفعل كل ماتريدين ٠٠ ستقولين له انك فى حاجة الى صحبة ، وانه لحق ، ولن يجد حجة يعارضك بها ٠ انك طفلة ياعزيزتى ، ولا تعرفين الحياة ٠٠ ان الازواج ينبغى ان يؤخذوا بالحيلة !»

كان مثل هذا القول من مدام كوسيانو يبدو لجيما فى الماضى مليئا بالحكمة البارعة المقنعة ، أما الان فانه يرعبها بقدر مايرعبها شخص تلك المرأة ذاتها !٠٠ وقالت تجيبها : «ولكن لنفترض انه لم يقبل فكرتك !» ٠٠ فقالت المرأة : «فى هذه الحالة ، ياعزيزتى ، سأعرف فى الحال من أين تأتى الضربة ! انى أكرر لك : زوجك يطيعك ٠٠ فاذا لم يرد ، فانما يكون ذلك لانك انت لاتريدين !»

ـ حسنا ! لنفترض انى ، انا ، لاأريد !

جازفت جيما بهذا الرد ، فصاحت مدام كوسيانو متوددة : « لا أستطيع أن أصدق هذا ، فنحن صديقتان حميمتان ! لماذا تجعلين منى عدوة لك ؟ أنا أعرف الكثير عنك ، فاذا أردت أن تخذلينى وتتخلى عنى، ففى استطاعتى أن اوقع بك أذى كبيرا ! فماذا يفيدك هذا ؟ فى وسعك ان تتصورى الى أى حد ستتعذبين ٠ وسيؤلمنى ذلك انا ايضا ، فانى أوثر ـ اذا كان ذلك ممكنا ـ أن أعيش فى سلام مع الجميع !٠٠ وأؤكد لك أنه يؤلمنى كثيرا مجرد التفكير فى احتمال مايمكن ان يحدث ٠٠ لو وقف زوجك على حقيقة ما وقع فى بيتى ! »

٠٠ وكان جسد جيما قد أخذ يرتعد كله ، فقالت مذعورة : « أفى نيتك اذن ان تذهبى وتروى له ٠٠؟»٠٠ لكن مدام كوسيانو قاطعتها فى خبث : «هلم ! هلم ! ان هو الا كلام يقال ! ٠٠ فلنكف عن الحديث فى هذا الموضوع٠٠ والان ، أجيبى : متى يناسبك ان أحضر الى بيتك ٠٠ اليوم ؟ ٠٠ غدا !؟ »

قالت ذلك وعادت تطوق جيما بذراعها ، فأجابت هذه دون ان تتحرك : «غدا ٠٠ اذ يجب ان أخطر زوجى٠٠» ، فقالت الاخرى فى اهتمام : « حسن جدا ، فلنحرص على مايلائم ظروفك ٠٠ ثم ان ارجاء الامر الى غد سيجعل عندى متسعا من الوقت لاعداد حاجياتى ٠٠ وهل تعرفين أين سيطيب لى أن أقيم ؟ فى الطابق الاول٠٠ فى الحجرة التى تشرف على الحصون ! » ٠٠ فعبست جيما وهى تعقب على قولها : « لكننى كنت أعتزم أن أجعل منها حجرة أطفال!» ٠٠ فنظرت اليها الاخرى بذهول مصطنع ، ومبالغ فيه، وقالت : «جيما! انك لن تجعلينى أعتقد انك من فساد الذوق بحيث تنشدين الاطفال !٠٠ واطفال السيد فاجنوتسى بالذات !»

وكانت جيما تعرف منذ أيام انها حامل ، وتعرف ـ من حساب الاشهر ـ ان والد الجنين لايمكن ان يكون الا زوجها ، فملأتها لهجة مدام كوسيانو وتعبيرها كراهية عنيفة ، بحيث عانت الكثير من الجهد كى تمنع نفسها من أن تهجم عليها وتمزق بضربات أظافرها هذا الوجه الماكر المعسول ! ٠٠ لكنها قمعت ميلها اخيرا وقالت فى كمد : « ليكن ٠٠ ليكن ٠ ولكن ينبغى أن أحدث زوجى فى الامر أولا ! »



الفصل الحادى عشر

◆ لم تكد « جيما » تعود الى دارها فى عصر ذلك اليوم ، حتى استلقت على سريرها ، وسحبت الغطاء على جسمها ، ولم تحر حراكا حتى المساء . وكانت حجرتها تقع فى الطابق الاول ، وقد طليت بالجير .. حجرة باردة ، كئيبة ، ذات اثاث اسود نسب زورا الى القرن الخامس عشر !.. وكان الذباب الكليل يتهافت على زجاج النافذة ، والمطر ينهمر فى الخارج .. و « جيما » ترتجف !

كان الخوف والاستنكار قد زايلاها ، وتولاها شعور بظلم مخز ، مقيت .. وكأنما حكم عليها بان تعيش مغلولة الى جثة يدب فيها العفن !.. وكانت تعانى الى جانب الالم المعنوى ، ألما جسديا .. تقززا بدنيا كان يبعثه وجود مدام « كوسيانو » !.. وعرضت عليها مخيلتها المهتاجة ، المنفعلة ، صورة نابية لحياتها المنزلية بعد ان تفسدها هذه الدخيلة المدنسة .. وللمرة الاولى شعرت بالغيرة على هذا البيت ، الذى ماأحبته قط ! .. فشعرت وهى تتصور تلك ال « كوسيانو » فى الحجرة المخصصة لاطفالها ، كأنها دودة ضخمة رخوة مائلة الى البياض ، تسمن وتتضخم ، وتملأ الحجرة برائحتها ، وبألف نوع من الاوساخ ! . وكانت تعرف ان هذه المرأة تشرب الخمر ، وتصبغ شعرها ، وتتطيب ، فاشتد غثيان نفسها وهى تتصور فى تلك الحجرة كل تلك القنينات الصغيرة ، السوداء ، الكئيبة ، وقد صفت على نضد ، بينما تناثرت على ظهور المقاعد ثياب ملوثة بالعرق .. ورات فيما كانت ترى بعين الخيال ، صفا من

الاحذية الشوهاء وراء الباب ، كما تصورت مدام « كوسيانو » نفسها وهى تظهر كل صباح لتلقى تحية اليوم الجديد ، بوجه ملطخ بالادهنـــة ، ورأس مغطى بالورق الذى يستخدم فى عقص جدائل الشعر ..

على أن أقسى ما عذب « جيما » من هذه الرؤى التى تمثلت فيها المستقبل القريب ، هو التفكير فى « استمرارها » ! اذ خيل اليها انها لن يسعها - مدى الحياة - أن تتخلص من هذه الحشرة التى تمتص الدماء .. فاعتصر قلبها ازاء هذه الفكرة خبال خفى ، خيل اليها معه انها توشك أن تجن !

ولم يصدها عن الاعتراف بالحقيقة لزوجها - الذى اســتبانت اذ ذاك فقط مناقبه - وعن مناشدته الصفح والمغفرة ، سوى خوفها من أن تفقده ، ومن أن يؤدى ذلك بها الى العودة الى ذلك الزقاق الذى نشأت فيه ، والى بيت امهـــا ونزلائه !.. ولم تكن بطبعها شجاعة ، فأذعنت فى يأس لشقائها وذعرها من تلك المرأة « كوسيانو » ، وتولاها شعور جائح « هستيرى » بانها .. حقيرة !

★ ★ ★

◆ وفى تلك الليلة ، افضت الى زوجها - وهما يجلسان الى المائدة - بانها سئمت وحدتها فى البيت ، فقررت ان تدعو مدام « كوسيانو » للاقامة معهما . وتوقعت ان يعارضها - بل تمنت ذلك ! - ولكنه كان يحبها ، وكان نادما على انه لم يف بوعده لها بشأن الاقامة فى روما ، كما كان حريصا على ارضاء كافة رغبات زوجته .. ثم انه كان قليل المعرفة بالمرأة الرومانية - التى لم يرها الا فى ظروف نادرة - فوق جهله بالطباع البشرية !.. فاجتمعت كل هذه العوامل لتجعله يكون لنفسه عن المرأة صورة مستلطفة ، توحى بالالفة وحسن المعشر . فهى عنده امرأة جمة النشاط ، مسلية ، مرحة ، قادرة على أن تؤنس « جيما » ، التى لاحظ فى العهد الاخير صمتها ، وما كان يبدو عليها من هم !.. ومن ثم أبدى لفوره موافقته - التى لم ترق لجيما - قائلا : « الواقع اننى فكـــرت فى ذلك من قبل ، ولا ادرى كيف لم احدثك فى الامر .. » .. ثم اردف قائلا ان فى ايوائها عملا من اعمال البر ايضا ، اذ كان قد علم من « جيما » ان مدام « كوسيانو » فقيرة ، معوزة ..

ووصلت مدام « كوسيانو » فى اليوم التالى - حسب الاتفاق - بمتاعهـــا المؤلف من حقيبة زرية الشكل من الكرتون ، مليئة بالخرق البالية ،وبضعة صناديق من الورق المقوى ربطت الى بعضها بالخيط .. فبـــدا ايواؤها حقا نوعا من الاحسان !.. واخذت من فورها تتودد الى « فاجنوتسى » ، الذى تشجع وكلمها بالفرنسية : ألقى عليها وابلا من الاسئلة عن رومانيا ، اكثرها عن بعض الاساتذة ورجال العلم الذين كانت تربطه بهم علاقة وثيقة .. وآلمت هذه الالفة «جيما» ،

فلم تنبس ببنت شفة وهم حول المائدة ، تاركة زوجها والدخيلة يتبادلان الحديث والدعابة ..

ثم شاءت مدام « كوسيانو » ان تطوف بحجرات البيت عقب الغداء مباشرة،وعلى اثر ذلك اعلنت ان البيت ليس مريحا كما ينبغي ان يكون : اذ لابد هنا من أريكة، ولابد هناك من مقعد «فوتيل» .. وان واحدة من «اباجوراتها» لكفيلة بان تضفي رونقا على هذا الركن .. كذلك وجدت مادة للحديث عن الخدمة ، فاستدعت الطاهية والوصيفة وزودتهما بأوامر وارشادات ، واخذت تتصرف ـ على العموم ـ تصرف سيدة الدار ، بينما كانت « جيما » تنتفض غضبا وحنقا !

★ ★ ★

● وروت مدام « كوسيانو » لفاجنوتسي انها كانت تملك فيما مضى قصرا في (بوخارست) ، وكان لها خدم وحشم ومركبات مطهمة!.. ولم يصدق «فاجنوتسي» من قولها كلمة واحدة ، لكنه اصغى من قبيل التسلية ، حتى لقد تأخر بعد الغداء عن الخروج اكثر من المعتاد .. وقبل ان يغادر البيت أوصى الرومانية في لهجة رجاء ان تبذل وسعها للترويح عن « جيما » ، فأجابته بان لا مجال للاحزان حيث توجد هي !.. فانصرف فاجنوتسي مفعما بالطمأنينة

أما وقد بلغت المرأة بذلك غايتها ، فقد انحصرت رغبتها بعد ذلك في أن تعيد عقد أواصر الصداقة مع «جيما» .. فقد كانت من الدهاء بحيث لا يفوتها انها بالمودة والثقة تبلغ ما لا تبلغه بالضغط والابتزاز !.. لكن « جيما » لم تأخذ المسألة هذا المأخذ ، ولو انها شاءت ان تفعل لما وسعها ان تقهر اشمئزازها ، ولا أن تنظر الى صديقتها القديمة بغير ذلك الحقد المتأجج الذى لايفتر استعاره !.. ومن ثم لم يكد زوجها يخرج حتى نهضت عن المائدة وغادرت قاعة الطعام بترفع، دون ان تنظر حتى الى علبة السجائر التى كانت الاخرى تمد بها يدها اليها !

على أن مدام كوسيانو جاءت تدق بابها بعد فترة ، فلما لم تظفر بجواب ، أدارت المقبض .. لكنها ألفت الباب موصدا بالمفتاح ! وسمعتها « جيما » وهى مستلقية على سريرها تناديها مرارا ، في لطف اول الامر ، ثم في غضب . واخيرا سمعتها تبتعد ، فلبثت حبيسة في حجرتها طوال العصر .. حتى وثقت من أن الرومانية قد خرجت ، وعندئذ ارتدت ثيابها في عجلة وهرعت الى بيت أمها !.. كانت تريد أن تفضفض عن صدرها بعض همها ، وتلتمس النصيحة .. لكنها ما ان رأت تلك الام العجوز التى احتفظت عيناها بلمعة الشباب وفاضتا بالطيش البرىء ، حتى أدركت انها لو تكلمت لكانت كمن تفشى سرها لطفلة في الثانية عشرة !.. فاكتفت بالافضاء اليها بنبأ حملها .. وكم فرحت الام بذلك النبأ ، حتى لقد غمرت ابنتها بعطفها .. ثم انتقلت بالحديث الى موضوع اسرة «باولو». كان رأيها الراسخ ان زواج «جيما» قد حال دون وقوع كارثة منكرة،فمن حقها على

القوم ان تدعى لقضاء الصيف فى «الفيلا» • ومن يدرى ؟ قد يتاح لها هناك ان تحظى بحب شخصية رفيعة المقام ، فتظفر لنفسها ـ حتى وهى زوجة لفاجنوتسى ـ بمكانة فى المجتمع الراقى !

•• وراحت تتكلم وابنتها تصغى اليها ، فى ضيق وصبر نافد ، وهى تحس بانها اصبحت بعيدة عن ان تحفل بهذه الاشياء التى طالما اثارت مشاعرهافى الزمن القديم !•• وما ان سنحت لها اقرب فرصة ، حتى استأذنت أمها فى الانصراف وعادت الى بيتها ••

★ ★ ★

◆ ولم تحمل الايام التالية أى تحول فى الموقف •• سوى ان مدام كوسيانو أفهمت جيما،بكلمات مقتضبة ، مفعمة بالمعانى المضمرة ـ بل وفىوجود«فاجنوتسى» الذى لم يفقه منها شيئا ! ـ انها غير قانعة بمجرد ان وجدت فى بيتها مأوى ،بل ان لها عليها حقا فى الرعاية ، وفى المعاملة بلطف !

واضطرت «جيما» الى مجاذبة الرومانية الحديث ، والابتسام لها ـ خـلال اجتماعهما حول المائدة على الاقل ـ غير انها ظلت تتجنبها فى غير هذه المناسبة ما استطاعت •• وان لم ترحمها عزلتها من الاحساس الدائم « بوجود » الاخرى ، فكأنها جرح قبيح ، بارد ، رطب ، لا يسبب ألما لكنه لا يبرأ ، ومن ثم يخفيه صاحبه تحت ثوبه ، دون ان ينساه أو يجرؤ على كشفه والنظر اليه !•• وحين تحتويها حجرتها ، لم تكن جيما تكف عن ارهاف سمعها للاصوات الصادرة من الحجرة المجاورة،التى لم تدخلها منذ سكنتها مدام كوسيانو،والتى كانت تتصورها قذرة سوداء مفعمة بالروائح الكريهة ، تلوث أرضها وجدرانها لطخ عفنة !•• وكانت تقول لنفسها احيانا فى تقزز : « انها الآن تخلع ملابسها ! » ، ويخيل اليها انها تراها ، بيضاء مرتجفة كقطعة من دهن معلقة فى خطاف جزار !•• أو تقول لنفسها فى الليل : « انها نائمة ! » ، وتروح تصغى بنفور طاغ الىغطيط المرأة ، وتخال ذلك الصوت يقسو على أعصابها وكأنه خطاب ابتزاز جديد ، أو نذير يعكر عليها صفو النعاس !•• ولم تكن هذه التخيلات والاصوات هى افظع ألوان العذاب الذى صارت تعانيه جيما ، بل كان اقساها ذلك الاحساس بوجود المرأة !•• ولكن اين كانت علامات هذا « الوجود » ؟ أفى البيت ، أم فى وعى «جيما» المضطرب ؟•• كانت تكتشف لاول مرة فى حياتها ان فى الدنيا ـ الى جانب الاشياء المادية التى يمكن اقصاؤها او القضاء عليها ـ عالما مثاليا تحب الروح أن تتأمل نفسها فيه،وكأن صورتها تنعكس على ماء صاف •• وان لا سلام للروح ما لم تجد هذا العالم شفافا نقيا !

★ ★ ★

◆ وعلى غير وعى منها ، تجاوز بغض جيما لمدام «كوسيانو» شخص تلك المرأة ، وامتد ليشمل كل اخطاء ماضيها هى ، وكل آمالها السالفة !٠٠ وكما يحدث للشخص المسموم اذ تخلصه نوبة عنيفة فى بضع ساعات من سموم امتصها جسده فى سنوات ، فان استنكارها لوضعها الراهن وتقززها منه فى تلك الايام الكئيبة من الشتاء ، لم يخلصها من اعجابها السالف بالرومانية فحسب ، بل خلصها ايضا من كافة النزوات المنحرفة التى اعمت بصيرتها منذ فترة المراهقة !٠٠ وفى عذاب الالم اخذت تبرأ من كثير من الانحرافات المحمومة ٠٠ وكان اضطرابها الشامل يدفعها نحو فجر نور جديد ، نور لم يداخلها شك فى انه سيظل محدودا ، واهنا ، فى نطاق الاخطاء والذنوب التى اقترفتها ، ولكنه مع ذلك خير من الجنون البرىء الذى أصاب امها ، ومن الفساد الذى اتلف مدام « كوسيانو » !

وكانت الرومانية كلما احرزت انتصارا على اهمال صديقتها لها ، امعنت فى الجرأة ٠٠ فاذا بهذا الامعان بالذات يتيح لجيما الفرصة التى لم تسع اليها أو تفكر فيها : فرصة التخلص من وجودها !٠٠ كان قد انقضى شهر على هذه الحياة الثلاثية - الزائفة ، القاسية - حين اعلن « فاجنوتسى » ذات مساء على المائدة ، فى مفاجأة تتمشى مع غريب اطواره ، انه قد فاز آخر الامر بذلك الكرسى الذى كان يسعى اليه منذ أمد طويل فى جامعة روما !

ولم تخف « جيما » فرحها بهذا النبأ ، فنهضت عن مقعدها ، وسعت الى زوجها فطبعت على صلعته قبلة ٠٠ فقد كان هذا هو التحول الذى سينتزعها من ربقة تلك المرأة !٠٠ انه الفرصة التى لم تطمع فيها ، ولو فى الاحلام ٠٠ الفرصة الرائعة التى جعلتها تحس بانها تعود الى الحياة !٠٠ غير أن هذا المنظر العائلى المؤثر بعث فى الرومانية أسى ، وتوجسا ، فمضت فى بعض الحديث ببراعة حتى انتهت الى القول بانها تغبط « جيما » ، فطالما تاقت هى نفسها الى ان تسكن العاصمة ، دون أن تفوز بأمنيتها !٠٠ وانزلق «فاجنوتسى» الطيب الى الشرك ، اذ بادر يقول انه لا ينتوى التفريق بين صديقتين تتعلق كل منهما بالاخرى الى هذا الحد ، ومن ثم يأمل ان تكون مدام « كوسيانو » ضيفتهما فى روما بضعة شهور !

وشحبت « جيما » لهذه الكلمات ، فتهالكت فى مقعدها ، أما مدام «كوسيانو» فسارعت تلتقط الفرصة ، معلنة لفورها قبولها الدعوة ، شاكرة لفاجنوتسى اريحيته ٠٠ فقال هذا انه سعيد اذ يراها تلازم زوجته وتؤنسها ، ومن ثم فجدير

به أن يكون الشاكر لها !٠٠ وقالت مدام كوسيانو وهى تصطنع التواضع أن لاداعى للشكر ، فهى انما تفعل ماتفعله حبا فى «جيما» ٠٠ بل انها أمعنت فى جرأتها فالتفتت نحو ربة البيت وسألتها بصوت يقطر عذوبة : « أليس كذلك ياحبيبتى ؟ »

وتبينت جيما ، فى ألم وغيظ كظيم ، سخرية الحوار الدائر ، واستعرضت فى خيالها حياتها المقبلة فى روما ، وبيتها الجديد الذى ستدنسه تلك المرأة بوجودها !٠٠ ثم مولد طفلها فى ظل ذلك الجو المقبض الذى تكتنفه أشباح النقمة !٠٠ واستبدت بجيمافجأة غيرة الأم التى تستبق بصيرتها الزمن ،لتستجلى المجهول ، فتصورت احتمال اقدام تلك المرأة على تهديد جديد : ربما بانتزاع الطفل الذى سيولد !٠٠ وفى بحران الخيال المحموم ، رأت جيما ابنها ـ وكأنها فى حلم ـ بين ذراعى هذه المرأة ، ورأت الوجه النجس المتنزى بالدهن وقدانحنى على وجه الطفل ، بينما هى نفسها ـ أمه ـ مبعدة عنه ، لاتقبله الا خلسة ، او باذن من الرومانية !

وطاش لهذه الرؤيا صوابها ، وانبعث منها فى قلبها حنق مضطرم كشرارة مست كومة من حطب يابس ، فما تبقى فى نفسها غير العاطفة البدائية وثورة اللحم التى لاضابط لها !٠٠ واستقرت عيناها الزائغتان فوق المائدة على سكين طويلة حادة كان زوجها يستخدمها فى قطع الخبز الذى لايشبع منه نهمه ، فامتدت يدها بغير عجلة الى تلك السكين وقبضت عليها، وادارتها لحظة ووزنتها ـ كما لو كانت تفحصها ـ ثم دفعت بكرسيها الى الوراء ، وانتصبت فى حركة مفاجئة ٠٠ وبأسرع من لمح البصر انقضت على «مدام كوسيانو» شاهرةسكينها !

وكانت الرومانية جالسة عند طرف المائدة ، فتفادت الضربة الاولى ، ونهضت وهى تطلق صرخة ثاقبة ٠٠ ثم تعثرت ٠٠ واخيرا لاذت وهى تلهث من الخوف والحقد بكرسى فاجنوتسى ٠٠ واستطاع هذا بمساعدتهاان ينتزع السكين بسهولة من يد زوجته !٠٠ وكانت جيما قد استندت الى المائدة ، شاحبة كمن بها دوار، لاتجيب عن اسئلة زوجها القلقة ، وهى تمر بيدها المنفرجة الاصابع على وجهها٠٠ فطوقها زوجها خشية ان يغمى عليها ،ومنحها ذراعه تستند اليها وهو يقودها نحو السلم ، فتركته يفعل دون ان تقاومه ، وقد زاغت نظراتها !

لكن مدام «كوسيانو» كانت قد عانت خوفا أقوى من أن يتيح لهـــا ضبط أعصابها ، فاشتعل فى اعماقها حقد دفين ضد جيما ، لايقل عن حقد جيما عليها، وراحت تصرخ بعبارات متقطعة يتردد فيها اسم فيتونى !٠٠ وعندئذ استعادت جيما نوعا من الحيوية ، فتوقفت وسط السلم الذى كان زوجها يرتقيه معها ، خطوة خطوة ، ورددت بصوت مضنى ـ ولكنه هادىء ـ ان كل شىء يمكن منذ

الساعة ان يروى ، فما عادت تعارض فى ذلك !٠٠ واجابت الرومانيـــة ، من أسفل ، بصوت يخنقه الغضب ويكسبه حدة ، بأن ذلك هو بالضبط ما سوف تفعله !٠٠ وأضافت الى ذلك مجموعة من السباب الخشن تكررت فيها كلمـة «قاتلة» التى تحشرج بها صوتها وهى تزأر بها فى حقد ملتاث ٠٠ وفى النهاية قالت انها لن تعرف للراحة طعما مادامت «جيما» خارج السجن !

وطال هذا الحوار بين جيما المتكئة على «الدرابزين» ، وبين الرومانية التى كانت تضطرب على الدرجة الاولى من السلم ، بضع لحظات ٠٠ عرف فاجنوتسى التعس خلالها ، وهو واقف على السلم بجانب امرأته ، ماكان من أمرها !

★ ★ ★

◆ وكان شحوب «جيما» يتزايد ، والدوار يطوح بها ، فاعتمدت بيديها على «الدرابزين»٠ وفهم زوجهاان الوقت غير مناسب للوم أو لطلب التفسير والايضاح، فأعرض عن السيدة «كوسيانو» ــ التى كانت فى هياجها قد أخذت تسبه هو أيضا ــ واجبر زوجته ، فى غير عنف ولكن بحزم رقيق ، على أن تصـــعد الى حجرتها ٠٠ وهناك مددها على السرير وهو يخشى أن يتفاقم حالها ، وقد كان هذا ماحدث بالفعل ، فان هى الا دقائق حتى كانت قد توهجت بالحمى ، وترنحت حدقتاها ، وفقدت حركاتها وكلماتها كل ترابط ٠٠ ودخلت فى مرحلة الهذيان! ٠٠ رأت وحشا طريا له مخالب حشرة ، يذهب فيختبىء فى الاركان ، أو تحت الاثاث ، أو يسعى على الارض بوثبات سريعة ويقفز فوق السرير ٠٠ وكانت تشير لزوجها نحوه فى رعب ، وترد اغطيتها على جسمها كما لو كان هناك من يريد انتزاعها منها !٠٠او تتخذ هيئة غامضة وهى تنطق، بلهجة الخطورة، ببضع كلمات مخبولة ٠٠ فكان أن أرســـل فاجنوتسى فى طلب طبيب ، وجلس فى انتظاره عند وسادة زوجته ٠٠

★ ★ ★

◆ وخلال مرض جيما الذى استمر اكثر من اسبوع ، حدثت لها جميـــع المضاعفات التى يخشى منها فى مثل حالتها ! ٠٠ لكن زوجها لم يبرح حجرتها ، بل كان يقضى فيها الليل بأكمله ، فاتسع له المجال للتفكير فى هدوء فيما يقع من أحداث ٠٠ فاذا شعوره الاول بالدهشة البالغة لخيانة زوجته ، قد أخلى مكانه لشعور غامر بالاستنكار ! ٠٠ ثم تعمق «الاستاذ» فى تأملاته فى الايام التالية، فاسترد قدرا أكبر من طمأنينته ٠٠ ولم تكن عبارات مدام كوسيانو العاصفة ، وردود جيما ، قد أطلعته من الامر الا على القليل ــ باستثناء الواقعة الاساسية ــ لكنه أدرك ان مما لاطائل تحته ، بل من السخرية المزرية، أن يهرع وراء الرومانية،

التى كانت قد نقلت معسكرها فى الحال بعد الالتحام! ‥ كما انه آثر ألا يستجوب جيما بعد شفائها ٠ واطال التفكير فيما يجب عليه ان يتخذ من مسلك، قبل ان يتغلب حبه لزوجته آخر الامر على خيبة رجائه فيها ، وعلى غضبته ‥ ورأى أن الصمت بشأن ماوقع هو خير منهج للمستقبل ، واعتبر مغامرة امرأته مع فيتونى هفوة شباب ، ينساها هو وجيما فى مدينة أخرى ، وفى جو آخر ، وينتهيان الى الاعتقاد بأن كل هذا ماوقع يوما ولا كان !

أما مابقى من مرارة فى نفسه ، فكان مصدره وجوب التنازل عن الطفل المرغوب ، على الاقل فى الوقت الحاضر !‥ لكنه لم يلبث أن جرد فكره من كل حقد ، وما عاد يهتم بغير شفاء زوجته ‥ فلما استطاعت فى نهاية خمسة عشر يوما أن تنهض ، قررا المبادرة بالرحيل ‥

★ ★ ★

◆ ورحلا ، ذات صباح من شهر يناير ، فى ساعة مبكرة ، وكان الفجرينشر ضبابا مشبعا برطوبة الليل ، والبرد لاذعا ‥ ولم تكن المصابيح قد أطفئت بعد فى شارع (الكورسو) الموحش ‥

وعندما هبط الاوتوكار الذى كان يحملهما الى طريق الخندق ، استطاعت جيما ان ترى لآخر مرة المدينة الغارقة فى السواد ، تلمع فى قممها بضعة اضواء واهنة ، تحت سماء انتثرت فيها السحب ‥ وكانت جيما تفكر : « بعد نحو ساعة ستصحو «مدام كوسيانو» من نومها ، بشرائط شعرها الورقية ، ووجهها الملطخ بالدهان ، وستذهب فتصنع لنفسها فنجانا من القهوة فى مطبخها ، وستبدأ أمى ايضا يومها ، وسيرفع محل الحلوى فى (الكورسو) ستاره الحديدى، بضجته المعتادة ، وستدق اجراس الكنائس للقداس الاول ، أما انا فلن أرى تلك المرأة «كوسيانو» بعد الان ، ولن أسكن بعد فى الزقاق ، ولن أسمع الاجراس ! »

واشاحت بنظراتها عن المدينة وهى غارقة فى هذه الافكار ، وكان «الاتوكار» قد انطلق فى السهل ، فى الطريق الى المحطة ، التى لاحت مبانيها الصفراء من خلال صفوف من الاشجار ‥ كما لاح ايضا ، وراء حاجز ، الدخان الابيض لقطار يتحرك ، مغادرا تلك المدينة الصغيرة ‥ من مدن الاقاليم !

تمت القصة

شركة فن الطباعة ٥٨١٤٩